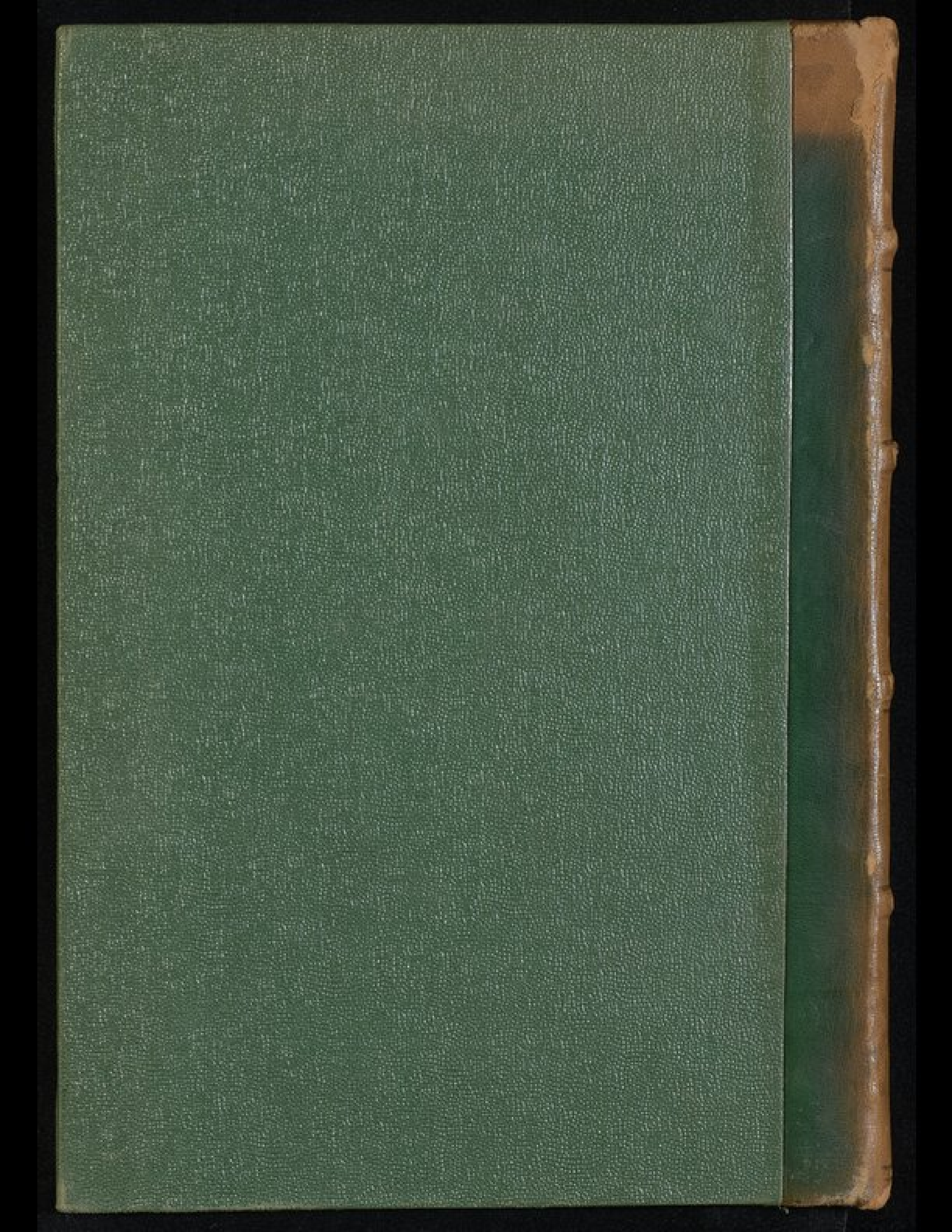
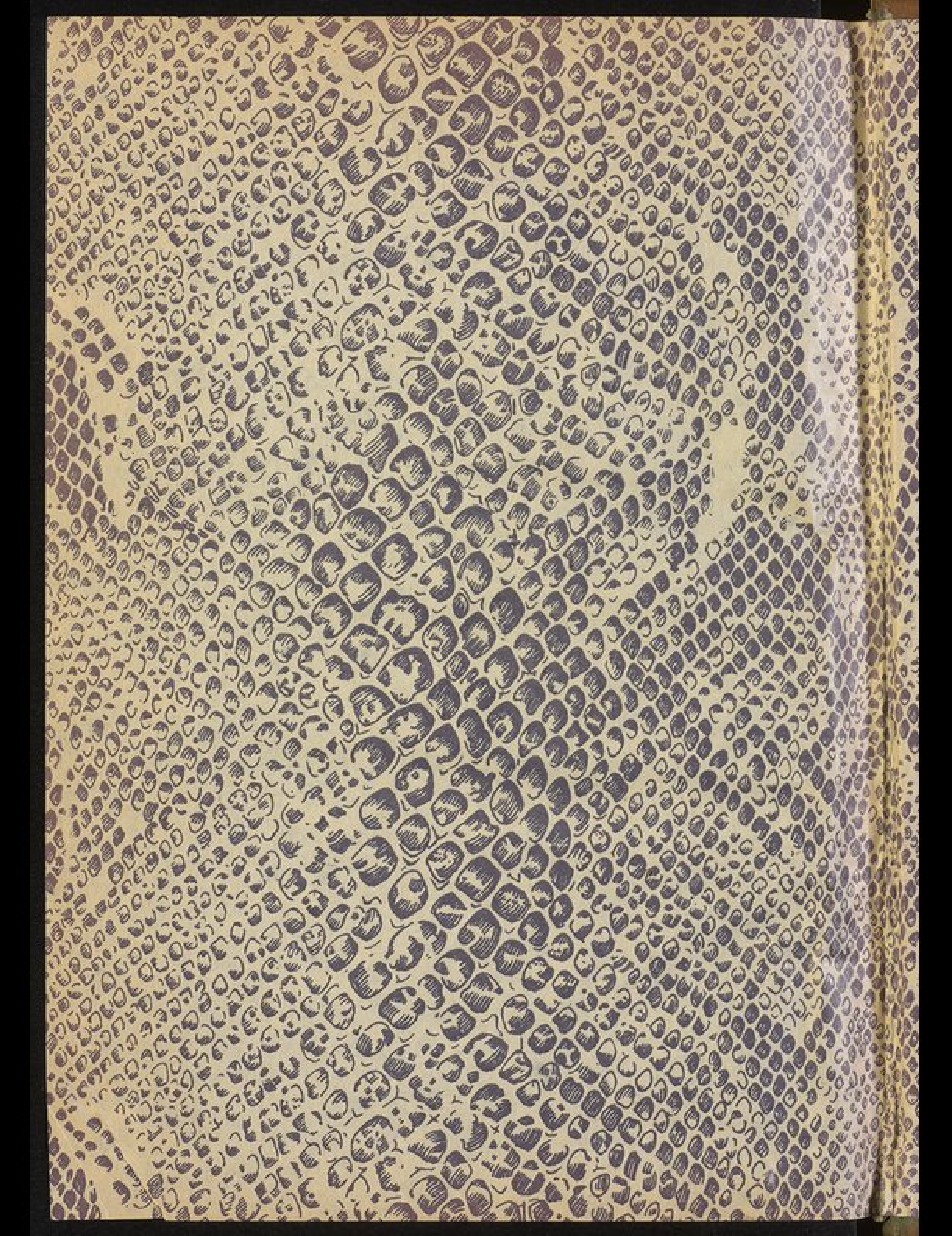
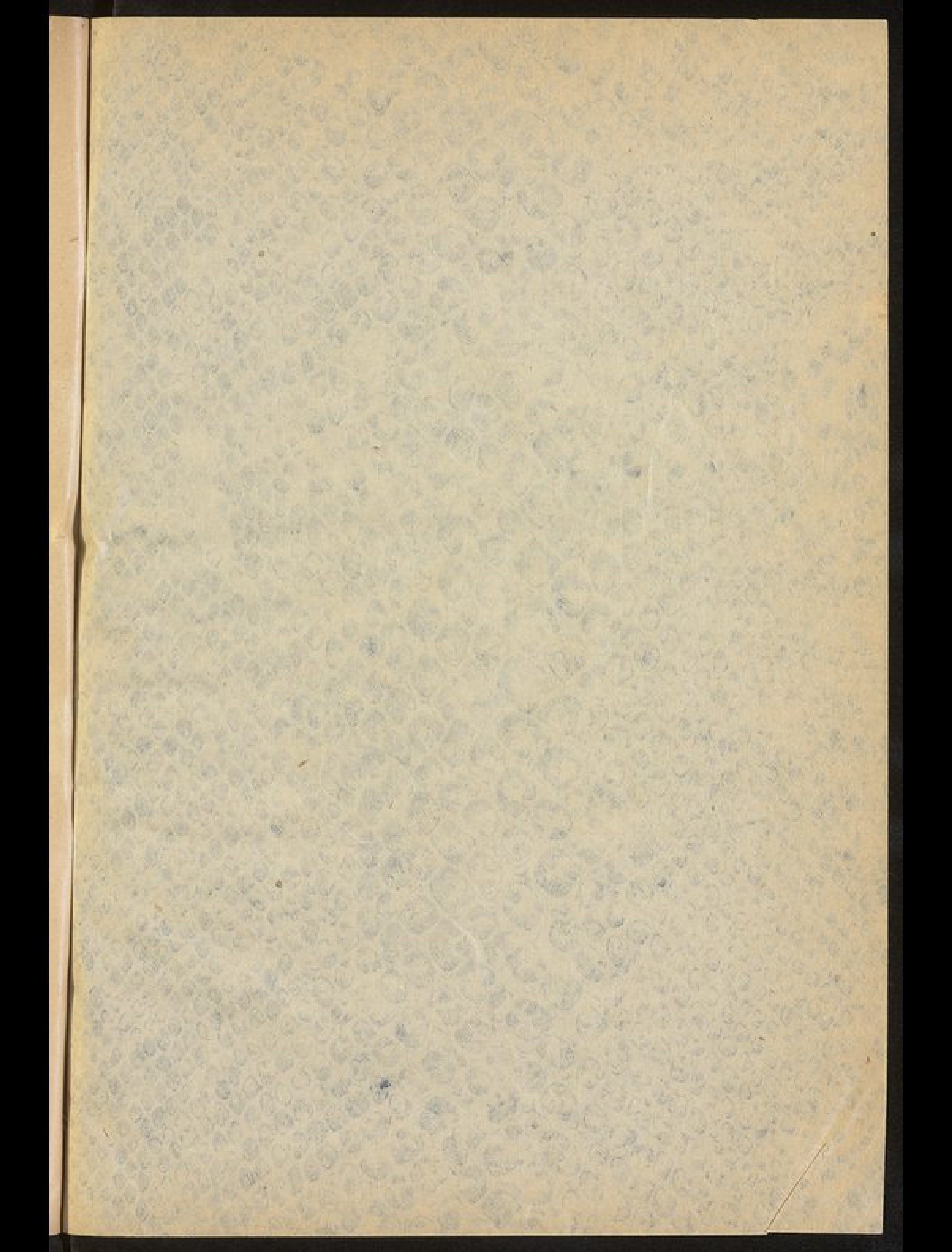








فن التشبيه

بلاغة - أدب - نقد

الجزء الثالث

تأليف

علي الجندي

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ القُرْآنَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ »

(قرآن كريم)

الفصل الأول

محسنات التشبيه

هناك نكت بلاغية بعضها لا يتحقق جمال التشبيه بدونه، وبعضها - إذا توافرت له - رفعت من قيمته، وزادته حسنا على حسنه.

ومن العسير إحصاء هذه النكت؛ لأن ما تزداد به الأشياء ملاحة وقوة لا يكاد يحصى.

وقد حصر البلاغة بعض أهل الأدب والكلام فى عشرة أقسام، فرد عليه الباقلانى: بأن من قدّر أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا لليسير[1].

فمن هذه المحسنات:

١ - إذا كان الغرض من التشبيه بيان الحال أو المقدار، فيجب أن يراعى الإتيان به محسوسا؛ لأن المحسوس أيسر فهما وأسهل إدراكا من المعقول؛ ولأن فيه تمثيلا للغائب المبهم غير المعتاد، بالحاضر الواضح المعتاد، فيتجلى حسنه بظهور معناه، وبيان المراد منه.

وأن يراعى فى وجه الشبه أن يكون معروفا؛ لأن النفس تهش لما تعرف وتأنس به وتقبل عليه، ولهذا يقول الله - تعالى - : فى معرض الامتنان على أهل الجنة: «كلَّما رُزِقوا منها من ثمرة رزقا، قالوا هذا الذى رُزِقنا من قبلُ، وَأُتوا به متشابِهاً».

---

(١) إعجاز القرآن — ٢٥٣ — ٢٢٥.

وقد ذهب المفسرون فى تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة : أن الإنسان بالمألوف آنس ، وإلى المعهود اميل(١) .

ثم يجب أن يراعى فى بيان المقدار خاصة — زيادة على ما تقدّم — أن يكون المشبّه به على مقدار المشبه فى وجه الشبه بغير زيادة ولا نقص .

وكلما كان القدر المشترك أبعد من الزيادة والنقص ، كان التشبيه أدنى إلى القبول والتسليم ، وأبرأ من العيب والهجنة ؛ لأن الدقة فى التحديد هنا مطلوبة ومرعية ، وعليها يتوقف كمال التشبيه وجماله وسلامته من التهافت .

٢ — إذا كان التشبيه مقلوبا ، أو إذا كان الغرض منه تقرير المشبه لدى السامع ، فيراعى أن يكون المشبه به محسوسا ، وأن يلحظ فيه أن يكون أتمّ نصيبا وأكمل اختصاصاً بوجه الشبه المحسوس من المشبه ، ليتحقق معنى المبالغة، وليتأكد فى النفس، وهما الثمرة المقصودة منه .

٣ — إذا كان الغرض من التشبيه بيان إمكان الوجود ، أو التحسين أو التقبيح ، فيراعى أن يكون المشبه به حكما صحيحا مسلّما ، وبرهانا مقنعا مقبولا سائغا، وأن يكون وجه الشبه فيه أظهر وأشهر؛ ليستعان به على إزالة عناد المعترض ومكابرته ، وتمهيد خضوعه وإذعانه .

٤ — فى تشبيه الاستطراف ، يراعى أن تكون الصورة أنيقة بديعة تخلب اللب وتبهر العقل ، وتبعث فى النفس نشوة وأريحية ، وتثير فيها نوازع الشوق إلى استجلاء الجمال الفنى ، وتزيد فى إرهاف الذوق وظمئه إلى المتعة بطرائف البيان .

وأن يكون المشبه به نادر الحضور فى الذهن مطلقا ؛ لبعده عن متناول التصور ، أو نادر الحضور فيه عند حضور المشبه لبعد إدراك النسبة بينهما

---

(١) تفسير النسفى — ١ — ٣٣ .

إلا لدى الأذكياء الملهمين ؛ لأن من طبيعة النفس أن تنفتح للأمر النادر ، وتتشوّف إلى الجديد المستحدَث ، وتُشيح عن المكرر والمعاد .

٥ — أن يضع الأديب نُصب عينيه بعامة ، صبّ الأمور المعنوية فى قوالب المحسوسات تحقيقاً لكُنْه التشبيه ، وإبرازا للأصل الذى قام عليه وأنشىء من أجله ؛ وهو توضيح الشىء الخفى ، وتقريب المعنى البعيد .

٦ — أن يكون وجه الشبه صحيحا دقيقا بيّنا شاملا للطرفين، مؤديا إلى الغرض من التشبيه ، كاملا وافيا بتحصيل ما عُلّق عليه ، بريئا من السوقية والابتذال الذى يُلحقه بكلام الحشوة والدهماء .

٧ — أن تراعى جهة التشبيه مراعاة تامة دقيقة؛ فلا يحدث انحراف عن الغاية المقصودة ، حتى لا يقود إلى الخطأ أو القبح كما سنفصله بعد ، وكما عرضنا له فى الجزء الثانى .

وفى ذلك يقول ابن طَباطَبا : ينبغى للشاعر أن يتأمّل شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورهما أو قبحه ، فيلائم بينهما لتنتظم معانيهما ويتصل كلامه فيهما كقول ابن هَرمة :

وإنى وتركى ندى الأكرمين ... وقَدْحى بِكفّىَّ زِنادا شَحاحا[1]

كتاركة بيضها بالعَراء ... ومُلبسة بيضَ أخرى جناحا[2]

وقول الفرزدق يهجو جريرا :

فإنك إذ تهجو تميما وترتشى ... سَرابيلَ قيس أو سُحوق العمائم[3]

---

(١) شحاحا بالفتح . لايورى ، كناية عن استجدائه البخلاء .

(٢) كتاركة : يريد بها النعامة ؛ لأنها ربما خرجت للمطعم فتركت بيضها وحضنت بيض غيرها ، ولهذا ضرب بها المثل فى الحمق .

(٣) سحوق العمائم : البالية .

كمُهريق ماء بالفــلاة وغرّه   سراب أذاعته رياح السَّمائم

يريد أن جريرا — وهو من تميم — يهجو الفرزدق وآله بنى دارِم صفوة تميم ومناط فخرها ، ويمدح « قيس » وهم أعداء تميم جاهلية وإسلاما طلبا لرشوته لهم بالأكسية ، فعيره بذلك ؛ لأن جريرا فى الحقيقة إنما يهجو نفسه وقومه .

وكان يجب فى الشعر أن يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق ، وبيت للفرزدق مع بيت لابن هرمة ، فيقال :

وإنى وتركى ندى الأكرمين   وقدحى بكفىّ زنادا شحاحا

كمهريق ماء . . . .

ويقال :

فإنك إذ تهجو تميما وترتشى   سرابيل قيس أو سحوق العمائم

كتاركة بيضها بالعــراء   . . . .

حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا ، وإلا كان تشبيها بعيـدا ، غير واقع موقعه الذى أريد له[1] .

وبإنعام النظر فى معانى الأبيات ، يظهر لنا الخطأ فى الترتيب الأول ، وصحته فى الترتيب الثانى ؛ لأن من يترك استمناح الأجواد الكرماء المتحقق بذلهم ، ويستميح الأشحاء اللئام الذين لا تندى أيديهم ، يشبه من يريق ماء فى يده ، اعتمادا على سراب غرّار لا يجديه شيئا !

وكذلك من يهجو قومه ويضع منهم بذمّه ، ويمدح أعداءهم ابتغاء ما يناله من عرض حقير ، أشبه الناس بالنعامة الحمقاء التى تجفو بيضها فيعطَب ويموت ! وترُخم على بيض غيرها فتمنحه الحياة والبقاء .

---

(١) الموشح للمرزبانى — ٢٢٧ .

٨ — أن يفرق بين ما به المشابهة وما به الامتياز ، فلا ينظر إلى جميع الأوصاف ، بل إلى الأوصاف الخاصة التى تكوّن عناصر وجه الشبه ، متجاهلا غيرها مما لا يوجد فى الطرفين معا ؛ كقول ابن المعتز فى وصف الخمر :

وكأنّ كفّيه تقسِّم فى   أقداحنا قِطَعا من الشمس

وقول تاج الدولة القُضاعى فى حسناوين ؛ إحداهما فى ثوب ديباج أحمر والأخرى فى أسود :

أرى بدرين قد طلعا   على غصنين فى نسق
وفى ثوبين قد صُبغا   صباغَ الخد والحـدق
فتلك الشمس فى شفَق   وهذى البدر فى غسَق

فلم يقصد من هذه التشبيهات غير المشاركة فى الألوان دون غيرها من الصفات .

وليس كل شىء يُشبَّه بشىء يقع التشبيه به من جميع الجهات حتى لا يُغادر منها شىء ، وقد يكون إنما شبه به ببعض ما فيه لا بكله[1] .

وبمراعاة الشرط المتقدم يكون التشبيه جامعاً بين الاتفاق التام والاختلاف التام ، وبالجمع بين هذين يتحقق معنى الحسن والإبداع والسحر والخلابة .

٩ — أن يحصل بالتشبيه على الفوائد المقصودة منه ، وهى الوضوح والمبالغة ، والاختصار ، والتأكيد .

فقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العُنّاب والحشَف البالى

من التشبيه المقصود به إيضاح الشىء ؛ لأن مشاهدة العناب والحشف

---

(١) الموازنة للآمدى — ٣٧٦ .

البالى أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة ويابسة[٢] .

وقول النابغة :

فإنك كالليـــل الذى هو مدركى ... وإن خِلت أن المنتأى عنك واسع

يجمع المقصودين من الظهور والمبالغة .

اما الظهور ، فلأن علم الناس بأن الليل لابد أن يدرك النابغة أظهر من علمهم بأن النعمان لابد أن يدركه .

وأما المبالغة ، فإن تشبيهه بالليل الذى لا يصدّه حائل ، أعظم وأفخم وأبلغ فى المدح .

وقول النابغة أيضاً :

متوّج بالمعالى فوق مفرقه ... وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر

يحمل معناه إلى الذهن جليّا قويا فخما من طريق موجز مختصر، لايتأتى بإسهابنا فى وصفه بالجمال والشجاعة .

وسر ذلك : أن الصور العقلية يسهل انتزاعها من الألفاظ الخاصة ، ومن الأمور الجزئية والبسيطة ، أكثر من الألفاظ العامة ، والأمور الكلية والمركبة .

فالشطر الأخير من البيت المتقدم يتضمن على قصره من المعـــانى ما لا يستطاع تأديته من غير طريق الصور الخيالية إلا بتطويل وإفاضة ، مع الخلو من المبالغة والقوة والتأثير والتقرير التى حواها هذا الكلام الموجز القصير .

هذه القواعد التى ذكرناها قواعد رئيسية فى حسن التشبيه .

---

(٢) سر الفصاحة — ٢٣٦ — ٢٣٧ .

أما الأشياء التي يزيد بها حسنه فكثيرة ، منها :

١ — أن تجتمع عدة تشبيهات فى بيت واحد أو ألفاظ يسيرة ، كقول امرئ القيس المشهور :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سِرحان وتقريب تَتفُل

فأتى بأربعة أشياء مشبّهة بأربعة أشياء .

وذلك أن مخرج قوله :

له أيطلا ظبي . . . . .

إنما هو على أنه له أيطلان كأيطلَى الظبي ، وكذا ساقان كساق النعامة ، وإرخاء كإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التتفل[١] .

وكقول ابن الساعاتي :

ما الجوّ إلا عنبر والدّوح إلا جوهر والأرض إلا سندس

سفرت شقائقها فهم الأقحوا ن بلثمها فرنا إليه النرجس

فكأن ذا ثغر ، وذا خد بحا وله ، وذا أبداً عيون تحرس

هذا رأى قدامة ، ولعله يريد من اجتماع عدة تشبيهات أن تكون الصورة غنية بألوان مختلفة من الأخيلة ، لتكون ممتعة من جهة ، ودالة على مهارة منشئها من جهة أخرى .

ونحن لا نستطيع أن نقر هذا الرأى فى كل حال ، فكثيراً ما تكون كثرة التشبيهات فى البيت الواحد من أسباب ثقله ، وفسولة تركيبه ، وتعقيد معناه ، وكثيراً ما يكون التشبيه الواحد مليئاً بالجمال والخصب والحيوية بحيث لا تطاوله هذه التشبيهات المجتمعة فى عمق الخيال ودقة المعنى وبداعة التصوير وبعد المسلك .

---

(١) نقد الشعر — ٦٧ — ٦٨ .

٢ — أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير كقول بعض النساء :

هم الربيع والسنام المعتمد ... والذروة العلياء والركن الأشد

٣ — أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال، كقول امرئ القيس — يصف الدرع في حال طيها — .

ومشدودة السَّك موضونة ... تَضاءل في الطيّ كالمِبرد[١]

ثم وصفها في حال النشر فقال :

تفيض على المرء أردانها ... كفيض الأتيّ على الجَدْجد[٢]

وقول ليلى الأخيلية ترثي تَوبة بن الحُمَيِّر :

فتى كان أحيا من فتاة خريدة ... وأشجع من ليث بخَفَّان خادر[٣]

وقول العسكري :

إذا اهتزّ للهيجاء فهو مهند ... أو اهتزّ للإفضال فهو غمام

وقول بعضهم :

جلوس في مجالسهم رِزان ... وإن ضيف ألمّ فهم وقوف

إذا نزلوا حسبتهم بدوراً ... وإن ركبوا فإنهم حتوف

٤ — أن يقع على صورة التشكيك — وهو نوع مما يسمى تجاهل العارف ومزج الشك باليقين — وتعريفه : أنه إخراج ما تعرف صحته مُخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً .

وقد رأيناهم ، العرب ، احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها وبالتشكك في الشبهين .

---

(١) السك : المسمار ، والموضونة: المنسوجة حلقتين حلقتين : أي إذا طويت صغرت ولطفت حتى تصير كالمبرد .

(٢) الجدجد كفرقد : الأرض الصلبة القوية أي إذا نشرت فاضت على لابسها فيض الغيث القوي على الأرض الصلدة اليابسة .

(٣) خفان كشداد ، مأسدة مشهور بقوة أسودها .

وهو من ملح الشعر وطرف الكلام ، وله فى النفس حلاوة وحسن موقع ، بخلاف ما للغلو والإغراق .

وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر .

مثاله من المنثور ما كتبه العسكرى إلى بعض أهل الأدب : سمعت بورود كتابك ، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته ، وهزّ عِطفى المرح أمام مشاهدته ، فما أدرى أسمعت بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ! ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ، أم روض ممطور ! وكلام منثور ، أم وشى منشور ! ولم أدر ما أبصرت فى أثنائه : أأبيات شعر ! أم عقود در ! ولم أدر ماحملته : أغيث حلّ بوادى ظمآن ، أم غوث سيق إلى لهفان .

ومثاله من المنظوم قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء مخبئات   فحُقّ لكل محصنَة هِداء[1]

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء .

وهذا أملح من أن يقول : هم نساء وأقرب إلى التصديق .

وقول ذى الرمة :

فياظبية الوعساء بين جُلاجل   وبين النقا آأنت أم أم سالم[2]

فلو قال : أنت أم سالم على نفى الشك ، بل لو قال : أنت أحسن من الظبية لما حلّ من القلوب محل التشكيك .

---

(١) الهداء : هداية العروس إلى زوجها .

(٢) الوعساء : رملة لينة ، وجلاجل بضم الجيم وفتحها ويروى بالحاء : اسم موضع بعينه ، والنقا : الكثيب من الرمل ، وأدخل الألف بين الهمزتين من قوله : آأنت كراهية اجتماع همزتين كما دخلت بين النونات فى قولهم : أضربنان كراهية اجتماعها .

وقول جرير .

فإنك لو رأيت عبيد تيم وتيما قلت أيهما العبيد ؟

فلو قال : عبيدهم خير منهم لما ظُنّ به الصدق ، فاحتال فى تقريب المشابهة ؛ لأن فى قربها لطافة تقع فى القلوب وتدعو إلى التصديق .

وقول أبى النجم يصف عرق الخيل :

كأنه من عرق يُسربلهْ ككُرْسف النَّداف لولا بللهْ[(١)]

فإنه لو قال : إنه الكرسف لم يكن فى حسن هذا ؛ لأنه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع فى الشك .

ومن ذلك قول أعرابى :

أيا شبه ليلى ماالليلى مريضة وأنت صحيح إن ذا لمحال

أقول لظبي مرّ بى وهو راتع أأنت أخو ليلى فقيل يقال

وقول أعرابى آخر :

أقول والنجم قد مالت مياسره إلى الغروب تأملْ نظرة حارِ[(٢)]

ألمحة من سنا برق رأى بصرى أم وجه نُعم بدا لى أم سنا نار

بل وجه نعم بدا والليل معتكر فلاح من بين حجّاب وأستار

وقول المتنبى :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر بفىَّ بَرودٌ وهو كبدى جمر[(٣)]

أذا الغصن أم ذا الدِّعص أم أنت فتنة وذَيّا الذى قبّلته البرق أم ثغر

---

(١) الكرسف بضم الكاف : القطن .

(٢) حار : مرخم حارث .

(٣) البرود : الشديد البرد .

وقول ابن هانىء الأندلسى :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك ... وكئوس خمر أم مَراشف فيك

وقول بعضهم :

أأنتِ ديار الحىّ أيتها الربا الأنيقة ... م أم دار المهـا والنعائم

وسرب ظباء الوحش هذا الذى أرى ... بربعك أم سرب الظباء النواعم

وأدمعنا اللاتى عفـاك انسجامها ... وأبلاك أم صوب الغمام السواجم

وأيامنا فيـك اللواتى تصرّمت ... مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم

وهذا النوع كثير فى الأشعار ، والشك هنا أحلى فى الصدور وقعا وأندى على الأكباد رفيفا من اليقين .

٥ — أن يكون قد وطىء له بكلام سابق ؛ كقول ابن الرومى فى وصف سوداء :

يفترّ ذاك السّواد عن يَقَق ... من ثغرها كاللآلىء الفِلَق

كأنهـا والمزاح يُضحكها ... ليل تفرّى دجاه عن فَلَق

وفضل كلام ابن الرومى عن سواه : أنه قدم فى التشبيه لمعناه مقدمة أيدته، ووطأت له الآذان ، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان ؛ وهو قوله :

يفتر ذاك السواد[1] . . . . .

وقول الأعشى :

وعرّيت من ملك وخير جمعته ... كما عُريت مما تُمِرّ[2] المغازل

وقول إبراهيم الصولى :

أراك إذا أيسرت خيّمت عندنا ... مقيما وإن أعسرت زرت لماما

---

(١) الذخيرة — ١٣١ .

(٢) تمر : تفتل .

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه   أغبّ وإن كان الضياء أقاما

وقول المتنبي :

سقانا وحيانا بك الله إنما   على العيس نَوْرٌ والخدور كمائمه

لما جعل هؤلاء الحسان زهرا وجعل الخدور كمائم، دعا لهن بالسقيا كما تسقى الأزهار، وفرّع عن ذلك أن جعلهن تحية يحيا بها، كما جرت العادة أن يحيا بالزهر والريحان، وهو من المعاني الغزلة الرقيقة .

وقول أبي فراس الحمداني :

وقور وريعان الصبا يستفزّها   فتأرن أحيانا كما يأرن[1] المهر

وقول محمد الشامي :

لا يحسن الشعر إلا في محاسنه   كالدر أحسن ما يبدو على الجيد

فأنت ترى في هذه الأبيات جميعها : أنه قد تقدّم التشبيه ما يدل عليه ، حتى ليكاد يتصور في ذهنك، لوثاقة العلاقة بين الكلام السابق واللاحق .

٦ — أن يجمع فيه بين لونين من الشعر كالنسيب والمدح مثلا .

فمن ذلك قول القزّاز يمدح ابن صمادح :

نفى الحبُّ عن مقلتيَّ الكرى   كما قد نفى عن يديّ العدَم

فقد قرّ حبك في خاطرى   كما قرّ في راحتيه الكرم

وفرّ سلوّك عن فكرتى   كما فرّ عن عرضه كل ذم

فحبّي ومفخره باقيا   ن لا يذهبان بطول القدم

فأبقى لى الحبُّ خال وجدٍ   م وأبقى له الفخر خال وعم

---

(١) أرن : مرح ونشط .

وقول إبراهيم بن محمد الأنصارى :

خطرت كَمِياد القنا المتأطّر ورنت بألحاظ الغزال الأعفر[١]

وأتتك بين تطاعن وتداعب فى فتك قسورة وعَطفة جؤذر

فجمع بين الحماسة والنسيب .

وهذا اللون يسميه أهل البيان : « الافتنان » .

٧ — أن يكون لطيف الصياغة ، عذب الألفاظ ، خفيف الظل ؛ كقول أبى سعد المخزومى :

والورد فيه كأنما أوراقه نُزعت ورُدّ مكانهن خدود

فلم يزد على التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست فى نفسك هزة ، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها[٢] .

٨ — أن يكون تشبيه حالة وجود بحالة عدم ، أو حالة عدم بحالة وجود .

فن الأول — وقد جاء كثيراً فى أشعارهم — قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذّة ولم أتبطّن كاعبا ذات خَلخال

ولم أسبأ الزّق الرّوِىّ ولم أقل لخيلىَ كُرّى كرة بعد إجفال

وقول متمّم بن نُويرة فى أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة[١] حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فلما تفرّقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

---

(١) جذيمة الأبرش ملك الحيرة .

(٢) الأعفر : ما يعلو بياضه حمرة من الظباء .

(٣) الوساطة للقاضى الجرجانى — ١٤٧ .

وقول أشجع السلمى :

كأن لم يمت حىّ سواك ولم تقم ... على أحد إلا عليك النوائح

وقول إبراهيم بن المهدى :

كأن لم يكن كالغصن فى ميعة الضحا ... سقاه الندى فاهتز وهو رطيب

كأن لم يكن كالدر يلمع نوره ... بأصدافه لما تشنه ثقوب

كأن لم يكن زين الفناء ومعقِل م ... النساء إذا يوم يكون عصيب

وقول أبى نواس :

تضحك الدنيــا إلى ملك ... قام بالآثار والسـنن

سنّ للناس الندى فندوا[1] ... فكأنّ البخـل لم يكن

وقول ابن الأحنف :

كأن لم يكن بينى وبينكم هوى ... ولم يك موصولا بحبلكم حبلى

وإنى لأستحيي لكم من محدِّث ... يحدث عنكم بالملالة والمطل

وقول ابن زيدون :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنــا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا

سران فى خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يُفشينا

وقول ابن يحيى :

إن يغدِروا أو يفجُروا ... أو يبخـلوا لم يحفِلوا

وغدوا عليك مرجلين ... كأنهم لم يفعـلوا

وهو من بارع الهجاء، وفيه تتمثل صفاقة الوجه وصلابته أدق تمثيل، وكأن قائله نظر إلى الحديث الشريف « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » .

(١) ندوا : أى أخصبوا .

وفيه يقول قدامة : ومن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمَّد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق . والبخل ضد الجود .

ثم أتى بعد ذلك بضد أجلّ الفضائل وهو العقل حيث قال :

وغدوْا عليك مرجّلين . . . . .

لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمة والقِحة التي هي من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس في كتابه « في أخلاق النفس[1] » .

والشعر عندى لا يحتمل هذا التحليل العقلي الفلسفي ، وليس هو من مراد الشاعر العربي الذى لا يفهم هذه النظريات المعقدة ، وإنما غرضه أن يهجوهم بصفات تعيّر بها العرب ، ويخزى منها الرجل الشريف .

ثم زادهم سبا مقذعا ؛ فذكر أن هذه الصفات تندى لها جباه من لصقت بهم ، ويطأطئون لها رءوسهم خجلا ، ولكن هؤلاء لتجردهم من الحمية والكرامة والنخوة والأنفة ، ولنضوب وجوههم من الحياء ، وموت ضمائرهم ومشاعرهم يمرون عليك — وقد رجّلوا شعورهم إمعانا في الصفاقة والاستهتار ولفتا للأنظار — كأنهم لم يأتوا شيئاً منكراً على حين أنهم أتوا بأنكر الأشياء ! .

والذى ذكره قدامة ، مردّه إلى مذهبه الذى اعتنقه ؛ وهو أن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ، ويخطىء كل من يمدح بهذا ويذم بذاك ، ويستدل بإنكار عبد الملك على ابن قيس الرقيات في قوله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

---

(١) نقد الشعر — ٥٦ .

وقوله له : تقول فيَّ هذا وتقول لمصعب :

إنما مصعب شهاب من الله م تجلت عن وجهه الظلماء

وزبدة رأى قدامة أتى بها الشاعر فى قوله :

وعيب الفتى فيما أتى باختياره ولا عيب فيما كان خَلقا مركبا

وقد ذكر الخفاجى أن الآمدى أنكر على قدامة مذهبه ، وقال : إنه خالف فيه مذاهب الأمم كلها عربيها وعجميها ؛ لأن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ويتيمن به ، ويدل على الخصال المحمودة .

فإن كان قدامة يعتقد أن ذاك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خُلق عليه ، فهذا حكم جميع الفضائل الإنسانية ؛ فإن الكريم قد خلق كريماً والشجاع شجاعا والعاقل عاقلا ، وكما لا يقدر القبيح الوجه على أن يستبدل صورة غير صورته ، كذلك لا يقدر الجاهل على أن يستفيد عقلا فوق عقله ، ويلزم قدامة ألا يجيز المدح بشرف النفس، وكرم الأصل ، لأن ذلك يجرى مجرى الصور، ولا صنيع للممدوح فى شىء منها، والأمر فى هذا ظاهر .

فأما إنكار عبد الملك بن مروان على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج ، فإنما أنكره ، لأن التيجان من زى ملوك العجم ، ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها ، فقال له : تمدحنى كما تمدح ملوك الأعاجم ، وتمدح مصعباً كما تمدح الخلفاء .

والأمر كما قال عبد الملك ، لأن مدح الخليفة بأنه شهاب من الله — تعالى — أبلغ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه[1] .

وهذا الذى ذكره الآمدى صحيح ، ولو لم يكن فى ذلك إلا ما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى .

---

(١) سر الفصاحة ١٥٠ — ١٥١ .

ومما يدل على خطأ قدامة فى تهوينه من قيمة الجمال : ما جاء فى الآثار من أن الله لم يبعث رسولا قط إلا جميل الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت .

وكان الرسول — صلوات الله عليه — حسن الصورة ، وقد سئل على — كرم الله وجهه — : أكان وجه رسول الله مثل السيف ؟ فقال : لا ، بل مثل القمر .

وقد جاء فى صفته الشريفة : كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وفيه يقول شاعره حسان :

فأجمل منك لم تر قط عينى ... وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفىً بالخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام

وكان عمر إذا رآه ينشد قول زهير :

لو كنت من شىء سوى بشر ... كنت المنوّر ليلة البدر

ونظرت إليه السيدة عائشة يوماً فتبسمت ، فسألها عن ذلك ، فقالت : كأن أبا كثير الهذلىّ عناك بقوله :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلّل

وكان — عليه الصلاة والسلام — يدعو إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال لجرير بن عبد الله البجَلى : « أنت امرؤ قد حسّن الله خَلْقك فأحسن خُلقك » .

كما كان يستحسن أن يكون الرسول حسنَ الوجه حسنَ الاسم ، وفى ذلك يقول : « إذا أبردتم بريداً[1] فليكن حسن الوجه حسن الاسم » .

---

(١) أى إذا أرسلتم رسولا .

وقد ذهب بعض المفسرين فى قوله – تعالى – : « يَزيد فى الخَلق ما يشاء » ! أنه الوجه الحسن ، والصوت الحسن .

والحكماء يقولون : إن حسن الصورة أول سعادة الإنسان ؛ لأن الله – تعالى – بلطيف حكمته لم يخلق الصورة مختارة الصفات سليمة من الآفات ، إلا وأضاف إليها ما يناسبها من العقل والصفات .

وقالوا : قلما توجد صورة حسنة تدبّرها نفس رديئة .

والمأمون يقول : إن الروح إذا وقع أثرها فى الظاهر كانت صَباحة ، وإذا وقع أثرها فى الباطن كانت فصاحة .

ورحم الله شوقى إذ يقول :

والحسن من شرف الوجوه وخيرُه ... ما أوتى القـــواد والزعماء

وقد كان الفرس يتيمنون بالوجه الحسن كما كانت العرب تتمدح بجمال الوجه ؛ قال ابن عنقاء الفزارى فى عُميلة الفزارى .

غلام رماه الله بالخـــير يافعا ... له سيمياء لا تشُقّ على البصر(١)

كأن الثريا عُلّقت فى جبينه ... وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر

وقول البحترى :

ولما حضرنا سدّة الإذن أخّرت ... رجال عن الباب الذى أنا داخله

فأفضيت من فورى إلى ذى مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله

وكل ما اشترطوه فى ذلك ألا يُسفّ المادح فى مدحه حتى يشبه النسيب كقول المتنبى :

أغار من الزجاجة وهى تجرى ... على شفة الأمير أبى الحسين

---

(١) رواية المبرد فى الكامل . رماه الله بالحسن ، وقد انتقده أبو رياش ، وقال لا يرويه بالحسن إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود . رغبة الأمل — ١ — ١٠٨ .

وقول مهيار في الصاحب أبي القاسم بن عبد الرحيم :

إذا الصاحب استقبلت غُـرة وجهه   بدا قمرٌ وافٍ وماس قضيب

أما تشبيه حالة العدم بحالة الوجود — ضد الأول — فكقول عنترة في ناقته — وهو من التشبيه المقلوب : —

وكأنَّ رُبًّا أو كُحَيْلا مُعْقَداً   حشَّ الوُقودُ به جوانب قُمْقُمِ[1]

ينباع من ذِفرى غضوب جَسْرة   زَيّافة مثل الفنيق المُكدَّمِ[2]

شبه العرق السائل من رأسها وعنقها بطلاء أو قطران ، وضع في قمقم أوقدت عليه النار حتى غلى وسال .

وعرق الإبل أسود ؛ لذلك شبهه بالطلاء والقطران ، وشبه رأسها بالقمقم في الصلابة .

٩ - أن يكون من المحسوسات الناصعة حتى كأنه يرى أو يسمع أو يشم أو يذاق ، وقد يملؤه الشاعر قوة وخصباً فيخيل إلينا أن الحياة تدب فيه وأن له سمياً وحركة ، ولا ريبة أن بعض الصور البيانية يبلغ من روعتها وعظم حيويتها وصدق أدائها ورقرقة مائها وصفاء قوالبها وشدة إشعاعها ، أنها تصل إلى هذه المنزلة الرفيعة .

فمن التشبيهات البصرية التي تنوب عن التصوير قول بعض الشعراء :

قوس ظهري المشيب والضعف والدهر   يا صـــاح كله عـــبر

كأنني والعصـــا تدبّ معي   قوس لها — وهي في يدي — وتر

وقول آخر :

وما الحب إلا شعلة قدَحت بها   عيون المها باللحظ بين الجوانح

---

(١) الرب : الطلاء ، والـكحيل : القطران ، والمعقد : المغلي حتى يخثر .

(٢) الذفرى : ماخلف الأذن ، والجسرة : الموثقة الخلق والزيافة المتبخترة ، والفنيق الفحل المكرم ، والمكدم : المعضوض .

وقول صاعد الأندلسى فى وردة لم تتفتح ؛ حملت إلى المنصور أبى عامر الأندلسى :

ودونك يا سيدى وردة يذكرك المسكُ أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

وفى رواية : أتتك أبا عامر .

وقول الصنوبرى فى وصف مجمرة :

مجمرة طاف بها الغِلمان أبدع فى صنعتها الزمان
كأنها فيما حكى العيان فوارة وماؤها دخان
فى بركة حصباؤها نيران إذا تبدّت حزِن الريحان
وسُرت الجيوب والأردان

وقوله :

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن بين المجلس
در تشقّق عن يواقيت على قُضب الزبرجد فوق بُسط السندس

وقول أبى عيينة :

فياطيب ذاك القصر قصراً ومنزلا بأفيح سهل غير وعر ولا ضنك
بغرس كأبكار الجوارى وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
كأن قصور القوم ينظرن نحوه إلى ملك موف على منبر الملك

وقول الناشىء :

قضُب الزبرجد قد حملن شقائقا أثمارهن قُراضة العِقيان
وكأن قطر الطلّ فى أهدابه دمع مَرتْه فواتر الأجفان[1]

وقول المتنبى فى المغيث العجلى :

أقامت فى الرقاب له أياد هى الأطواق والناس الحمام

---

(١) مرته : عصرته .

شبه نعمه فى رقاب الناس بالأطواق فى رقاب الحمام ، ووجه الشبه الملازمة .

وطوق الحمامة يضرب بها المثل لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم .

وقوله فى مدح سيف الدولة :

صدمتهم بخميس أنت غرته   وسمهريته فى وجهه غَمَم

شبه الجيش بالفرس ، وسيف الدولة فى مقدمته بالغرة فى وجهه ، والرماح المشرعة فى أيديهم بالغمم ، وهو كثرة شعر الناصية .

وقوله فى الكأس :

كأن بياضها والراح فيها   بياض مُحدق بسواد عين

وقوله :

كأن بنات نعش فى دُجاها   خرائد سافرات فى حِداد

ومن البدائع وصف قدح لابن الرومى أهداه إلى يحيى بن المنجم :

وبديع من البدائع يَسبي   كل عقل ويَطّبي[1] كل طرف

دقّ فى الحسن والملاحة حتى   ما يوفّيه واصف حق وصف

كفم الحب فى الملاحة أو أشق[2] م   وإن كان لا يُناغى بحرف

تنفذ العين منه حتى تراها   أخطأته من رقة المُستشَف

كهواء بلا هباء مشوب   بضياء أرْقِق بذاك وأصْف

وَسط القَدر لم يكبَّر لجرع   متوال ولم يصغّر لرشف

لا عجول على العقول جهول   بل حليم عنهن فى غير ضعف

---

(١) يطبى : يدعو ويستميل .

(٢) أشق : أصغر وأضيق ، وهذه رواية القالى فى أماليه — ١ — ٢٨٣ وفى الديوان بل أحلى .

ما رأى الناظرون قدًّا وشكلا فارساً مثله على بطن كفّ
فيه لوز مُعَقرب عطفته حكماء الغيوب أحسن عطف
مثل عطف الأصداغ فى وجنات من غزال يُزْهى بحسن وظرف

ومن التشبيهات المسموعة[1] قول يزيد بن عوف العليمى – يذكر صوت جرع رجل قُرى اللبن – :

فعب دخالا جرعه متواتر كوقع السحاب بالطّراف الممدد

فهذا المشبِّه إنما يشبه صوت جرع اللبن على عصب المرىء من حلق الإنسان ، بصوت المطر على الخباء المصنوع من الأدم .

ومن جودته أن الأصوات تختلف ، وأن اختلافها إنما هو بحسب الأجسام التى يحدث الأصوات اصطكاكها .

وليس يُدفع أن اللبن وعصب المرىء اللذين أحدث اصطكاكهما صوت الجرع ، قريبا الشبه من الأديم الموتَّن والماء اللذين حدث عن اصطكاكهما صوت المطر ؛ لأن المرىء من جنس الأدم ، واللبن من جنس الماء فصوتاهما متشابهان .

والغرض من هذا التشبيه المبالغة .

وكذا قول الأشجعى فى تشبيه حلب عنز بصوت الكير إذا نفخ :

كأن أجيج الكيرِ إرزام شَخبها إذا امتاحها فى مِحلب الحى ماتح[2]

وقول بعضهم :

تسمع للماء كصوت المِسحَل بين وريديها وبين الجحفل[3]

(١) نقد الشعر – ٦٥ – ٦٦ .

(٢) الأجيج والإرزام : الصوت ؛ والشخب : ما خرج من الضرع من اللبن والماتح المستدر اللبن .

(٣) المسحل : حمار الوحش له حشرجة يشبهون بها كثيرا ، والمسحل أيضا : المبرد ، الجحفل : جمع جحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير .

وقول أبي الفضل الميداني :

شَفة لماها زاد في ألمى   في رشف ريقتها شفاء سَقامى

قد ضمّنا جنح الدجى ولِلثمنا   صوت كقطك أروس الأقلام

وقول ابن مقبل :

وللفؤاد وجيب تحت أبهَره   لدمَ الغلام وراء الغيب بالحجر

شبه خفقان القلب الذى لا يرى تحت الأبهَر — وهو العرق المتصل به — بصوت الحجر الذى يرمى به الصبي من خلف حجاب ولا يراه .

وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون بالحجارة .

وقول المتنبي :

ولا تحسبنّ المجد زِقًّا وقينة   فما المجد إلا السيف والفَتكة البِكر

وتركك في الدنيا دويّا كأنما   تَداول سمعَ المرء أنمُلُه العشر

شبّه ، دوى الذكر بالدويّ الذى يسمعه المرء حينما يسدّ أذنيه بأنامله .

وقول شوقى :

حلو التسلسل موجه وخريره   كأنامل مرّت على أوتار

ومن التشبيهات ذوات الحركة قول بعض الأعراب :

حنتنى حانيات الدهر حتى   كأنى خاتل يدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآنى   ولست مقيّداً أمشى بقيد

وقول المجنون[١] — وهو أحد المحسنين في هذا المعنى — :

كأن القلب قيل غداة يغدى   بليلى العامرية أو يُراح

---

(١) نسبه العسكرى في ديوان المعانى إلى قيس لبنى ، وفى بعض الروايات : أنه لنصيب .

قطاة عزّها[1] شَرك فباتت ... تجاذبه وقد عَلِقَ الجناح

وقوله :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من مِنى ... فهيّج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرَها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وقول قيس لبنى :

أتبكى على لبنى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملا[2] أنت أقدر

فإن تكن الدنيا بلبنى تقلّبت ... فللدهر والدنيا بطون وأظهر

كأنىَ فى أرجوحة بين أحبُل ... إذا فكرة منها على القلب تخطِر

وقول بعض الأعراب :

الا بأبى من ليس والله نافعى ... بنَيل ومَن قلبى على النأى ذاكره

ومَن كبدى تهفو إذا ذكر اسمه ... كهفو جناح ينفُض الطّل طائره

وقول ابن ميادة :

كأن فؤادى فى يد ضَبِثت[3] به ... محاذرةً أن يقطع الحبل قاضبه

وقول بشار :

يُروّعه السِّرار[4] بكل شىء ... مخافة أن يكون به السرار

كأن فؤاده كُـرة تنزّى ... حِذار البين لو نفع الحذار

وقول العباس بن الأحنف :

أعيذك أن تشقىْ بقتلى فإننى ... أخاف عليك الله أن سُمتنى حتفى

إذا القلب أوما ان يطير صبابة ... ضربت له صدرى وألزمته كفى

كأن جناحيه إذا هاج شوقه ... يدا قينة هوجاء تضرب بالدف

---

(١) عزها : غلبها . (٢) الملا : الصحراء .

(٣) ضبث به : قبض عليه بكفه . (٤) السرار : التحدث خفية .

وقول أبي نواس :

كأنها حين تمشى فى وصائفها ... تخطو على البيض أو خُضر القوارير

وقول مسلم بن الوليد :

كأن قلبي وشاحاها إذا خطرت ... وقَلبُها قُلبها فى الصمت والخرس[1]

وقول المتنبي :

يخدن[2] بنا فى جوزه وكأننا ... على كرة أو أرضه معنا سَفْر

وقوله :

كأنما قدها إذا انتفلت ... سكران من خمر طَرفها ثمِل

وقوله :

وكأن برقا فى متون غمامة ... هنديُّه فى كفه مسلولا

وقوله يهجو ابن كَيَغْلَغ :

ما زلت أعرفه قرداً بلا ذنب ... خِلواً من البأس مملوءاً من النزق

كريشة فى مهبّ الريح ساقطة ... لا تستقر على شيء من القلق

وقول السرى الرفاء يصف دولابا :

الماء يلعب كالأراقم موجه ... والسفن بالأذناب فيه عقارب

والصوت من دولاب كلّ متوّج ... أطفال زنج للرضاع نوادب

فانظر إليه كأنه وكأنما ... كيزانه والماء منها ساكب

فلك يدور بأنجم جُعلت له ... كالعقد فهى شوارق وغوارب

وقوله — يمدح الأمير الحسين الحمداني ويصف جيشه — :

إذا ماج الحديد ضحا عليه ... حسبت البر بحراً ذا اطّراد

---

(١) القُلب بالضم : السوار . (٢) يخدن : يسرعن، والجوز : الوسط، والضمير للقفر .

وقول شاعر :

كأنما الليـــل راكب فرسا منهزما والصـــباح فى طلبه

وقول آخر :

لدى أقحوانات يُطفن بناضر من الورد محمر الثياب نضيد

إذا الريح هزّته توهمت أنهـــا ثغور هوت قصداً لعض خدود

١ — أن يظهر فيه أن المشبه به محتاج إلى المشبه كقول المتنبى فى الخصيبى :

لم نفتقد بك من مُزن سوى لثَق ولا من البحر غير الريح والسفن

ولا من الليث إلا قبح منظرِه ومِن سواه سوى ما ليس بالحسن

وقوله فى مدح أبى سهل الأنطاكى :

يا صائد الجحفل المرهوب جانبه إن الليوث تصيد الناس أحيانا

وقول آخر .

حيّيته بشقائق فى مجلس ورأى الرقيبَ فشقّ ذاك عليه

فار من خجل فأنبت خده أضعاف ما حملت يدىّ إليه

وقول آخر :

مليح يغار الغصن عند اهتزازه ويخجل بدر التم عند شروقه

فما فيه معنى ناقص غير خصره وما فيـــه شىء بارد غير ريقه

وقول آخر :

ولما رأيت البحر فى الجود يةّ ومن جوده الدر الثمين المقلّد

تساءلت من فى الناس عدلك الندى فقال أمير المؤمنين محمـــد

١١ — أن يختار له الألفاظ المعبرة المترقرقة بمعانيها الحية النابضة ، والتى تتموج منها الأشعة وتتوهج على لحظ العيون ، وتحف بهـا ظلال ذات قيم شعورية ، تشير إلى معان أخرى ترفّ على المعانى الأصلية رفيف الهالة على صفحة القمر .

وإنك لتلمس هذا فى قول المتنبى :

كأن الفجر حِبٌّ مُستزار ... يراعى من دُجنّته رقيبا
كأن نجومه حلى عليه ... وقد حُذيت قوائمه الجبوبا[1]
كأن دجاه يجذبها سهادى ... فليس تغيب إلا أن يغيبا
أقلّب فيه أجفانى كأنى ... أعدّ بها على الدهر الذنوبا

وقوله يصف بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغو ... رُ دفىء وماؤها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما لها قَطَم[2]
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسانُ بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغى هازم ومنهزم
كأنها فى نهارها قمر ... حَفّ به من جنانها ظلم
فهى كماويّة[3] مطوقة ... جُرّد عنها غشاؤها الأدَم

وقول ابن خفاجة :

وليل تعاطينا المدام وبيننا ... حديث كما هبّ النسيم على الورد
نعاوده والكأس يعبَق نفحها ... وأطيب منها ما نعيد وما نبدى
ونُقلى[4] أقاح الثغر أو سوسن الطُّلى ... ونرجسة الأجفان أو وردة الخد
إلى أن سرت فى جسمه الكأس والكرى ... ومال بعطفيه فمال على عضدى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى ... من الحرّ ما بين الثنايا من البرد
وعاينته قد سُلّ من وشى بُرده ... فعاينت منه السيف سُلّ من الغمد
ليان مَجَسّ واستقامة قامة ... وهزة أعطاف ورونق إفرند

---

(١) الجبوب بالفتح : الأرض . (٢) القطم : هياج الفحل .

(٣) الماوية : المرآة ، والأدم : الجلد .

(٤) النقل بالفتح والضم مايتنقل به على الشراب ، والطلى : جمع طلية بالضم وهى العنق ، شبهها بالسوسن فى بياضها .

أعانق منه الغصن فى مغرس القنا ... وألثم وجه الشمس فى مطلع السعد
فإن لم يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها كما قُدَّ الشراك من الجلد
تسافر كلتا راحتىّ بجسمه ... فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهد
فتهبط من كشحيه كَفٍّ تِهامةً ... وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد

فهذه القطع وكثير غيرها تطالعك بصور مبهجة ، تونق بصرك . ونغم شجي يطرب سمعك ، وعبير شذى يخدّر أعصابك ويهدهد شجونك ، ويحملك إلى أفق موشى منضور الجنبات بديع الرؤى مسكر المناظر ، تهيم فيه مع الأوهام السارّة والأحلام اللذيذة !

وهكذا تظهر قيمة الألفاظ المختارة بعناية فى إبراز المعانى جياشة بالحركة عميقة المغزى مليئة بالقوة ، كأنما تهمّ أن تفيض من معارضها فيضاً وتنسكب فى أذنيك .

فالصورة الكلامية التى يستخدمها الشعراء إن أجيد استخدامها كانت أداة مفيدة فى أيديهم ، فبفضلها تشخّص المعانى المجردة ، وتصب فى قوالب مرئية محسوسة ، وبذلك تكتسب قوة ونصوعا .

وما هذا التشخيص إلا واحد من مئات من طرائق التعبير وأساليبه عند الشعراء يريدون بها ألا يقتصروا فى أداء المعنى على مجرد سرده وبسطه . بطريقة مستقيمة مباشرة ، لأنهم إن فعلوا كانوا يخاطبون العقل ومهمتهم أن يثيروا بألفاظهم المختارة وصورهم الجيدة كل ما يمكنهم أن يثيروه فى أنفس القراء من مشاعر وذكريات .

ومن أهم هذه الطرائق التى يصطفيها الشعراء فى أداء المعانى : التشبيه والاستعارة ؛ وذلك لأن الشاعر يرى بين الأشياء التى تبدو منفصلة لاعلاقة لأحداها بالأخرى روابط وصلات ، فإذا ما ربط بعضها ببعض كانت له استعارة أو تشبيها[1] .

---

(١) فنون الأدب — ٧٩ .

١٢ — أن يعقد صلة بين الأشياء المتباعدة التى لا يقع فى الظنون أن تتشابه وتتماثل كالذى أنشده الشَّعْبى :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فأنت وعَيْر فى الفلاة سواء

وجعل له بعضهم عجزاً آخر فقال :

فكن حجراً من يابس الصخر جلمَدا

فإن الإنسان بادىء ذى بدء لا يرى معنى لمساواة الخلىّ من العشق بالحمار الوحشى أو الحجر الجلمد !

ولكنّ أرباب الغرام الذين ابتلوا به ، وفلاسفة الحب الذين درسوا علله وأسبابه ، يرون أنه لا يصدر عن غليظ الطبع ، أغلف القلب ، كثيف الذوق ، مطموس البصر والبصيرة ، محجوب العقل عن رؤية الجمال واستجلاء أسراره وتذوق بدائعه ، وأن العشاق فى العادة موسومون بخفة الروح ، وعذوبة النفس ، وسلامة الحاشية ، ورقة الشمائل ، ولطف الشيم ، والارتياح للمعروف ، والرحمة بالبائسين ، والعطف على المعذبين ، والنفور من القسوة والبخل والعدوان وعبادة الماديات ، إلى غير ذلك من القيم الإنسانية العليا التى ترفع البشر إلى درجة الملائكة المقربين !

وإلى بعض ذلك أشار مجنون ليلى فى قوله :

ويرتاح للمعروف فى طلب العلا   لتُحمد يوما عند ليلى شمائله

وقال البهاء زهير :

وأنى لأهوى كل من قبل عاشق   ويزداد فى عينى جلالا ويشرُف

يعظم من يهوى ويطلب قربه   فتكثر آداب له وتظرُّف

ومن هنا صحّ لهم أن يجعلوا المجرد من الصبابة عِدلا للحمار والحجر ؛ لأنه فى نظرهم حرم الشعور النبيل ، والعاطفة السامية ، والقلب الكبير الخفاق بأجمل الأحاسيس وأرقها وأرفعها !

لذلك لا نعجب إذا سمعنا قول العباس بن الأحنف :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقول أبي طالب الرَّقي :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى ، وفؤاد من لم يعشق

وقول بعضهم :

وما سرني أني خليٌّ من الهوى ولو أن لي مابين شرق إلى غرب

وقد تكون هذه الدعاوى جامحة، ولكنها مسلّمة عند أصحابها على الأقل.

على أن الأبحاث الحديثة تسند دعواهم ؛ فقد قام بعض أساتذة جامعة شيكاجو بأبحاث نفسية لدراسة الحب فى حياة الإنسان ، وقد أجمع هؤلاء الأساتذة على أن الحب هو ترمومتر الحياة ، فحيث يوجد الحب ، يوجد الإحساس بالجمال ، وحيث يوجد الإحساس بالجمال يوجد النظام ، وحيث يوجد النظام ، يوجد الحرص على الحياة .

ومعنى ذلك : أن الحياة الحب ، والحب الحياة كما قيل !

وأن من حرم نعمته كان قمينا أن يلحق بعالم العجماوات، بل بعالم الجمادات.

وكذا قول الآخر :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

فإن النظرة العجلى العابرة لا تسوِّى بين الفقير المعدم القنوع ، المحروم من مباهج العيش، ومتع الحياة وزينة الدنيا ، وبين ذي الجاه العريض والنفوذ المبسوط والثراء الواسع ، ولكن إذا روّينا فى الأمر وأصغينا لصوت العقل وحكّمنا التجارب ، وقسنا الأشياء بمقاييس المنطق السليم والحكمة البليغة، بان لنا أن السعادة الحق ليست فى تسنّم المناصب ، وزخرف الحكم ، وبريق الأموال ، وسعة الضياع وأبّهة القصور ، وكثرة الأثاث والرياش ،

---

(١) تزيين الأسواق — ١٠ . (٢) أخبار اليوم ١٩ / ٤ / ٥٢ .

وتناول الأطعمة الفاخرة والأشربة المشعشعة ، ولكنها فى هدوء النفس ، وسكينة القلب ، واطمئنان البال وراحة الضمير ، والقناعة فى غير ذل ولا ضراعة بما قسمه الله ، وابتغاء مرضاته بالعمل الصالح المرجوّ ثوابه فى حياة أخرى سرمدية البقاء !

وهذه الدرجة العليا من السعادة الخالية من حرقة الهم ، ولوعة الحزن وجوى الحسد ، وشقاء التكالب والتهالك على الحطام الزائل ، قد تجدها عند سكان الأكواخ ولابسى الجلاليب الزرق الذين يعيشون على الكفاف ، وتفتقدها بين أرباب القصور الشم ، والحلل الحريرية ، والسيارات الغالية والأرصدة المدخرة ، لأنهم فقدوا كنزاً أنفس من كل ما حوته أيديهم من ذخائر وأعلاق ، هو كنز الرضاء والقناعة ، حتى لو كان لأحدهم جبل من ذهب لتمنّى آخر من فضة ، فهم فى شقاء دائم وكبد مقيم !

وما أجمل قول الشاعر(١) :

إذا عُوفى المرء فى جسمه وخوّله الله قلباً قنوعا
وألقى المطامع عن نفسه فذاك الغنىّ وإن مات جوعا

ولقد صدق من قال : ما أكثر لذات الحياة ! فى كل شىء وفى كل عمل لذة ! بل إن النضال للبقاء فيض من اللذة ، والمغامرة المثيرة لا يعرفها الخاملون من الأغنياء ، وهم الذين يقعون بسرعة فريسة الملل والسأم !(٢)

وكقول المعرى فى قصيدته الخالدة :

وشبيه صوت النعىّ إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكمو الحمامة أم غنّـ ـت على فرع غصنها المياد

فهو هنا يسوّى بين صوت البشارة الشجىّ المطرب ، وصوت النعى القابض المحزن !

---

(١) نسب فى المواهب الفتحية — ٢ — ١٩٩ إلى على — كرم الله وجهه — .
(٢) فلسفة السعادة للدكتور محمد فتحى — ٦٧ .

وهذا أمر عجيب فى الظاهر حتى لتبدو استحالة التسليم به ، ولكننا حينما ننعم النظر فى عواقب الأمور وخواتيمها ، فنرى الدنيا على حقيقتها دار فناء وقرارة شقاء ، ومنزل ضنك وبؤس . وأن الحياة تنتهى فيها بالموت الحتم ، والفناء الذى لا معدى عنه ، وأن كل فرح مصيره الترح ، وكل هناء غايته الشقاء ، وكل لذة إلى ألم ، وكل شباب إلى هرم ، وكل صحة إلى سقم ، وأن هذا المولود الذى تطلقت له الوجوه ، وابتسمت له الثغور ، ودقت لمقدمه البشائر ، سيشيّع يوماً بالعويل والنحيب ولطم الخدود وشق الجيوب إلى قبر أغبر ، جليسه فيه الوحدة ، وأنيسه الوحشة ، حكمنا مطمئنين : أن الدنيا ظل زائل وسناد مائل ، ولون حائل ، وسراب خداع غرّار ، وأن صيحة البشير ونعقة الناعى ، وزمر الزامر ، ورنة الثكلى ، ودق الطبول ، ولدم الخدود ، تستوى عند ذى اللب اللبيب ، والرأى الأريب ، والنظر الثاقب البعيد ، وأن المعرى صادق كل الصدق فى هذه اللمحة الفلسفية الدقيقة العميقة !

الفصل الثانى

موقع الألفاظ حسنا وقبحا فى التشبيه

قد يجىء التشبيه صائباً محكما دقيقا ، ولكن الذوق لا يستسيغه لقبح لفظه أو قبح دلالته ، فتمجه النفس وتنبو عنه الأذن ، ويشيل فى ميزان البلاغة ، ولو أنه اتفق له اللفظ البارع الأنيق لجمع بين الحسنيين .

فمن ذلك قول امرئ القيس[1] :

وتعطو برَخص غير شَثْن كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحل

الأساريع واليساريع : دود يكون فى البقل والأماكن الندية ، تشبه أنامل النساء ، كما تشبه بالعنَم إذا كانت مطرّقة .

والإسحل : شجر يدق أغصانه فى استواء فتشبه الأصابع .

شبه الشاعر أنامل محبوبته فى لينها ونعومتها بدود هـــذا المكان المسمى ظبياً .

وشبهها فى دقتها واستوائها بمساويك هذا الشجر المسمى بالإسحل .

وتبعه فى بعض هذا التشبيه ذو الرمة بقوله :

خراعيب أمثال كأن بنانها بنات النَّقا تخفى مراراً وتظهر[2]

وبنات النقا : هى الأساريع .

وقال الجاحظ : هى شحمة الأرض وشحمة الرمل ، بيضاء حسنة تشبه بها كف المرأة .

---

(١) المعلقات السبع للزوزنى — ٢٣ .

(٢) الخراعيب : جمع خرعوبة بالضم وهى الشابة الحسنة الخلق ، أو البيضاء اللحيمة الجسيمة اللينة الرقيقة .

وقال أبو سليمان الغنوى : هى أعرض من العِظاة ، بيضاء منقطة بحمرة وصفرة أحسن دواب الأرض[١] .

وقال القالى : يقال لدودة تنسلخ فتصير فراشة : يسروع وأسروع . ويقال : هى الدودة التى تكون فى البقل ، ويقال : هى بنات النقا ، وبنات النقا : دود أبيض يكون فى الرمل تشبه الأصابع ، ثم ساق بيت ذى الرمة :

خراعيب أمثال[٢] ...

وسواء أكانت الأساريع هى بنات النقا أم غيرها ، وبالرغم من اتفاقهم على حسن شكلها وقرب شبهها بالأصابع ، فهى لا تخرج عن كونها ضربا من الديدان تستقذرها النفوس بمحض الفطرة مهما أسهب اللغويون فى نعتها بسمات الجمال !

وفى ذلك يقول ابن رشيق : والأساريع أحسن من البنان ليناً وبياضاً وطولا واستواء ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابته الحناء ، وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذ سمعت قول أبى نواس فى صفة الكأس :

تعاطيكها كفٌ كأن بنانها   إذا اعترضتها العين صف مدارى[٣]

أو قول ابن الرومى :

سق الله قصراً بالرُّصافة شاقنى   بأعلاه قَصرى الدلال رُصافى
أشار بقُضبان من الدر قُمِّعت   يواقيت حمراً فاستباح عفافى

أو قول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة   مقومة أثمـــارهن عقيق

---

(١) الحيوان ٦ — ١١٩ .
(٢) الأمالى — ٢ — ١٦٣ .
(٣) المدارى : الأمشاط جمع مدرى بالكسر .

كان ذلك أحب إليه من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرئ القيس ، وإن كان تشبيهه أشد إصابة[١] .

وقد نستطيع أن نمهد العذر لامرئ القيس فإنه كان جاهلياً وإن كان ملكا ومن أبناء الملوك ، ولذى الرمة فقد كان يصب على قوالب البدو وإن عاش فى العصر الأموى ، ولكنا لا نستطيع أن نعتذر عن أبى تمام فى قوله :

بسطت إليك أناملا أسروعا   تصف الفراق ومقلة ينبوعا

وقد نشأ فى الحضارة وناغى الترف والنعيم .

ولم يوقعه فى هذا القبح إلا التقليد للمتقدمين دون تبصر وتمييز ، ولعله لم ير الأساريع فى حياته كلها .

ومن الإنصاف أن نعترف بأن انتشار المدنية وكثرة الرفاهية فى العصر العباسى بشطريه ، أفاءت على الشعراء معانى جديدة مستملحة فى تشبيهات الأنامل البضة المخضبة كما رأينا فى شعر أبى نواس وابن الرومى وابن المعتز المتقدم :

وكما نرى فى قول الخليفة الرضى :

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها   فى خدها وقد اعتلقن خضابا

فاخضر تحت بنانها فكأنها   غرست بأرض بنفسج عنابا

وفى رواية :[١] .

فكأنها بأنامل من فضة   غرست بأرض بنفسج عنابا

وقول الناشىء — وهو أحسن الواصفين لهذا المعنى — :[٢]

من كف جارية كأن بنانها   من فضة قد طُرِّفت عُنّابا[٣]

---

(١) العمدة — ١ — ٢٠٤ .

(١) نهاية الأرب — ٢ — ٨٩ .   (٢) خزانة الأدب للحموى — ٢١٧ .

(٣) ديوان المعانى — ١ — ٢٥٤ .   (٤) طرفت المرأة بنانها : خضبته .

وكأن عناها إذ نطقت بها   تلقى على يدها الشمال حسابا

وقوله :

لنا قينـــة ترنو بناظرتين   عما فى قلوب الناس عالمتين

تخال تطاريف الخضاب بكفها   فصوص عقيق فوق قضب لجين

وقوله :

متعانقين مكاتمـــين هواهما   قد قام بينهما العتاب فطابا

يتناقلان اللفظ من جفنيهما   فكأنما يتدارسان كتابا

وإذا هدت عين الرقيب تخالست   كفاهما خلس السلام سلابا

بأنامل منه يلوح مدادها   وأنامل منها كسين خضابا

فكأنما يجنى لها من كفـــه   عنبا وتجنيه له عنابا

وقول كشاجم :

فما أنسها لا أنس منها إشارة   بسبَّابة اليمنى إلى خاتم الفم

وأعلنت بالشكوى إليها فأومأت   حذار من الواشين ألا تكلم

فلم أر شكلا واقعاً فوق شكله   كعنابة تومى بهـــا فوق عندم

وقول الشريف الرضى :

وأَلمستنى وقد جدَّ الوداع بنا   كفـًا تُشير بقضبان من العنَم

وقول ابن المعتز :

أثمرت أغصان راحتهـــا   لجُناة الحسن عنـــابا

وفى التطاريف السود يقول بعض الأندلسيين :

خضبت أناملها السواد وقلما   أبصرت أقلاما بغير سواد

ويقول ابن المعتز :

وكف كأن الشمس مدّت بنانها   إلى الليل تجلوه فقمّعها الليل

ويقول بعضهم :

وحوراء اللواحظ بين قلبي ... وبين جفونها حرب البسوس
ترى ماء النعيم يجول فيها ... كمثل الخمر فى صافى الكئوس
كأن بنانها أقلام عاج ... مرصعة الرءوس بآبنوس

كما أنه من الإنصاف أيضاً أن نذكر : أنه ورد من الشعر القديم فى وصف الأنامل ، ما خالف نهج امرىء القيس وذى الرمة ، وسامى شعر المحدثين فى رقته وحسنه وطرافته ؛ كقول النابغة فى المتجردة زوج النعمان ابن المنذر :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليـــد[1]
بمخضب رَخص كأن بنانه ... عنم على أغصانه لم يعقِد

وقد زاد التشبيه حسناً بقوله : لم يعقد : أى إنه لم ينضج ويدرك فييبس ويسودّ .

وقول الأسود بن يعفر[2] :

يسعى بها ذو تومتين مقرطَق ... قنأت أنامله من الفِرصاد[3]

وقد ذكر العسكرى : أنه أجود ما قيل من قديم الشعر فى معناه[4] .

ومن هذا النوع المستهجن قول بعضهم يصف روضا .

كأن شقائق النعمان فيه ... ثياب قد رَوين من الدماء

فإن الشقائق شديدة الحمرة جداً ، وبينها وبين الثياب الراوية من الدماء مشاكلة محسوسة لا تخفى .

---

(١) النصيف : الخمار والعمامة وكل ماغطى الرأس .
(٢) يعفر كينصر ، وفى طبقات الشعراء للجمحى بضم الياء والفاء .
(٣) التومة بالضم : اللؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، والمقرطق : لابس القرطق بالضم وهو لباس قصير شبيه بالقباء وأصله بالفارسية : كرته ، العامة تقول : شاية ، وقد أخطأ بعض الشعراء فظن المقرطق لابس القرط ، وإنما هو مقرط ، والفرصاد بالكسر صبغ أحمر .
(٤) ديوان المعانى — ١ — ٢٥٤ .

فالتشبيه مصيب ولكن فيه بشاعة بذكر الدماء التي تعاف الأنفس اللطيفة رؤيتها .

ولو قال من العُصفر مثلا أو ما شاكله، لكان أوقع فى النفس وأقرب إلى الأنس[1] .

ومثله قول القصار :

طرِب الشقائقُ للحمام وقد شدا — فوق الغصون فشقّ فضل ردائه

فكأنه الحبشىّ يضَع جسمه — فثيابه مخضلّة بدمائه

وقول شوقى :

والجلّنار دم على أوراقه — قانى الحروف كخاتم السّفاح

فذكر الدم هنا وتصور منظره يقبض الصدر ويحزن القلب ، ولا تغنى عن ذلك شيئاً جودة التشبيه وطرافته .

وقول أبى مِحجن الثقفى فى وصف قينة :

ترفَع الصوت أحيانا وتخفضه — كما يطِنُّ ذباب الروضة الغرِد

فإن أحذق القيان لا تستطيع أن تبارى ذباب الروض فى رفعه صوته مرة وخفضه أخرى، على هذا النسق الرتيب الذى يجرى عليه طبيعة لا تكلفا .

ولكن أى قينة ولو كان صوتها مثل صوت الحمار نكراً ، ترضى أن تشبّه بالذباب كما يقول ابن رشيق !

على أنه سرق بيت عنترة :

وخلا الذباب بها فليس ببارح — غرِداً كفعل الشارب المترنّم

وقلبه فأفسده[2] .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٠٥ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٥ .

(٢) العمدة — ١ — ٢٠٦ .

وقول العُمانى الراجز :

يا رُبّ جارية حوراء ناعمة كأنها عُومة فى جوف راقود[1]

وهذا تشبيه أقل ما يوصف به أنه مقزّز يدعو سامعه إلى الغثيان !

وقد حدّث حماد عن أبيه إسحاق الموصلى[2] : أن الأصمعى دخل إليه يوما وعنده أخ للعمانى المتقدم ، فأراد أن يعبث بالأصمعى فقال : من هذا؟ أهو الباهلى الذى يقول ؟[3] :

فما صفحة مأدومة . بإهالة بأطيب من فيها ولا أقط رطب[4]

فقال الأصمعى — قبل أن يستتم كلامه — هو على كل حال من قول أخيك العمانى :

يارب جارية .

فألقمه حجرا !

وقول مسلم بن الوليد :

فغطت بأيديها ثمار نحورها كأيدى الأسارى أثقلتها الجوامع

والتشبيه مصيب جداً ، ولكن عيبه جاء من أيدى الأسارى المثقلة بالأغلال ، فإنه لا يصح فى الذوق أن تشبه بها أيدى الحسان التى تستر رمان الصدور !

وقد أخذه مسلم من قول النابغة :

يُخطّطن بالعيدان فى كل منزل ويخبأن رمان الثُّدى النواهد

---

(١) العومة بالضم : دويبة كالصرد ، وهو طائر أبقع أبيض البطن ، والراقود : دن كبير أو طويل الأسفل يطلى بالقار داخله . (٢) الموشح — ٢٩٧ .

(٣) نسب فى ديوان الحماسة إلى بعض الأعراب .

(٤) الإهالة بالكسر الشحم أو ماأذيب منه أو كل ما يؤتدم به أو الزيت ؛ والأقط . كـكتف ورجل وإبل : شىء يتخذ من المخيض الغنمى (الرايب) :

وقول الحاجرى فى وصف العذار .

وما اخضر ذاك الخال نبتا وإنما   لكثرة ماشقت عليه المرائر[١]

وقد قالوا فيه : مازاد على أن جعل خد محبوبه مسلخاً[٢] « سلخانة »

فالتعليل حسن ، ولكن عيبه جاء من ناحية اللفظ ، وهو شق المرائر على الخد لما فيه من معنى التقذير !

وبعضهم لم يكتف بشق المرائر على خد الحبيب حتى سفك عليه الدماء بقوله

وما احمر ذاك الخد واخضر فوقه   عِذارك إلا من دم ومرائر

ولو أنه توخى الإحسان وقصد الإصابة وتحرى الجودة ، لقال كما قال أبو الحسن الحاج الأندلسى :

ومعذَّر رقّت محاسن وجهه   فقلوبنا وجدا عليه رقاق[٣]

لم يكس عارضه السواد وإنما   نفضت عليه صِباغها الأحداق

فقد علل سواد العارض بعلة طريفة تصور حسن المحبوب أبدع تصوير ، وترتفع بقدره إلى غاية الغايات !

وقول بعضهم فى مدح بعض الملوك :

فإن كان أملاك الزمان أراقما   فإنك فيهم دائمَ الدهر ثعبان

وصحيح أن الثعبان أضخم من الأرقم ، وأهول منه منظراً ، ولكن لا يسوغ فى الذوق السليم تشبيه العظماء به .

ولو أنه عدل إلى التشبيه بالحية لخلص من الملام ، لأن اسم الحية أشرف من اسم الثعبان .

---

١) شق المرائر : كناية عن الشدة والهول .

(٢) خزانه الأدب للحموى — ٢٢٥ .

(٣) المعذر بالتشديد والكسر : من نبت عذاره .

وقد جرت عادتهم أن يصفوا بها الكبراء من الناس ، والعادات رسوم محترمة معتبرة ، ولذلك سموا الرجل : حية ، وقالوا : هو حية الوادى : للحامى حوزته وللمنيع الجانب ، وهم حيات الأرض : لدواهيها وفرسانها ، وهو حية ذكر : للشهم ، ورأسه رأس حية : للذكى ، وأكلت حياتنا حياتكم : إذا قتلت فرسانهم فرسانهم :

وقال ذو الإصبع العدوانى يذكر قومه :

عذيرَ الأرض من عدوا نَ كانوا حيـــة الأرض

وقال طرفة يصف نفسه :

أنا الرجل الضَّرْب الذى تعرفونه خَشاش كرأس الحية المتوقد[1]

وقال أبو نواس يمدح الخصيب والى مصر :

وأطرُق حيات البلاد لحية خصيبية التصميم حين تسور

وقد تساءل الخفاجى[2] : إذا كان التنين هو الحية ، وكانوا كثيراً ما يشبهون الممدوح بالحية ، ويقولون : هو صِلّ صفاة ، وحية واد ، وأرقم وأسود وغير ذلك كما قال أبو الطيب :

يمد يديه فى المُفاضة ضيغم وعيناه من تحت التَّريكة أرقم[3]

وقول السرى الرفاء فى مدح سيف الدولة :

تعتدُّ نجدته عدِىٌّ عدة وتخاله صِـــيد الأراقم أرقماً

وقال آخر :

إنى على رأس العدو وتحته لغمام قسطلة وحيـــة واد

وقال الرضى :

نبّهت منى يا أبا الغيذاق أصم لا يسمع صوت الراق

---

(١) الضرب : الرجل القليل اللحم ، والعرب تتمدح بذلك لأن السمن عنوان الكسل والبلادة ، والخشاش بتثليث الخاء : الماضى فى الأمور .

(٢) سر الفصاحة — ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) المفاضه بضم الميم : الدرع الواسعة . والتريكة وهى البيضة من الحديد .

ذا ريقـة تهزأ بالدرياق كأنما أمّ من الإطراق[1]

وقال حريث بن عتاب :

أترجو الحياة يابن بشر بن مسهر وقد علِقت رجلاك فى ناب أسودا
من الصُّم تكفى مرة من لعابه وما عاد إلا كان فى العود أحمدا

وأمثال هذا كثير ، فكيف يكون ذكر التنين عيباً ، ولا يكون ذكر الأرقم والصل والأسود عيباً ومعنى الجميع واحد !

والجواب أننا لم ننكر التنين لأجل معناه فيقال لنا : إن معنى التنين والحية واحد ، وإنما عبناه من أجل مدحه ، لأن هذه اللفظة لم تستعمل فى المدح وتلك الألفاظ قد استعملت فيه ، وليس يمتنع أن يكون للشىء الواحد اسمان يستعمل أحدهما فى موضع ، ويستعمل الآخر فى موضع آخر .

وهذا شىء إنما أصله العرف والعادة دون أصل وضع الأسماء فى اللغة ، ألا ترى أن الإنسان إذا مدح ، ذكر الرأس والكاهل والهامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأخادع والقَذال وإن كانت معانى الجميع متقاربة ، وليس يحسن أن يخاطب الملوك فيقال لبعضهم . وحق يافوخك أو قَمَحْدُوتك أو أخادعك أو قذالك أو قفاك ، قياساً على أن يقال له : وحق رأسك ، لأن الاستعمال يختلف فى الألفاظ وإن كان المعنى فيها غير مختلف على ما قدمناه .

على أن بعضهم كان يستقبح المدح بالحيات ، فقد ذكروا[2] . أن محمد بن على العباسى قال لكثير عزة : تزعم أنك من شيعتنا وتمدح آل مروان !

---

(١) أم بالبناء للمجهول : شج رأسه .

(٢) الموشح — ١٤٤ .

فقال كثير : إنما أنا أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب وآخذ أموالهم .

يشير بذلك إلى قوله فى عبد الملك :

يقلّب عينىْ حيــة بمَحارة إذا أمكنته شدّة لا يُقيلها

ويكون النكير أشد والاستهجان أكثر حينما يكون التشبيه متعلقاً بالمطعوم والمشروب ، وما يدخل فى الاستمتاع عامة ، لأن مجافاة الذوق فيه واضحة .

وذلك كقول يزيد بن معاوية فى الخمر :

إذا شجّها الساقى حسبت حَبابها عيون الدبى من تحت أجنحة النمْل[1]

وقول الأخطل :

عُقار كعين الديك صرفا كأنها لعاب جراد فى الفلاة يطير

وقول أبى الهندى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية — وهو أول من وصف الخمر من المسلمين[2] :

نبهت ندمانى وقلت له اصطبح يابن الكرام من الشراب الأصهب

صفراء تبرُق فى الزجاج كأنها حدَق الجرادة أو لسان الجُندُب

ومثله قول آخر :

صفراء من ماء الكروم كأنها ماء المفاصل أو لعاب الجندب[3]

وقول الحسين الخليع :

فضّت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقرقة فى جفن مرهاء[4]

---

(١) الشج : المزج والدبى : صغار الجراد .

(٢) فوات الوفيات — ٢ — ١٥١ .

(٣) المفاصل : ما بين الجبلين .

(٤) المرهاء : التى ابيضت حمالیق عينيها من ترك الكحل .

كأن تأليف ما حاك المزاح لها   سَلْخ مُحلَّلُه عن ظهر رقشاء[1]

وقد علق المغفور له الدكتور زكى مبارك على هذا الوصف بقوله :
ونحن لا نستسيغ اليوم فى وصف الخمر : بأنها بدت مثل رقرقة فى جفن مرهاء ، ولا يسرنا أن يكون الحبب ألّف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء[2] .

وأنا أقول : إن هذه الصورة مستقبحة فى كل زمان ومكان ، فإن الذوق العام لا يختلف فى مثل هذه الأوصاف التى تنفر منها النفوس ، وتمجها الطباع بأصل الجِبِلّة .

وقول أبى نواس :

وإذا ما الماء واقعها   أظهر شكلا من الغزل
لؤلؤات ينحدرن بها   كانحدار الذّر من جبل[3]

وقول كشاجم :

عذبت الرشف منها شَفة   مصها أطيب من نيل الأمل
وعليها حمرة فى لعس   تستعير اللون من صِبغ الخجل
هى فيما خلت آثار دم   من فؤادى علّ فيه ونهل

وتشبيه حمرة الشفة بآثار الدم ليس وراءه مزيد فى القبح ، وبخاصة إذا قرن بذكر الرشف والمص ! ولا يشفع له أنه من دم القلب .

وقول ابن عون الكاتب :

تلاعبها كفُّ المزاج محبة   لها وليجرى ذات بينهما الأنس

---

(١) السلخ : الجلد المسلوخ . والرقشاء : الحية .

(٢) الموازنه بين الشعراء — ٢٨٢ .

(٣) الذر : صغار النمل .

فتُزبد من تيه عليــــه كأنها   عزيزة خدر قد تخبّطها المس

فبشاعة هذا التشبيه — كما يقول الحموى — تمجها الأذواق الصحيحة وتنفر منها الطباع السليمة ؛ فإن أهل الذوق لا يطيب لهم أن يشربوا شيئاً يشبه زبد المصروع !

وقول أبي القاسم بن بابَك :

وأغيد معسول الشمائل زارنى   على فرَق والنجم حيران طالع

فنازعته الصهباء والليل دامس   رقيق حواشى البرد والنّسر واقع[1]

عُقار عليها من دم الصّب نقطة   ومن عبرات المستهام فواقع

وقول بعض المولدين :

هات مداما كأن فيهـــا   نصُبُ أحـــداقها الديوك

ومن الذى يلذ له أن يتحسّى عصير أحداق الديوك ! وأي خيال سمح لهذا الشاعر بهذا التشبيه الباعث على الاشمئزاز .

وأين غاب عنه قول الموصلى فى هذا المقام :

وكأس مدام يحلف الديك أنها   لدى المزج من عينيه أصفى وأنور

شبّهها بعين الديك لأنها يضرب بها المثل فى الصفاء ، ويشبه بها الشراب الصافى .

ويقول الموصلى : سمعتنى أعرابية وأنا أنشد البيت المتقدم ، فقالت : يا أبا محمد ، بلغنى أن الديك من صالحى طيوركم وما كان ليحلف كاذبا[2] !

وجمال التشبيه هنا أن الموصلى جعل الخمر كعين الديك فى الصفاء

---

(١) النسر : كوكبان يقال لأحدهما : الواقع وللآخر : الطائر .

(١) ثمار القلوب — ٣٧٤ .

والنقاء والبريق ، ولم يجعلها نفس عين الديك التى هى مزيج من لحم ودم كما جعلها الأول ، والفرق شاسع بين المذهبين .

ولعل أقبح من كل ما تقدم قول السرى الرفاء :

يسيل فم الزِّقّ الروىّ كأنه ... جِراحة زنجىّ يسيل نجيعها

وقوله :

اشرب فقد شرد ضو ... ء الصبح عنا الظّلما

وصوّب الإبريق فى الكأ ... س مداما عَندما

كأنها إذ مجّها ... مقهقهاً يبكى دما

ولا يقل عنه شناعة قول البارودى :

ألا عاطنيها بنت كرم تزوّجت ... على نغَمات العود بابن سماء

إذا اتّقدت فى الكأس خلت وميضها ... على وتَرات الكف نضح دماء

فإنه بقدر ما أحسن فى بيته الأول المرقص ، أساء فى بيته الثانى بذكر نضح الدماء ، وقد جاءه ذلك من التقليد لمن سبقوه بلا تبصر .

وقد يقال ولكنهم يستحسنون قول الأعشى :

وسبيئة مما تعتَّق بابل ... كدم الذبيح سلبتها جِريالها

فما الفرق بين دم الذبيح ، ونجيع الزنجى السائل من جراحته ؟

والجواب : أن الفرق واضح بين دم الذبيح المذَكّى ، الطيب اللحم ، الحلال الأكل ، وبين دم ينثعب من جرح آدمى حى ، على أثر طعنة جائفة أو حادثة تكتنفها الأوجاع والآلام !

وصفوة القول : أن هذه التشبيهات المتقدمة فى وصف الخمر ؛ تملأ النفوس انقباضاً منها ورغبة عنها !

ومن الغريب أن أكثرها وقع من شعراء عرفوا بالإبداع فى وصفها ، وسار لهم فى ذلك ذكر تناقله الناس ، ولولا أنهم شهروا بحبها والاستهتار بها لقلنا : إنهم يدعون إلى التنفير منها ، إذ لا يتأتى لناسك متعبد أن يقول فى تقبيحها أكثر مما قالوا !

والعادة المتبعة فيما نحن بسبيله ، أن يتحاشى الشاعر الألفاظ المثيرة لانقباض الصدر واشمئزاز النفس ، ويتخيّر ما تطرب له الأذن، وينشرح له الصدر ، ويَهش له القلب ، لأنه إنما يتكلم عن شىء يخالط الجوف ويمتزج بالبدن كقول السرى الرفاء :

وصفراء من ماء الكروم شربتها ... على وجه صفراء الغلائل غضة
تبدّت وفضل الكأس يلمع ساطعاً ... كأترجّة زينت بإكليل فضة

وقول العسكرى :

وكأس تمتطى أطراف كف ... كأن بنانها من أرجوان
أنازعها على العِلاّت شَرْبا ... لهن مَضاحك من أقحوان
يلوح على مفارقها حَباب ... كأنصاف الفرائد والجُمان

ومن قبيح ما جاء فى المطعوم قول الحكَم الخُضَرى — يصف غليان القدر بما فيها من قطع اللحم — :

كأن جُذول الناب فيها إذا غلت ... دعاميص تخشى صائداً فتموم[1]

يصف قطع اللحم إذا دوّمت بها القدر فى حال غليانها بصغار الضفادع التى تسبح على أديم الماء خوف اصطيادها .

ولا مرية أن هذا التشبيه يُغثى النفس ، ويوحش الصدر ، لأن منظر

---

(١) الجذول : أصول الشىء جمع جذل بالكسر ، والناب : الناقة المسنة ، والدعاميص : ديدان سوداء تكون فى الغدران إذا نشت .

الدعاميص مستنكر قبيح ؛ ومن الغريب أن قدامة يصفه بالجودة[١] .

وقول العسكرى فى الفالوذ :

حمراء فى بيضاء فضية وظرف كافور وحشو الخَلوق[٢]
يُطوِّف الدهن بأرجائه إطافة الدمع بجفن المشوق

وتشبيه الدهن فى الفالوذ بالدمع المطيف بجفن المشوق ، بشع مستكره غير مستساغ ، وهو خليق أن تصدف به النفس عن تناوله .

هذا إلى أن المشابهة غير محكمة بين ركنى التشبيه ، فالدمع لا يطوف بجفن المشوق ، بل يترقرق فيه أو ينتثر منه .

فأين يقع هذا من قول بعض العصريين يصف ألواناً من الفطائر[٣] :

وإن أنسَ فلن أنسى فطائر سمنُها يجرى
كأن اللوز منضوداً بها سِمط من الشَّذْر[٤]
كأن أديمها الصافى توشّح صفرة الصُّفر[٥]

وقوله[٦] :

وعجّل بها كأكفّ الملاح تأنّقن فى صَبغها بالخضاب
ومحشوّة بالزبيب الأحمّ ومسقية بالشّهاد المذاب
إذا جال فيها بنان الأديب تنسّم منها أريج الملاب[٧]

---

(١) نقد الشعر — ٧٠ .
(٢) الخلوق بالفتح : الطيب .
(٣) ألحان الأصيل — ٧٢ .
(٤) الشذر : قطع الذهب .
(٥) الصفر : النحاس الأصفر .
(٦) ألحان الأصيل — ١٠٨ .
(٧) الملاب كسحاب : العطر أو الزعفران .

وإن أوغلت يده فى الصميم أتته بكل عجيب عُجاب
ذخائر فى جوفها أودعت كما سكن الدر جوف العُباب

ومن ذلك النوع المستقبح قول المأمونى فى أقراص السحور :

عندىَ للأكل إذا ما قمت للتسحّر
ملتــوتة بسمنها وسمسم لم يُقشر
مثل البدور الطالعا ت فى صدور الأشهر
أو أوجه الترك إذا أثّر فيها الجُدَرى

فقد شوّه هذا الشعر الخفيف الظل ، اللطيف العذب ، بالبيت الأخير ، ولا أدرى كيف يستطيب أكل أقراص كالوجوه المجدورة ، وإن كانت بيض الألوان كوجوه الترك !

وقريب منه قول ابن خلاد فى خبز الأرز بالملح — وإن كان أقل هجنة — :

رغيف بملح طيب النشر خلطة خوارجه تغنيك عن أرج العطر
عليه من الشونيز آثار كاتب وجلباب وراق يُنقـّط بالحبر(١)
ومن سمسم قد زعفروه كأنه قُراضة تبر فى لجينية غُرّ

والشاهد فى البيت الثانى .

وقول مهيار فى رمانة حمراء :

ما أم أولاد كثيرة العدد تُروى رَضاعا وهى بكر لم تلد
تبسم عن عذب الرضاب بارد لولا دم بصبغه قلت بَرَد

وقول ابن سعد الخير فى وصفها :

---

(١) الشونيز : بضم الشين وفتحها : الحبة السوداء .

وساكنة فى ظلال الغصون ... بروض تروقك أفنانه
تضاحك أترابها فيه إذ ... غدا الجو تدمع أجفانه
كما فتح الليث فاه وقد ... تضرّج بالدم أسنانه

وقول ابن الرومى فى التوت :

ومختضبات من نجيع دمائها ... إذا جُنيت فى بُكرة الغدوات
تكاد بأن تُطفا إذا ما لمستها ... فأرحمها من سائر الثمرات(١)

وقول ابن شرف فيه — وقد أهداه — :

انظر إلى توت الجنان الذى ... وافى به الناطور فى جام(٢)
يحكى جراحا دمها سائل ... لدى جسوم من بنى حام

فانظر كيف جاء هذان الشاعران إلى هذه الفاكهة المشتهاة ، وألقيا عليها ظلا من تصويرهما تجعل العيون تقذى بها ، والنفوس تعزف عنها !

ولكن تأمل قول محمد بن روح — يصف الرمان السفرى فى أبيات كتب بها إلى بعض من أهداها إليه — :

ولابسة صدفا أحمرا ... أتتك وقد مُلئت جوهرا
كأنك فاتحُ حُقّ لطيف ... تضمّن مرجانه الأحمرا
حبوباً كمثل لِثات الحبيب ... رضابا إذا شئت أو منظرا
وللسفر تُعزى وما سافرت ... فتشكو النوى أو تُقاسى السُّرى
بلى فارقت أيكها ناعماً ... رطيباً وأغصانها نُضَّرا
وجاءتك معتاضة إذ أتتك ... م بأكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى ... ويورق من قبل أن يثمرا

(١) تطفا : تشدخ ، وأصله تطفأ .
(٢) الناطور : حافظ الكرم والنخل والزرع ، وهو من ألفاظ السواد وليس بعربى خالص .

هدية من لو غدت نفسه   هديته ظنه قصرا

وقول بعض الأندلسيين فى التوت — وقد أهداه — :

تفاءلت بالتوت الجنىّ لزورة   وذلك فأل ما علمت صدوق[1]

فأهديته غضًا حكى حدق المها   له منظر بالحسن منه يروق

فذا سبج لما حكى باسوداده   وذا لاحمرار اللون منه عقيق[2]

ومن المضحكات : أن محمد بن الجهم سأل عليا الأسوارى : كم آخذ من الدواء الذى جئت به ؟

قال : مقدار بعرة !

فجاء بلفظ قذر ولم يبين المراد ؛ لأن البعر يختلف فى الكبر والصغر ، ولا يعرف أبعرة ظبى أراد أم بعرة شاة أم بعرة جمل[3] .

فهذه الألفاظ التى تقدمت فى كل هذه التشبيهات الماضية ليست قبيحة فى ذاتها ، ولكنها قبحت لأنها استعملت فى مواضع تعد من مجال الحسن ومواضع الجمال ، فشاهت بها التشبيهات مع أنها من حيث إصابة الموقع ومراعاة الجهة بالغة الشأو البعيد والمدى المستطيل .

ومن ثم نراها مستحسنة سائغة ، واقعة موقعها غير نابية ولا مستكرهة إذا استدعاها المقام ، وذلك فى المواضع الآتية .

١ — إذا كان الغرض الهجاء ، فيفتنّ الشاعر ما شاء له الخيال فى تشويه الصورة تشويهاً محكوما بقواعد الفن ، كقول جرير :

إذا ضحكت شبهت أنيابها العلا   خنافس سوداً فى صَراة قليب[4]

---

(١) ما : فى ما علمت زائدة .
(٢) السبج : خرز أسود .
(٣) الصناعتين — ٢٤٨ .
(٤) الصراة : البقية .

وإنما خص أنيابها العُليا دون السفلى ؛ لأنها تبدو فى التبسم والتكلم وعند التثاؤب .

وقول حماد عجرد فى بشار :

ما صور الله شبيهاً له ... مِن كل مَن مِن خَلقه صوّرا
أشبه بالخنزير وجهاً ولا ... بالكلب أعراقا ولا مكسرا[1]
ولا رأيت أحداً مثله ... أنجس أو أطفس أو أقذرا[2]
لو طُليت جلدته عنبراً ... لنتّنت جلدته العنبرا
أو طُليت مسكا ذكياً إذاً ... تحوّل المسك عليه . . .

وقوله أيضاً :

ما خلق الله شبيها له ... من جِنّه طوراً ومن إنسه
والله ما الخنزير فى نتنه ... من ربعه بالعُشر أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه ... ومسّه ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه ... ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده ... وجنسه أشرف من جنسه

ويقول الجاحظ فى ذلك : وأنا ـ حفظك الله ـ أستظرف وصفه الخنزير بهذا المكان ، وفى هذا الموضع حيث يقول :

وعوده أكرم من عوده . . .

أين عود الخنزير من الكرم[3] .

وقول ابن الرومى يهجو بخيلا :

---

(١) المكسر كمنزل : المخبر والأصل .

(٢) الطفس محركا : قذر الإنسان لعدم تعهده نفسه .

(٣) الحيوان — ١ — ١١٣ — ١١٤ .

أبديت فى أوليات اؤمك ما قدّرت فى أخرياتك الآخر
كالقَطِران الذى يرى أبداً فى رأسه ما اقتنى من العكَر

وهذا من قول الناس : أول الدن دردى[1] .

وقول البازرى فى رجل قبيح الفم :

وقد علت أسنانه صفرة تكدّر العيش المرىء المَريع[2]
ولحمها من ورم فاسدٌ كالرئة المحبوس فيها نجيع

وقد أعجب الحموى بهذا الهجاء فقال فيه : لو جمع المتأمل بين المشبه المهجوّ وبين المشبه به ، وشاهد التخييل الغريب عِيانا ، صدّق صحة الدعوى[3] .

وقول ابن طباطبا فى مجدور :

ذو جُدَرِى وجهه يحكيه جلد السمكة
أو حجر الحمام كم من وسخ قد دلكه
أو وَكر زُنبورٍ إذا فرّخ فيه تركه
أو سَلحة جامدة قد نقرتها الدِّيكة

وقول بعضهم :

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذو جود فنرجوك للقِرى
ولا أنت ممن يُرتجى لكريهة عملنا مثالا مثل شخصك من . . .

وقول عبدان الخوذى فى قينة :

لنا قينة تحمى من الشرب شربَنا فقد أمنوا سكراً وخوف خُمار

---

(١) ديوان المعانى — ١ — ٢٠٦ .
(٢) المريع : الخصيب .
(٣) خزانة الأدب — ٢٢٦ .

تُكشر عن أنيابها فى غنائها فتحكى حماراً شم بول حمار

وقد يرد ذلك فى غير الأناسى كقول ابن شرف القيروانى فى التين :

لا مرحبا بالتين لما أتى يسحب كالليل عليـــه وشاح

ممزق الجلباب يحكى لنـــا هامة زنجى عليهـــا جراح

٢ — أن يكون القصد حكاية حال تحسن معها المبالغة كقول الأبيوردى :

نزلنا بنعمان الأراك وللندى سقيط به ابتلّت علينا المطارف[1]

وقفت به والدمع أكثره دم كأنىَ من جفنى بنعمان راعف

فهذه الحال لا ينكر جريان الدمع معها دما ، فإنها حال لائقة بجريانه على هذه الصفة ؛ لأن هذا الشاعر لما نزل بنعمان الذى هو منزل أحبابه ووجده مقفراً منهم ، لاق بحاله أن يجرى الدم لشدة الأسف دما .

ومثله قول ابن قاضى ميلة :

ولما التقينا محرمين وســـيرُنا بلبَّيْك ربًّا والركائب تعسِف

نظرت إليهـــا والمطىّ كأنما غواربها منهـــا مَعاطس رُعَّف

فهذا التشبيه غاية فى هذا الباب ، وجريان الماء من غوارب المطى لائق بحكاية حالها ، فقد تضمنت لطف الكناية عن التعسف فى شدة السرى[2] .

ويلحق بهذا كل ما شاكله كقول ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع ، وقد أنشده المعتمد بن عباد[3] :

ولما التقينـــا للوداع غـدِيَّـة وقد خفقت فى ساحة القصر رايات

---

(١) نعمان الأراك بالفتح : واد بين مكة والطائف أو جبل .

(٢) خزانة الأدب للحموى — ٢٢٦ .

(٣) قلائد العقيان — ٩ .

بكينا دماً حتى كأن عيوننـــا　　بجرى الدموع الحمر منها جراحات

وهو ينظر إلى قول القائل :

بكيت دماً حتى لقد قال عائدى　　أهذا الفتى من جفن عينيه يرعف

وأحسب هذا البيت مأخوذا من قول أبي تمام :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا　　فلا تكُفَّن من شأنيك أو يكِفا

لا عذر للصبِّ أن يقنَى السلوَّ ولا　　للدمع بعد مضىِّ الحى أن يقفا

حتى يظَل بماء ســـافح ودم　　فى الربع يُحسب منعينيه قد رُعفا

وأبو تمام أخذه من قول أبي وجزة[1] :

عيون تَرامى بالرُّعاف كأنها　　من الشوق صِردان تدبُّ وتلمع

وقد قيل فى تفسيره : شبه الدمع — وقد عصفره الدم — بالرعاف ، وشبه العيون — وهى تفيض بالدمع تارة وتحبسه أخرى — بالصِّردان تنتفض تارة ، وتظهر عرضاً من الأرض تارة .

وبيت أبي تمام أجود لفظا ونظما[2] .

٣ — أن يكون الغرض وصف شىء لا يستكمل دقته بغير هذه الألفاظ ، كقول ابن الحاجب فى احمرار الشمس عند المغيب :

وكأنها عنـــد الغرو　　ب جفون عين الأرمد

وقول ابن طباطبا فى الشمس المنقبة بالغيم :

وأقذيت عين شمسنا فحكت　　من خلل الغيم طرف عمشاء

وقول الألبيرى يصف المرية[3] :

---

(١) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٨ .

(٢) الموازنة — ٤٤٢ — ٤٤٣ .

(٣) المرية كغنية من مدن الأندلس ، وموضع آخر بها .

قالو المرية فيهـــا نظافة قلت إيه
كأنها طست تبر ويُبصق الدم فيه

وقول الوراق :

أبدى لنا لما بدا قرعة يحار فى تشبيهها اللب
فقلت هل تشـــبه يقطينة فقال لو كان لها لب

وقول جرير يهجو الأخطل بتورم أنفه من السكر :

وشربت بعد أبى ظهير وابنه سكـَر الدنان كأن أنفك دُمّل

وقد جرت العادة أن أنوف السكارى المدمنين تتورم ؛ قال الجاحظ : رأيت جماعة ممن يعاقرون الشراب قد عظمت آنافهم وصارت لها خراطيم منهم روح الصائغ وعبد الواحد صاحب اللؤلؤى ، وجماعة من ندمان حماد ابن الصباح ، وعبد الله أخاهم من عسكر ، وناساً كثيرين .

وقول عبد الله بن عتبة فى وصف السكران نفسه :

وشربك من ماء الكروم كأنه إذا مُجّ صِرفا فى الإناء خضاب
صريع مدام والندامى يلونه وفى الشدق قىء سائل ولعاب

وقد عد العسكرى هذا الشعر والذى قبله أبدع ما قيل فى بابه[1] .

وقول أبى البيداء الرياحى - وهو مما أنشده الجاحظ - .

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعىّ فى القريض دخيل

وهذى الكلمة على قبحها لا يوجد خير منها فى هذا المكان ، فإنها واضحة الدلالة إلى حد تصوير المعنى المراد ؛ وهو عدم التناسب والتلاؤم بين أبيات الشعر .

وذلك أن بعر الكبش لا يقع إلا متفرقا .

---

(١) ديوان المعانى — ١ — ٣١٤ .

وقول جورج ديهاميل : أؤكد أن القصة اليومية هى إحدى قروح أدبنا الخفية ، قرحة يسيل منها كثير من الدم الزكى الجميل[1] !

فهذه الألفاظ نراها حسنة فى هذه المواضع ، بقدر ما كانت قبيحة فى المواضع الأخرى ، لتباين المناسبات واختلاف المقامات ، ذلك لأن قبحها وحسنها لم يأت من ذاتها وإنما هو وصف طارىء عليها يتغير بتغير السياق .

---

(١) دفاع عن الأدب — ١٦٨ .

الفصل الثالث

اقتران التشبيه بالحلى البلاغية

كثيراً ما يقع التشبيه متصلا بحلية بلاغية فيزداد روعة وجمالا . وتعلو قيمته بمقدار ماوفّرت له الحلية الإضافية من وشى وتحبير ، وطرافة وجدّة وخصب وقوة .

وهذا أمر طبيعى ؛ فإن انضمام شىء حسن إلى حسن مثله ؛ يضاعف روعتهما وبهاءهما ، ويولّد من اتصالهما مزايا جديدة لم تكن لأحدهما منفردا قبل هذا الازدواج .

والمهم فى ذلك أن تكون الحليـــة قد جاءت عفوا دون اجتلاب ولا استكراه وإلا لحقه الثقل والغثاثة .

وهذه الحلى كثيرة ، منها اجتماعه :

١ — مع التذييل كقول الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومَن يسوّى بأنف الناقة الذنبا

وقع التشبيه فى النصف الأول ، وذيّل بالنصف الثانى .

وقول أبى بكر الدانى :

وسعودهم تثنى الأعادىَ عنهم إن السعود كتائب لا تهزم

استوفى المعنى فى الشطر الأول ، وذيل بالتشبيه فى الشطر الآخر .

٢ — مع الإيغال كقول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقّب

فقد أتى على التشبيه كاملا قبل القافية ؛ وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع بفتح الجيم وكسرها ؛ وهو خرز يمانى صينى فيه سواد وبياض ؛ تشبه به الأعين.

ثم لما أتى بالقافية أوغل[1] بها فى الوصف ، وجوّده وأكده بقوله : لم يثقب ، وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه ، لأن عيون الوحش غير منقبة.

وقول زهير من معلقته :

كأن فُتات العهن فى كل منزل ... نزلن به حَبُّ الفَنا لم يحَطَّم

شبه العهن — وهو الصوف الأحمر — بحب الفنا . وهو حب تنبته الأرض ، أحمر اللون فيه نقط سود ، ولكنه إذا كسر ابيض لونه.

فاستظهر فى القافية لما جاء بها بأن قال ؛ لم يحطم ، فأكد التشبيه بإيغاله فى المعنى.

٣ — مع أسلوب الحكيم كقول الأرّجانى[2] :

غالطتنى إذ كست جسمى ضنىً ... كُسوة أعرت من اللحم العظاما

ثم قالت أنت عندى فى الهوى ... مثل عينى ، صدقت لكن سَقاما

وقول ابن حجلة المغربى :

شكوت إلى الحبيبة سوء حظى ... وما ألقــاه من ألم البِعاد

فقالت إن حظك مثــل عينى ... فقلت نعم ولكن فى السواد

٤ — مع الاستطراد كقول مسلم بن الوليد :

---

(١) الإيغال أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى المقطع فيزيد معنى آخر ، يزيده وضوحا وشرحا وتوكيداً حسناً.

(٢) أسلوب الحكيم : حمل لفظ فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه.

أجدك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تُنشَر[1]

لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيي حين يذكر جعفر[2]

وقول إسحق الموصلي في وصف الخمر[3] :

وصافية تغشى العيون رقيقة سليلة عام في الدنان وعام

أدرنا بها الكأس الرويّة موهنا من الليل حتى انجاب كل ظلام

فما ذرّ قرن الشمس حتى حسبتنا من العِيّ نحكى أحمدَ بن هشام

وقد ذكروا : أن ابن هشام قال له : لم هجرتنى مع الصداقة بيننا ؟ فقال : لأنك قعدت على طريق القافية !

وقول أبي بكر الخُوارَزمى :

ولقد بكيت عليك حتى قد بدا دمعى يحاكى لفظك المنظوما

ولقد حزنت عليك حتى قد حكى قلبى فؤاد حسودك المحموما

ومن بديعه قول ابن رشيق لبعض الرؤساء :

إنى لقيت مشقّة فابعث إلىّ بشقّة[4]

كمثل وجهك حسنا ومثل دينى رِقّة[5]

وكان الرئيس ظريفا فقال له : أما مثل دينك رقة فلا يوجد بوزن أمثال رمل الرَقّة !

وقول أبي بكر بن النطّاح فى مالك بن طوق التغلبي :

فتى شقِيت أمواله بعفاته كما شقيت بَكر بأرماح تغلِب

---

(١) القرون : خصل الشعر .

(٢) يحيي بن خالد البرمكى وابنه جعفر .

(٣) هذه رواية المبرد ، ونسبها بعضهم للصابى .

(٤) الشقة بالضم : واحدة الشقق من الثياب .

(٥) الرقة بالفتح : بلد على الفرات وأخرى غربى بغداد .

والاستطراد هنا مليح جداً ، لأن مالك من بنى تغلب أعداء بكر ، فصار الاستطراد زيادة فى مدحه .

وقول أبى الطيب فى هجاء كافور :

يموت به غيظا على الدهر أهله ... كما مات غيظا فاتك وشبيب[١]

وهذا البيت ليس المقصد فيه مدحا ولا هجاء للرجلين ، ولكن التشبيه والحكاية لا غير[٢] .

ومن الاستطراد الجامع قول أبى محمد بن مُكرَم :

وليل كوجه البرقعيدىّ ظلمة ... وبَرد أغانيه وطول قرونه

قطعت ، فنومى عن جفونى مشرّد ... كعقل سليمان وخفة دينه

بذى أوْلَق فيه اعوجاج كأنه ... أبو جابر فى خبطه وجنونه[٣]

إلى أن بدا وجه الصباح كأنه ... سنا وجه قرواش ونور جبينه

فقد استطرد من تشبيه ، وصَف به حاله إلى أربع تشبيهات هجا فيها ثلاثة ومدح واحدا .

ومن ذلك أن ابن جلنك الحلبى كتب رقعة إلى قاضى القضاة ابن الزملكانى يسأله فيها شيئاً فوقّع له برطلين خبز ، فتوجه ابن جلنك يوما إلى بستان يرتاض فيه ، فقيل له : إنه لقاضى القضاة ، فكتب على حائط البستان :

لله بستان حللنا دوحه ... فى جنة قد فتّحت أبوابَها

والبان تحسبه سنانيرا رأت ... قاضى القضاة فنفّشت أذنابها

---

(١) فاتك : أمير مصرى كان منافسا لكافور ، وشبيب : أمير عربى ثار على كافور فقتله بدمشق .

(٢) الذخيرة — ٢ — ٣٩ .

(٣) الأولق : الجنون .

وفيه يقول الحموى : فاستطرد من وصف البستان ، وتشبيه البان تشبيها مخترعا ، إلى هجو مرقص لقاضى القضاة عند سماعه ، وما شك أحد من أهل الأدب : أن التشبيه غريب فى اختراعه .

وقيل : إن الشيخ بدر الدين بن مالك أملى على هذين البيتين كراسة فى البديع[١] .

والعادة فى الخروج من الاستطراد بطريق التشبيه ، أن تجعل أداة التشبيه مع المستطرد به فى آخر الكلام[٢] .

٥ — مع المذهب الكلامى[٣] كقول النابغة — يعتذر للنعمان بن المنذر عن مدحه آل جفنة الغسانيين — :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكّم فى أموالهم وأقرّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى فعل ذلك أذنبوا

يريد : لا تلمنى ولا تعتب علىّ أن مدحت آل غسان وقد أحسنوا إلىّ ، كما لا يصح أن يلام قوم مدحوك على إحسانك إليهم ، فكما أن مدح أولئك لك ، لا يعد ذنبا يؤاخذون به ، فكذلك مدحى لهم لا يعد ذنبا أحاسب عليه

وهذه الحجة على صورة التمثيل الذى يسميه الفقهاء قياسا

ويمكن رده إلى صورة قياس استثنائى ، بأن يقال : لو كان مدحى لآل جفنة ذنبا ، لكان مدح أولئك القوم لك أيضا ذنبا ، لكن اللازم باطل فكذلك الملزوم[٤] .

---

(١) خزانة الأدب .

(٢) المصدر والرقم نفسه .

(٣) المذهب الكلامى : إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام . وهى أن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب .

(٤) معاهد التنصيص — ٢ — ٨ .

وقول جابر الأندلسى :

لو قضى الله أن قلبىَ يبقى ... ما حكى لحظه الغزال التفاتا

لكن اللحظ قد حكاه فقلبى ... قد قضى نحبه زمانا وماتا

وقول ابن مالك بن المرحل الأندلسى :

لو يكون الحب وصلا كله ... لم تكن غاياته إلا الملل

أو يكون الحب هجرا كله ... لم تكن غاياته إلا الأجل

إنما الوصل كمثل الماء لا ... يستطاب الماء إلا بالغُلَل

البيتان الأولان : قياسان شرطيان .

والبيت الثالث — وفيه الشاهد — قياس فقهى ، فإنه قاس الوصل على الماء ؛ فكما أن الماء لايستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لايستطاب إلا بعد حرارة الهجر .

وما احسن قول بعضهم فى هذا المعنى :

لولا اضطراد الصيد لم تك لذة ... فتطاردى لى فى الوصال قليلا

هذا الشراب أخو الشباب وماله ... من لذة حتى يصيب غليلا

٦ — مع التناسب كقول البحترى فى وصف النوق :

يترقرقن كالسَّراب وقد خُضـ ... ـن غمارا من السراب الجارى

كالقسىّ المعطَّفات بل الأسهـ ... ـم مبريّة بل الأوتار

فإنه لمَّا شبَّه الإبل الناحلة بالقسىّ وأراد أن يكرر التشبيه ، كان يمكن أن يشبهها بالعراجين ، أو بنون الخط ، لأن المعنى واحد فى الانحناء والدقة ، ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم من ذكر القسى .

وقول السُّلامى :

والنقع ثوب بالسيوف مطرَّز	والأرض فرش بالجياد مخمّل
وسطور خيلك إنما ألفاتها	سُمر تنقَّط بالدماء وتُشكَل

ناسب بين الثوب والتطريز ، والفرش والخمل ، والسطور والألفات ، والنقط والشكل .

وقول بعضهم :

ومن عجب أن يحرسوك بخادم	وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر	وخدك ياقوت وخالك عنبر

ناسب بين العذار والثغر ، والخد والخال ، والريحان والجوهر ، والياقوت والعنبر للملاءمة فى أسماء الخدم .

وقول السرى الرفاء :

وغيم مرهَفات البرق فيه	عوار والرياض به كواس
وقد سلَّت جيوش الفطر فيه	على شهر الصيام سيوف باس
ولاح لنا الهلال كشطر طوق	علىْ لبّات زرقاء اللبـــاس

وقول ابن الفارض :

وقد سخُنت عينى عليها كأنها	بها لم تكن يوماً من الدهر قرّت
فإنسانها ميْت ودمعىَ غسله	وأكفانه ما ابيض حزناً لفرقتى

٧ — مع التقسيم كقول عمر بن أبى ربيعة :

وهبها كشىء لم يكن أو كنازح	به الدار أو مَن غيبته المقابر

فلم يبق مما يعبر به عن إنسان مفقود قسما إلا أتى به فى هذا البيت .

وقول العباس بن الأحنف :

وصالكم صَرم وحبكم قِلًى   وعطفكم صد وسلمكم حرب

وكان محمد بن موسى المنجم[١] يحب التقسيم فى الشعر ، وكان معجبا بقول ابن الأحنف المتقدم ، وقد حكى عنه أنه قال : أحسنَ والله فيما قسم حين جعل لكل شىء ضده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات أوقليدس[٢] .

وقول ابن قلاقس يتغزل :

حملتْ من الأزهار أشباه الربا   فتساوت الأمثال والأشكال

فالآس صُدغ والأقاحى مبسِم   والورد خد والبنفسج خال

وقول الشهاب محمود :

وإنى لنى نظرى نحـــوها   وقد ودّعتنى قبيل الفراق

ولا صبر لى فأطيقَ الهوى   ولا طمع إن نأت فى اللحاق

ولا أمل يرتجى فى الرجوع   ولا حكم فى رد تلك النياق

كمضنى يودِّع روحا غدت   يراها على رغمه فى السياق[٣]

٨ — مع التسهيم[٤] كقول جنوب فى رثاء أخيها عمرو بن عاصم ذى الكلب[٥] :

وخَرق تجاوزتَ مجهـــولة   بوجناء حرف تشكّى الكلالا[٦]

فكنت النهار به شمسه   وكنت دجى الليل فيه الهلالا

---

(١) العمدة — ٢ — ٢٢ .

(٢) أو قليدس بضم وزيادة واو كما فى القاموس .

(٣) السياق : الاحتضار .

(٤) التسهيم ويسمى الإرصاد أيضا : أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى .

(٥) انظر خبر قتله فى زهر الآداب — ٣ — ٢١٢ .

(٦) الخرق : القفر والأرض الواسعة المجهولة تنخرق فيها الرياح .

لما ذكرت النهار جعلته شمسا ، ولما ذكرت الليل جعلته هلالا لمكان القافية ، ولو كانت القافية رائية مثلا لجعلته قمراً .

وسر الصنعة فى هذا الباب : أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته ، وشاهدا بها ودالا عليها[١] .

وترى ذلك واضحاً فيما ذكره على بن ظافر الأزدى ، قال : خرجنا للقاء القاضى الفاضل ، فرأيت فى الموكب رجلا أسود اللون عليه جبة حمراء فأنكرته ولم أعرفه ، ولقيت القاضى الأسعد أبا المكارم فقلت له : من هذا الأسود الذى كأنه فحمة فى دم حجامة !

فقال : كأنه ناظر طرف أرمد .

فقلت له : يصلح أن يكون بعده :

أو مثل خال فوق خد أمرد .

وأن يكون قبله :

وأسود فى ثوبه المورد .

ثم لقيت بعد ذلك ابن سناء الملك فأنشدته إياهما وكتمت الأول ، وقلت : قد صنعت لهما أولا ، فاصنع أنت أيضاً ، وقصدت بذلك اختيار القافية وتمكنها إذ كل خاطر إنما يتبادر إليها .

فقال :

وأسود فى ملبَس مُورَّد .

فعجبت من توارد الخاطرين لمّا كانت القافية متمكنة غير مستدعاة ولا مجتلبة ، إلا أن قوله : فى ملبس أحسن من قولى : فى ثوبه[٢] .

٩ — مع الاستخدام كقول ابن جابر الأندلسى :

---

(١) العمدة — ٢ — ٢٦ .

(٢) بدائع البدائه — ١٠٩ .

فى القلب من حيكم بدر أقام به ... فالطّرف يزداد نوراً حين يبصره
تشابه العقد حسنا فوق لَبَّته ... والثغر منه إذا ما لاح جوهره

١٠ — مع حسن التعليل كقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

وقول ابن حكينا البغدادى :

ريقته الشـــهد والدليل على ... ذلك نمل فى خده صعِدا[1]

وقول القاضى الفاضل :

لو لم يُعطل خاطرى عن سلوة ... ما كان خدى بالمدامع حالى
أودعتـــه قلبي فخان وديعتى ... فسواده فى خــده كالخال

وقول ابن اللبانة :

زادوا جفاء فانتقصت مودة ... ومن الزيادة موجب النقصان
أنا مثل مرآة صَقيل صفحها ... ألقى الوجوه بمثلما تلقانى[2]

وقول آخر :

انظر إلى الصبح المنير وقد بدا ... يغشى الظلام بمائه المتــدفق
غرِقت به زُهر النجوم وإنما ... سلم الهـــلال لأنه كالزورق

وقد أعجب عبد القاهر باجتماع التشبيه مع حسن التعليل ، فقال : ينبغى أن تعرف أن باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ماناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حداً يرد المعروف فى طباع الغزِل ، ويلهى الثكلان ، وينفث

---

(١) النمل : كناية عن شعر العارضين أول خروجه .
(٢) الصفح : الجانب .

فى عقد الوحشة ، وينشد ما ضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر[1] .

١١ — مع تجاهل العارف كقول ابن هانئ الأندلسى فى المعز الفاطمى:

أبنى العوالى السمهرية والموا ... ضى المشرفية والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبَّع فى حمير

ويحكى : أنه لما أنشدها ترجل العسكر كله ، ولم يبق راكب سوى المعز .

فلا يعلم شعر كان جوابه نزول عسكر جرار غيره[2] .

ومما نسب إلى يزيد بن معاوية :

أليل دجا أم شعرك الفاحم الجعد ... وبدر بدا أم وجهك القمر السّعد
ونرجسة هاتيك أم هى مقلة ... وتفاحة ذاك المضرَّج أم خد
وحقّان من عاج لطيفين رُكّبا ... بصدرك أم ثديان هذان أم نَهد

وقول ابن الفارض :

أو ميض برق بالأبيرق لاحا ... أم فى ربا نجد أرى مصباحا
أم تلك ليلى العامرية أسفرت ... ليلا فصيّرت المساء صباحا

وقول شاعر :

أجفون كحيلة أم صِفاح ... وقدود مهزّة أم رماح

١٢ — مع التدبيج[3] كقول ابن الساعاتى :

من معشر ويجلّ قدر علائه ... عن أن يقال لمثله من معشر

---

(١) أسرار البلاغة — ٢٣١ .

(٢) خزانة الأدب للحموى — ١٥٤ — معاهد التنصيص — ٢ — ٥٤ .

(٣) التدبيج : أن يذكر الشاعر أو الناثر فى معنى من المدح أو غيره ألوانا لقصد الكناية أو التورية .

بيض الوجوه كأن زرق رماحهم ... سرج يحل سواد قلب العسكر

وقول أبى بكر الخالدى :

ومدامة صفراء فى قارورة ... زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس والحباب كواكب ... والكف قطب والإناء سماء

وقول بعضهم :

الغصن فوق الماء تحت شقائق ... مثل الأسنة خضبت بدماء

كالصعدة السمراء تحت الراية الحمراء م ... فوق اللأمة الخضراء

١٣ — مع المقابلة كقول العباس بن الأحنف :

اليومُ مثل الحول حتى أرى ... وجهك والساعةُ كالشهر

وقول الحداد المصرى :

أما ترى الغيث كلما ضحكت ... كمائم الزهر فى الرياض بكى

كالحِب يبكى لديه عاشقه ... وكلما فاض دمعه ضحكا

١٤ — مع توكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس ؛ كقول أبى القاسم الطبرى :

قضيب ولكن مبسم النور ثغرها ... وبدر ولكن المحاق بخصرها(١)

وقول آخر فى وصف الخيل :

منها الدجوجى ومنها الأرمك(٢) ... كالليل إلا أنها تحرك

وقول آخر :

هو الكلب إلا أن فيه ملالة ... وسوء مراعاة وما ذاك فى الكلب

---

(١) محاق الخصر . كناية عن دقته .
(٢) الأرمك : ما يخالط غبرته سواد .

وقول آخر :

معشر أشبهوا القـــرود ولـكن   خالفوها فى خفـــة الأرواح

١٥ - مع صحة التفسير كقول العسكرى :

كيف أسلو وأنت حِقف وغصن   وغزال لحظا وردفا وقدّا[١]

وقول المتنبى :

فتى كالسحاب الجُون يُخشى ويُرتجى   يُرَجّى الحيا منها وتخشى الصواعق

وقول بعض الشعراء :

شَبهُ الغيث فيه والليث والبد   ر فسمح ومِحرب وجميـــل

١٦ - مع الرجوع[٢] كقول السراوندى :

كالبدر بل كالشمس بل كـكليهما   كالليث بل كالغيث هطال الديم

وقول ابن سناء الملك :

ومَليحة بالحسن يسخَر وجهها   بالبدر ، يهزأ ريقها بالقَرقف[٣]

لا أرتضى بالشمس تشبيها لها   والبدر ، بل لا أكتفى بالمكتفى[٤]

وقد أخذه من قول ابن المعتز ولم يحسن الأخذ :

والله لا كلّمته ولو أنه   كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفى

قايست بين جمـــاله وفِعاله   فإذا الملاحة بالخيـــانة لا تفى

١٧ مع الإدماج كقول ابن قلاقس :

كأن دموعى إذ تـكاثر وقعها   تـُعد على الدنيا بهن المساويا

---

(١) الحقف بالكسر : الرمل المموج ؛ يريد به العجز

(٢) الرجوع . العود إلى كلام سابق بالنقض والإبطال لنكتة .

(٣) القرقف كجعفر : الخمر يرعد منها صاحبها .

(٤) المكتفى : أحد خلفاء بنى العباس وقد شهر بالجمال .

فقد ضمّن فى وصف كثرة دموعه شكايته من الدنيا .

وقول القاضى الفاضل :

وقد خفقت راياته فكأنها أنامل فى عمر العدو تحاسبه

ومن الطريف قول الخيمى فى سبحة :

وسبحة مسودّة ، لونها يحكى سواد القلب والناظرِ
كأننى وقت اشتغالى بها أعد أيامك يا هاجرى

ومما جاء فى شعر المتنبى قوله فى طول الليل :

أقلب فيه أجفانى كأنى أعد بها على الدهر الذنوبا

١٨ – مع المزاوجة بين معنيين فى الشرط والجزاء كقول البحترى :

لعمرك إنا والزمان كما جنت
على الأضعف الموهون عادية الأقوى

وقول زياد الأعجم :

وإنا وما تُلقى لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يُلقَ فى البحر يغرق

وقد أشاد عبد القاهر بهذا البيت ، لأن عمل الشاعر فيه أدق وطريقه أغمض ، ووجه المشابهة فيه أغرب[1] .

٩ – مع الجناس كقول الصاحب فى أخوين صبيح وقبيح :

يحيى حكى المحيا ولكن له أخ حكى وجه أبى يحيى[2]

وقول ابن جزى الأندلسى :

أيا من كففت النفس عنه تعفّفا وفى النفس من شوق إليه لهيب

---

(١) دلائل الإعجاز — ٧٢ .

(٢) أبو يحيى : كنية ملك الموت .

ألا إنما صبرى كصبر وإنما　　على النفس من تقوى الإله رقيب

ويصح بدل « لهيب » : غرام ، وبدل « رقيب » : لجام .

وهذا يسمى التخيير البديعى[1] .

٢٠ — أو مع التورية كقول الصفدى :

ورب صديق غاظه حين جاده　　من القوم صفح دائم الهطل بالهطل[2]

فقلت له تأبى المروءة أننا　　نخلّيك يا بستان فينا بلا نخل

والنخل يستعمله المولدون بمعنى الصفح .

وقول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :

قالوا أما فى جلّق نزهة　　تنسيك من أنت به مُغرَى[3]

يا عاذلى دونك من لحظه　　سهما ومن عارضها سطرا

والسهم والسطر من متنزهات دمشق المشهورة .

وقول أبى الحسين الجزار :

أنت طوقتنى صنيعا وأسمعتك م　　شكرا كلاهما ما يضيع

فإذا ما شجاك شكرى فإنى　　أنا ذاك المطوّق المسموع

وقول ابن الوردى :

يا شيخ خل التصابى　　فالزهد بالشيخ أليق

ولا تحثّ كُمَيْتاً[4]　　فإن فودك أبلق

٢١ — مع العكس ويسمى التبديل كقول بعض الشعراء :

---

(١) نفح الطيب — ٣ — ٢٧٢ .

(٢) جاده : أمطره .

(٣) جلق بكسر وتشديد اللام مع الفتح والكسر : دمشق .

(٤) الكميت : الخمر .

ألست ترى أطباق ورد وحولها   من النرجس الغض الطرى قدود
فقلت خدود ما عليهن أعين   وتلك عيـــون ما لهن خدود

٢٢ – مع التفريق كقول بعضهم .

قاسوك بالغصن فى التثنى   قياس جهل بلا انتصاف
ها ذاك غصن الخِلاف يدعى   وأنت غصن بلا خلاف[1]

٢٣ – مع النزاهة – وهو الهجو بألفاظ منزهة عن الفحش – كقول أبي تمام :

بنى فعيـــلةَ ما بالى وبالكم   وفى البلاد مناديح ومضطَرب
لجاجة لىَ فيكم ليس يشبهها   إلا لجاجتكم فى أنكم عرب

٢٤ – مع الاستدراك كقول القائل :

وإخـــوان تخذتهم دروعا   فكانوها ولكن للأعادى
وخلتهم سهـــاما صائبات   فكانوها ولكن فى فؤادى

وقد يجتمع التشبيه مع عدة بديعيات كقول أبي تمام :

مَها الوحش إلا أن هاتا أوانس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فى هذا البيت يقول ابن أبي الإصبع : إنه من أفضل بيوت المناسبة لما انضم إليه معها من المحاسن :

ففيه مناسبة تامة بين مها وقنا ، ومناسبة ناقصة بين الوحش والخط وأوانس وذوابل .

وتشبيه فى مها وقنا ، وقد حذفت الأداه منه ليدل على قرب الشبه به .

والاستثناء فى قوله : إلا أن هاتا أوانس ، وإلا أن تلك ذوابل ؛

---

(١) الخلاف : شجر البان .

ليثبت للموصوفات التأنيس ، وينفى عنهن النفار والتوحش فى الأول ، وليثبت لهن اللين وينفى عنهن اليبس والصلابة فى الثانى .

والمطابقة فى الوحش وأوانس ، وهاتا التى للقريب وتلك التى للبعيد .

والمساواة ؛ فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر عنه

والائتلاف ، لكون ألفاظه من واد واحد ، متوسطة بين الغرابة والاستعمال ، وكل لفظة منها لائقة بمعناها لايكاد يصلح فى موضعها غيرها .

والتمكين ، لاستقرار قافية البيت فى موضعها وعدم نفارها عن محلها[١] .

وفى أقوال ابن أبى الأصبع شىء من المبالغة ؛ فقد استحسن من أبى تمام الاستثناء فى قوله : إلا أن تلك ذوابل ، معللا ذلك بإثبات اللين لهن ، ونفى اليبس والصلابة عنهن .

وهذا يخالف قول الآمدى الذى يخطىء أبا تمام فى هذا ؛ لأنه إنما قيل للقنا : « ذوابل » للينها وتثنيها

وأبو تمام نفى ذلك عن قدود النساء التى من أكمل صفاتها التثنى واللين والانعطاف ، كما قال تميم بن مقبل :

يهززن للمشى أوصالا منعمة هز الجنوب ضحا عيدان يبرينا

أو كاهتزاز ردينىّ تداوله أيدى التجار فزادوا متنه لينا

فشبه تميم قدودهن بالردينى للينه وتثنيه لا غير ، وهذا أجود من كل ما قاله الناس فى مشى النساء وحسن قدودهن[٢] .

---

(١) خزانة الأدب للحموى — ٢١٠ .

(٢) الموازنة — ١٤٠ .

الفصل الرابع

التشبيهات المبتكرة

من الأمور الشاقة المجهدة رسم طريق معبَّد لابتكار المعانى ومرد ذلك إلى تعدد مناحى التفكير فى الناس ، وتباين أنظارهم إلى الأشياء ، واختلاف طرائقهم فى الاستنباط ، وتفاوت عقولهم فى القوة والضعف ، والنفوذ والكلال .

وكل ما يستطاع أن يقال فى هذا المقام : ان التزود من مختلف الثقافات والارتشاف من مناهل العلوم والمعارف وبخاصة الفلسفات ، والانتفاع بكل جديد تبدعه المدنية والحضارة ، وإنعام النظر وإعمال الفكر فى ملكوت السموات والأرض وما تستجليه حواسنا ، واستخلاص العبر من الحوادث والخطوب والمثلات ، كل أولئك من شأنه أن يوسع أفق الأديب ، ويخصب قريحته ، ويشقق معلوماته ، ويفتق خياله ، ويعمق تفكيره ويمهد سبيله إلى اقتناص الشوارد ، وتقييد الأوابد ، أما ما عدا ذلك فمن المتعذر ضبطه وتحديده .

وقد فطن إلى ذلك ابن الأثير فقرر : أن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ، لأن ذلك مما لا يمكن ، ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا فى غيره .

وكيف تتقيد المعانى المخترعة بقيد ، أو يفتح لها طريق يسلك ، وهى تأتى من فيض إلهى بغير تعليم ، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذى يختص بها يكون فذا يوجد فى الزمن المتطاول[1] .

---

(١) المثل السائر — ١٣٧ :

ثم يرسم ابن الأثير طريقا يظنه موصلا جيدا لاقتناص المعانى — وهو ليس بموصل على الحقيقة — إذا لم يوجد الطبع السليم والوحى المشع ، والإلهام الفياض .

قال : سأقول لك فى هذا الموضوع قولا لم يقله أحد غيرى ، وهو أن المعانى المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا وردت عليك مسئلة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهرا لبطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ؛ فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعانى ، ينبغى لك أن تنظر فيه كنظرك فى المجهولات الحسابية ، إلا أن هذا لا يقع فى كل معنى فإن أكثر المعانى قد طرق وسبق إليه ، والإبداع إنما يقع فى معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا أمراً غريبا لم يأت مثله ؛ وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم شعر ، فإن الكاتب والشاعر يعثر على مظنة الإبداع(١) .

وفى كلام ابن الأثير كثير من الحق ، ولكن لا نقره على أن أكثر المعانى قد طرق وسبق إليه ؛ فالمعانى حقل خصب بكر مترامى الأطراف لا نهاية لحدوده ، ولم تأخذ العقول منه إلا كما اغترف الظامئ جرعة بيده من نبع زخار ! والمعانى أكثر من الألفاظ وأوسع رقعة وأعمق لجة ، ولا تزال متجددة على تراخى المدة وتعاقب الأيام بما تمدنا به الفتوح العلمية والعقلية من أمداد متصلة زاخرة لا تنفد على إنفاق ، وإنما خيل لابن الأثير أن المعانى قد طرقت أو استنفدت لأن شعراء العصور الخالية قد سجنوا أنفسهم فى نطاق ضيق محصور من الموضوعات يعيدون فيها ويبدون ، فتحجروا ما وسعه الله عليهم ، فالذنب ليس للمعانى ولكن لضيق آفاقهم . يقول « تومسون » لقد أكدت كثيرا على ضرورة الجهاد من أجل الحصول على قوة الابتكار ، وقد سألنى أحد الأشخاص : هل فى إمكان الشخص أن يتعلم

---

(١) المصدر نفسه — ١٣١ — ١٣٢ .

كيف يصبح مبتكرا ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما أحسن طريقة يجب اتباعها ؟ لأن الابتكار أو الاختراع أو الخلق سمه ما شئت ، يمكن بكل تأكيد أن يكون مكتسبا ، وفى نفس الوقت هناك بعض الناس ولدوا وعندهم ميل عظيم نحو الابتكار .

ثم يجيب عن السؤال : بأن أساس المسألة : هو أن الابتكار عبارة عن مجرد القدرة على ترتيب الأفكار المألوفة ، ووضعها فى قالب جديد مشيّد على صلات جديدة[1] .

وقد عرّف ابن رشيق الابتكار بأنه : مالم يسبق إليه ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، ومثّل له بأبيات منها : قول امرئ القيس :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها   سموّ حَباب الماء حالا على حال

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، وسلّم الشعراء إليه ؛ فلم ينازعه أحد إياه[2] .

ثم هو يتفق مع « أرسطو » فى أن وصف الأشياء المادية كما هى فى الواقع لافنيّة فيه ولا ابتكار ، كما أنه ليست هناك فنية فى الأشياء الموجودة بالضرورة ولا اللازمة لزوما عقليا ، ولا فى المسائل الرياضية والعلمية إذا عرضت على طبيعتها مجردة عن الإضافات التى نزيدها عليها[3] .

أما ابن الأثير ، فيرى أن المعانى على ضربين[4] :

١ - أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه . وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويبين له عند

---

(١) أسرار النجاح — ٦٩ .
(٢) العمدة — ١ — ١٧٥ .
(٣) بلاغة أرسطو — ٣٧ .
(٤) المثل السائر — ١٢٣ .

الأمور الطارئة ، كقول أبي تمام في وصف المصلوبين :

بكروا وأسروا في متون ضوامر   قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم   أبدا على سفر من الأسفار

والخاطر في هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كلفة ، لشاهد الحال الحاضرة .

وجملة الأمر : أن الشاعر والكاتب ينظر إلى الحالة الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني ، وقد يستخرج من المعنى غير المبتدع معنى مبتدعا .

فمن ذلك قول ابن السراج في الفهد .

تنافس الليل فيه والنهار معا   فقمصاه بجلباب من المقل

وليس هذا من المعاني الغريبة ، ولكنه تشبيه حسن واقع موقعه .

وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل ، يقال له « ابن مسهر » فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال :

ونقطته حباه كي يسالمها   على المنايا نعاجُ الرمل بالحدق

والمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة ، أصعب منالا مما لا يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لأبكارها سر لا يهجم على مكامنه إلا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم .

والضرب الثاني من المعاني : هو الذي يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطرود ؛ وذلك جُلُّ ما يستعمله أرباب هذه الصنعة ، ولذلك قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم .

ولكن لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان ؛ لئلا يقنط من الترقي إلى درجه الاختراع ، بل يعول على القول المطمع في ذلك ، وهو قول أبي تمام :

لازلتَ من شكرىَ فى حلة لابسها ذو سلَب فاخر[1]
يقول من تقرع أسماعه كم ترك الأول للآخر

وعلى الحقيقة فإن فى زوايا الأفكار خبايا، وفى أبكار الخواطر سبايا، لكن قد تقاصرت الهمم، ونكصت العزائم، وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول، وليته تبعه ولم يقصر عنه.

ومهما يكن فليس الشاعر هو الناظر للصور المرئيه، إنما الشاعر المبتكر هو الذى يرى الصورة غير المرئية، بل هو الذى يبتكر الصور، والابتكار لايستمد عناصره من المنظور فقط، بل من المتصور والمفروض أيضاً.

إن النظرة الداخلية هى التى يعتمد عليها الشاعر، وفيها مزيج معقد مخلوط من مناظر مرئية وغير مرئية، شعورية وغير شعورية، وفيها خطوط وألوان وأصوات من كل ما تقذف به العاطفة، ومن كل ما ينبع من النفس: من فكر وعلم وحكمة وخيال[2].

وعلى كل فنحن لانريد من الابتكار أو الاختراع أو الخلق كما يسمونه أن يأتى المنشىء بشىء جديد من عدم محض؛ فهذا فوق الطاقة البشرية، والتكليف به تكليف بالمحال كما هو ضد النواميس الكونية.

ولنا فى ذلك أسوة بأمنا الطبيعة نفسها؛ فهذه الكائنات علوية وسفلية — على ضخامتها وعظمتها وتباين مظاهرها وتنوع خصائصها — تتألف من عناصر محدودة لاتتجاوز المائة.

ثم هى — مع ذلك — تروعنا بما بينها من فروق شاسعة، لاتؤذن فى الظاهر بتعاطف، ولاتشعر بصلة، مع أنك لو حللتها لعجبت من تقاربها

---

(١) السلب بالفتح: ما يسلب، يريد به الثياب.
(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٢٥٦.

فى التركيب ، ومن سريان الوحدة الشاملة فيها ، وأن هذا التباين القليل فى عناصرها قد أدى إلى هذه السمات المنوعة المتغايرة .

فنحن لا نخلق شيئا من العدم ، والمؤلفات التى تصدر عن العدم قد تسلينا ساعة من الزمن ، ولكنها تفتقر إلى المادة افتقارا مسرفا ، ولهذا ترتد إلى العدم[١] .

وإذن فليس معنى الابتكار أن نخلق شيئا من لاشىء ، ولكن معناه : أن نؤلف صورا جديدة لأشياء أخذنا عناصرها الأولية من صور ذهنية سابقة مرت بنا فى حياتنا ، ودخلت فى حوزة تجاربنا .

ولذا كان ما يهمنا بالدرجة الأولى فى هذا المجال ؛ هو كثرة المعلومات والأفكار ؛ لذا ينبغى أن تقرأ وتلاحظ وتتعلم من أى شىء ومن أى شخص ولا تتوانى فى شحن عقلك بالآراء والأفكار .

ثم اختر لنفسك بعض الدراسات الخاصة ، وتبحر فيها ؛ لأنه ليس فى إمكان الإنسان أن يصبح مبتكرا بصفة عامة ؛ لأن الابتكار يجب أن يدور حول بعض النواحى الخاصة كالميكانيكا والطب والأدب وما شابه ذلك ، فاختر طريقك ، وسر فيه ، وتعلم كل ما يمكنك أن تتعلمه من هذا الطريق .

ثم كن دائما مستقبلا للآراء الجديدة : ابحث عن وجه الشبه أو الأسس التى تربط الآراء بعضها ببعض ، وغالبا ما تتوقف الفكرة المبتكرة أو الاختراع الجديد على شىء واحد فقط ، ألا وهو اكتشاف بعض الصلات ، واستخراج بعض المبادىء والأسس التى تربط بين الحقائق المشهورة .

والباحث عن الابتكار يجب أن يتعلم كيف يفكر بطريقة استنتاجية ، وأن يسأل ويقول : لماذا ؟ فلو لم يسأل « نيوتن » ذلك السؤال عند ما رأى التفاحة وهى تهوى إلى الأرض ، لما اكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

---

(١) دفاع عن الأدب — ١٢٩ .

وتعلم أيضا أن تعقل وتفكر بالمقارنة ، لاحظ وجه الشبه وحاول أن تستخدم مبادئ هذه المجموعة من الحقائق فى شرح مجموعة أخرى ، وعن طريق مثل هذه الوسائل يأتى كثير من الاختراعات إلى عالم الوجود[١].

ومن الضرورى — كما يقول « شارل بلوندل » أن يستعير كل مخترع المواد الأولية لاختراعه من بيئته[٢] وبقدرما اختزنه الإنسان فى خاطره من هذه الصور المختلفة ، يكون حظه من كثرة الابتكار ، وقدرته عليه وافتنانه فيه .

فالغنى بهذه الصور كالمثرى من المال كلاهما يتيسر له الإنفاق كما يشاء وكيف يشاء بلا جهد ولا عناء .

وعكس ذلك خاوى الوفاض منهما ، فإنه لا يتأتى له أن يبسط خياله أو يبسط يده لعسرته التى تثقله بالأصفاد فى شئون الفكر وشئون المال .

وبذلك يمكننا أن نقول : إن أكثر الناس ابتكارا هم الذين تشبعوا بخبرات كثيرة عن طريق التقليد ، فأكثر الكتاب والأدباء والباحثين قد ابتكروا على أساس خبرتهم وتقليدهم لمن سبقهم[٣].

فمثلا يقول عدِىّ بن الرقاع العاملى فى زواج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بأم حكيم بنت الحكم الأموية :

قمر السماء وشمسها اجتمعا ... بالسعد ما غابا وما طلعا

ما وارت الأستار مثلهما ... فيمن رأى منهم ومن سمعا

دام السرور له بها ولها ... وتهنآ طول الحياة معـــا

(١) أسرار النجاح — ٦٩ .

(٢) مقدمة علم النفس الاجتماعى — ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق — ٧٨ .

فكان أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر ، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا[1] .

والشمس والقمر ليسا بالجديدين على العيون والخواطر ، فهما يطالعان الناس كل يوم ، وصورتاهما مقررتان فى النفوس .

ولكن هذا الشاعر أتيح له أن يسبق الشعراء إلى عقد صلة بين العروسين وبين القمرين ؛ فالجِدّة هنا ليست فى الأجزاء الأولية لأنها معروفة ولكن فى الصورة التركيبية .

فالابتكار — كما يقرره أرسطو — إضافى ؛ لمحة الأديب فى ذاتية من الذاتيات أو فى عرضية من العرضيات ، فألح عليها وأبرزها ، فهو من عمل الشاعرية إن لم يكن هو الشاعرية نفسها ، ولا يقدح فى شاعرية الابتكار أن يكون مصدر الابتكار نفسه فكريا أو عقليا ، فالذى يقلب الفكرة — فيجعل البخيل كريما إذا مدح ، والكريم بخيلا إذا هجا — مبتكر أضاف جديداً إلى الفكرة ، أو فهم فى الفكرة غير ما يفهمه الناس ، والذى يقلب الحكم العقلى إلى حكم عاطفى : مبتكر لأنه أضفى على الحكم المقرر شيئا جديداً لم يتنبه له سائر الناس .

والفنان يستطيع أن يبتكر جمالا من شىء لا جمال فيه ، وأن يضفى جمالا على شىء ليس جميلا فى ذاته وليس موضعاً للجمال[2] .

يقول بشار فى تحريك النسيم للباب .

طرقتنى صبَاً فحركت البا ب هُدُوّاً فارتعت منه ارتيابا

فكأنى سمعت حس حبيب نقر الباب نقرة ثم هابا

(١) ثمار القلوب — ٢٣٩ .

(٢) بلاغة أرسطو — ٣٧ — ٤١ .

وقلّ من الناس من لم يحدث له ذلك ، ولكن بشاراً وحده هو الذى سجل هذا المعنى فى هذا التشبيه العجيب .

ويذكر الصولى بمناسبة ذلك : أن المكتفى بالله كان نائماً فسمع دق الباب فانتبه له مرتاعا ، ثم سكن قليلا ، ثم عاد فنظر فإذا الريح تحرك الباب حركة كأنها دق يد !

قال : فقلت له : ذكر الشاعر ذلك ، وأنشدت البيتين السابقين .

فقال المكتفى : ما كنت أظن أنه قيل فى هذا شىء ، وما أقل ما يجرى عما لم يذكره الناس[1] .

ويقول صَرَّدُرّ :

إنما المرء فوقها هو لفظ   فإذا صار تحتها فهو معنى

واللفظ والمعنى معروفان ، ولكن الجديد تصوير الإنسان الحى فوق الأرض — يضطرب فوقها ويسعى — باللفظ ؛ لأن اللفظ كائن حى مشخص ، يجرى على اللسان ويلتقطه السمع .

وكذلك تصويره تحتها فانيا : بالمعنى ؛ لأن المعنى لا يرى ولا يتمثل فى غير اللفظ الذى هو كالجسد له .

وقد وفق كل التوفيق فى هذا التشبيه كما وفق فى تصويره ؛ للعلاقة بين اللفظ والمعنى ؛ فإنك لو جردت الشاعر من أبحره وألفاظه وقوافيه — كما يقول كروتشة — لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيل إلى بعضهم ، بل لما بقى شىء ألبتة[2] .

وهو كقول جاريت : إن الفكرة جنين حتى تصاغ فى الكلمات[3] .

---

(١) ديوان المعانى — ٢ — ٤٧ .

(٢) المجمل فى فلسفة الفن — ٦٠ — ٦١ .

(٣) فلسفة الجمال — ١١٨ .

فنحن حقا فى حال الحياة ألفاظ منطوقة ، وفى حال الفناء معان مجردة .

وهكذا يقال فى جميع الصور البيانية التى نعجب بها ونهتز لها ، ونحكم لقائلها بالسبق والتفرد ؛ فلسنا نطرب لهذه الجزئيات التى تألفت منها هذه الأشكال الكلية ، فهى بين أيدينا وعلى مرأى ومسمع منا فى كل موقف ، ولكن الذى يونقنا ويدهشنا ، ويسحر عيوننا وألبابنا هذه الصور فى إطارها النهائى : كيف أمكن تأليفها على هذا المثال العجيب الغريب من جزئيات معروفة مألوفة ، حتى لكأنه لا صلة بين رؤيتنا لها جملة ورؤيتنا لها تفاريق !

ومع هذا فحذار أن تظن أن ابتكار الأشياء على هذا النحو شىء مذلل ، سهل المقادة لكل شاعر أو أديب ، فالحق أنه شىء عسير جداً ، صعب جداً؛ لأنه فن من الخلق ، والخلق من صفات الخالق — له المثل الأعلى — فهو يحتاج إلى دقة ملاحظة ، وشمول نظر ، وتغلغل فى قرارة الأشياء ، وذوق مرهف فى تخير الأصباغ ، وإحكام مزجها ووضعها بعضها بإزاء بعض ، حتى لا تنبو عنها النفس وتقتحمها العين ،

إن الاختراع هبة علوية لا تتاح لكل إنسان ، إنها ملكة هى بلا ريب أشد الملكات جموحا ، فالإنسان يستطيع أن يمرن على الصبر والشجاعة والقدرة ، بل على دقة الإحساس ذاتها ؛ ولكنه لا يستطيع أن يثير وأن يقهر القدرة على الاختراع .

وعلى من حى شيئاً من تلك الهبة الثمينة بين الهبات ، أن يعبر لها مجراها ، وأن يخصبها بالعمل ، ويؤججها بالبلاء ، وأخيراً عليه أن يحققها فعلا ، مع حمايتها من الفساد الذى يستنفدها ويفنيها[1] .

ثم لا ننسى حاجتنا معها إلى بيان ناصع يترجم ما استكنّ فى أعماق السرائر ، ويجسّد هذه المعانى المجردة ، ويهب لها الحياة ، وينفخ فيها الروح ، ويسكبها فى الآذان نغما حلواً ، ولحنا عذباً مسكراً .

---

(١) دفاع عن الأدب — ١٦٥ .

لقد كان سقراط يعزو قوة الابتكار الأدبي إلى ما سماه طبيعة خاصة ، وهي التي وصفها بأنها قادرة على أن تتحمس وهذا صحيح ، ولكن هذه الحماسة لا غناء فيها ، إذا لم تكن هنالك قوة تعبر عنها تعبيراً لفظياً مفهوماً[١] .

ولنفاسة هذه الهبة وندرتها واختصاص قليل من الناس بها ، كان المخترعون أفراداً يحصون عدا .

ومؤرخو الأدب يذكرون في هذا الشأن بشارا وأبا نواس ، وعندهم أن أكثر المحدثين معاني وتوليداً أبو تمام .

على أن أبا القاسم بن مهرويه يزعم : أن جميع ما لأبي تمام من المعاني المخترعة ثلاثة .

ويقول ابن الأثير : قد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه الصناعة يكثرون في ذلك ، وما مثل هذا من قبل أبي تمام بكثير ، فإني عددت المعاني التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهي مما لا أنازَع فيه ، ولا أدافع عنه[٢] .

ويرى ابن رشيق : أن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومي[٣] .

صور للتشبيهات المبتكرة .

والتشبيهات المبتكرة كثيرة في الشعر ، وقد تتبعناها في مواطنها المختلفة وأتينا على صدر صالح منها ، وتركنا ما سخف نسجه أو استغلق معناه .

فمن ذلك قول بعض ملوك اليمن :

---

(١) قواعد النقد الأدبي — ٣٨ .

(٢) المثل السائر — ١٢٧ — ١٢٨ .

(٣) العمدة — ٢ — ١٨٩ — ١٩٠ .

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمس ... وطلوعها من حيث لا تُمسى
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حِمام الموت فى النفس

أخذه مسلم بن الوليد فقال :

تجرى محبّتها فى قلب عاشقها ... جرى المعافاة فى أعضاء منتكِس

وفى رواية :

جرى السلامة ....

وأحسن اتباعه أبو نواس فقال فى الخمر :

فتمشّت فى مفاصلهم ... كتمشّى البُرء فى السَّقم

° ° °

وقول امرئ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القُطُر [1]
يُعلّ به برد أنيابها ... إذا غرّد الطائر المُستحِر [2]

وفى رواية : ونشر العَطِر ، ولعله تحريف .

° ° °

وقوله يصف الناقة :

كأن الحصى من خلفها وأمامها ... إذا نجلته رجلها حذف أعسرا [3]

شبه رمى خفها للحصى برمى الأعسر ؛ لأن رميه يقع فى جهات متفرقة.

أخذه الشّماخ فقال :

لها منسِم مثل المحارة خفة ... كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا

---

(١) القطر بضم فسكون : العود الذى يتبخر به .
(١) المستحر : المصوت فى السحر .
(٣) النجل والحذف : الرمى ، والأعسر : من يعمل بيده الشمال .

وقوله فيها أيضاً :

وعَنس كألواح الإران نسأتها على لاحب كالبرد ذى الحبَرات[1]

شبه الناقة فى عظمها بالتابوت الضخم ، وقد حثها على السير بعصاه على طريق واضح كالبرد اليمنى المنقوش .

أخذه طرفه فقال :

أمون كألواح الإران نسأتها على لا حب كأنه ظهر بُرْجد[2]

• • •

وقوله — يصف الثغر — :

منابته مثل السُّدوس ولونه كشوك السَّيال وهو عذب يفيض

شبه لِثاتها بالسدوس — وهو السَّياج — فى سوادها ؛ لأنهم كانوا يذرّون عليها الإثمد ، وشبه الأسنان نفسها فى بياضها بالسيال — وهو شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن .

• • •

وقوله — يصف جرى الفرس — :

إذا ما جرى شأوين وابتلّ عطفه تقول هزيز الريح مرت بأثأب

بالغ فى وصفه وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالا فى صفته بذكر الأثأب وهو شجر ، للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم ، وشدة صوت .

وقوله فى الفرس أيضا :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مُرجَّل

---

(١) العنس : الناقة الصلبة ، والإران : التابوت العظيم ، والنسأة : العصا ، واللاحب : الطريق الواضح .

(٢) الأمون : الناقة التى يؤمن عثارها ، والبرجد : كساء مخطط .

يقول : كأن دماء الهاديات — وهى أوائل الوحش والصيد — على نحر هذا الفرس ، عصارة حناء خضب بها شيب مسرّح .

شبه الدم الجامد على نحره من دماء الصيد ، بما جف من عصارة الحناء على شعر الأشيب ، وأتى بالمرجل للقافية .

* * *

وقوله — يشبه فرند السيف بدب النمل — :

متوسد عضباً مضاربه في متنه كدبّة النمل

يدعى صقيلا وهو ليس له عهد بتمويه ولا صقل

* * *

وقوله — يصف العقاب — :

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وامرؤ القيس[1] : هو أول من شبه النساء بالظباء والمها والبيض .

وشبه الخيل بالعقبان والعصى وتيس الحلّب[2] .

وشبهها بالظباء والسّرحان والنعامة[3] .

وشبه الحمار بمقلى الوليد[4] . وكر الأندرىّ[5]

وشبه الطلل بوحى الزبور فى العسيب[6]

---

(١) الشعر والشعراء — ٥٥ .

(٢) الحلب كسكر : نبات .

(٣) العقد الفريد — ١ — ٨٣ .

(٤) المقلى والمقلاة : عود يلعب به الصبيان .

(٥) الأندرى : الحبل الغليظ .

(٦) الوحى . الكتابة ، والعسيب : جريد النخل المستقيم المكشوط الخوص .

ويقول عنه ابن رشيق : له اختراعات كثيرة يضيق عنها هذا الموضع ، وهو أول الناس اختراعا فى الشعر ، وأكثرهم توليدا[١]

• • •

ولزهير فى البشر عند السؤال :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ويقول العسكرى : ولو قال : مكان « إذا ماجئته » : إذا ماسألته لكاد أجود .

ويعيبه بعضهم بأن تصوير الممدوح بأنه يفرح لو أعطى ما أعطاه للسائل فيه زرايه على قدره وحطة له .

• • •

ولبعض شعراء كندة فى مدح عمرو بن هند :

هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت على كل ضوء والملوك كواكب

• • •

ولعمرو بن كلثوم فى وصف الثدى من معلقته :

وثديا مثل حُق العاج رَخصا حَصانا من أكف اللامسينا

ويقولون : إنه أول من وصف الثدى بحق العاج[٢] .

وقد تشكك داود الإنطاكى فى ذلك فذكر : أن ما قيل : من أن أول من وصف الثدى عمرو بن كلثوم ، أمر يحتاج إلى مزيد استقصاء وإحاطة ؛ لأن العرب تغزلت كثيرا ، غاية الأمر أن المتأخرين ألطف[٣] .

---

(١) العمدة — ١ — ١٧٥ .

(٢) دولة النساء للبرقوق — ١٥٥ .

(٣) تزيين الأسواق — ٢٨٨ .

وقول أعرابي فى امرأة :

قامت تَصدّى له عمدا لتقتله   فلم ير الناس وجدا مثلما وجدا

بجيـــد آدم لم تعقد قلائده   وناهد مثـــل قلب الظبي ما نَهَدا

فظل كالحائم الهيمان ليس له   صبر ولا يأمن الأعداء إن وردا

شبه ثديها فى نهوده بقلب الآدم — وهو الظبي المشرب لونه بياضا — فى صلابته .

ويقول ابن قتيبة الدينوري : ولا نعلم أحدا شـــبه الثدى بقلب الظبي غيره(١) .

* * *

وللنابغة الذبيانى يعتذر للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وتبعه فى ذلك شعراء كثيرون .

* * *

وللأعشى :

كأن نعام الدّو باض عليهم   إذا ريع يوما للصريخ المندّد(٢)

أخذه زيد الخيل فقال :

كأن نعام الدو باض علـــيهم   وأعينهم تحت الحديد خوازر(٣)

* * *

ولعنترة فى الفرس :

---

(١) عيون الأخبار — ٢ — ١٨٨ .

(٢) الدو : الفلاة ، والصريخ : المغيث والمستغيث أيضا ، والمندد بالفتح : المتفرق ، وبالكسر : المصرح بالعيوب .

(٣) الخزر بالفتح : كسر العين أو ضيقها أو صغرها .

تهد القطاة كأنها من صخرة ملساء يغشاها المسيل بمحفل

شبه القطاة — وهى كفل الدابة ومقعد الرديف منها — فى نهودها وبروزها ، بالصخرة الملساء يغشاها السيل الجارف .

* * *

ولعدى بن زيد العبادى :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى[1]

قال ابن عبد ربه : وهو أول من سبق إلى هذا المعنى[2] .

أخذه العباس بن الأحنف فقال :

قلبى إلى ما ضرنى داعى يكثر من همى وأوجاعى

كيف احتراسى من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعى

وقال آخر :

كنت من كربتى أفر إليهم وهم كربتى فأين الفرار

وقال آخر :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه فقل أين يسعى من يغص بماء

* * *

وللبيد :

من المسبلين الريط لذًّا كأنما تشرب ضاحى جلده لونَ مذهب[3]

أخذه الأخطل فقال :

لذ تقبله النعيم كأنما مُسحت ترائبه بماء مذهب

(١) الاعتصار : شرب الماء قليلا قليلا لإزالة الغصة .

(٢) العقد الفريد — ١٨ .

(٣) الريط : الأثواب اللينة الرقيقة .

وللبيد أيضاً يذكر قوماماتوا :

وإنا وإخواننا لنا قد تتابعوا	لكالمغتدى والرائح المتهجِّر(١)

أخذه بعض المحدثين فقال :

سبقونا إلى الرحيل م وإنا على الأثر

* * *

وله فى تشبيه الأباريق بالبط :

تضمن بيضاً كالأوز ظروفها	إذا أتأقوا أعناقها والحواصلا(٢)

أخذه شبرمة الضبي فقال :

كأن أباريق الشَّمول عشية	أوزٌ بأعلى الطَّف عوج الحناجر(٣)

وأخذه أيضاً أبو الهندى فقال :

سُيغنى أبا الهندى عن وَطْب سالم	أباريق لم يعلق بها وضر الزُّبد(٤)

مُفدَّمة قزّاً كأن رقابها	رقاب بنات الماء تفزع للرعد(٥)

* * *

ولطرفة بن العبد اختراعات كثيرة فى معلقته ، منها قوله فى الموت :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى	لكالطول المرخَى وثِنياه باليد

ومنها قوله فى السفينة :

---

(١) المتهجر : السائر فى الهاجرة .
(٢) أتأق السقاء : ملأه .
(٣) الطف بالفتح : موضع قرب الكوفة والجانب والشط .
(٤) الوطب : سقاء اللبن .
(٥) المفدمة التى عليها : المصافى ، وبنات الماء : كل طائر يألف الماء .

يشق حَباب الماء حيزومها بها ... كما قسم التربَ المفايل باليد[1]

أخذه لبيد فقال :

تشق حمائل الدهنا يداه ... كما لعب المقامر بالِفيال

وأخذه الطرماح فقال :

وغدا تشق يداه أوساط الربا ... قسم الِفيال تشق أوسطَه اليد

* * *

وللنابغة الجعدى فى وصف الفرس :

كأن تماثيل أرساغه ... رقابُ وعول على مشرب

شبه أرساغه — وهى سيقانه وأقدامه — فى غلظها وانحنائها ، وعدم الانتصاب فيها ، برقاب وعول قد مدّتها لتشرب الماء .

وهو من بدائع التشبيه ، لأنه يستحب أن تكون أرساغ الفرس غلاظاً يابسة .

* * *

وله فى صفة القوس :

كأن مِقَطّ شراسيفه ... إلى طرف القُنب فالمَقْنَب[2]

لُطمن بترس شديد الصِّفا ... ل من خشب الجوز لم يُثقب

أخذه ابن مقبل فقال :

كأنما بين جنبيه ومَنْقبه ... من جوزه ومناط القُنب ملطوم

بترس أعجم لم تنخر مناقبه ... مما تخيَّر فى آطامها الروم

---

(١) المفايل : هو الذى يجمع التراب فيدفن فيه شيئا ، ثم يقسمه قسمين ويسأل عن الدفين فى أيهما هو ، فن أصاب كسب ومن أخطأ خسر .

(٢) الشراسيف : ما أشرف على البطن من الأضلاع ، والقنب بالضم : جراب قضيب الدابة ، والمقنب : سرة الدابة .

وللنمر بن تولَب فى إعراض المرأة :

فصدّت كأن الشمس تحت قناعها ... بدا حاجب منها وضنّت بحاجب

أخذه أبو نواس فقال :

يا قمرا للنصف من شهره ... أبدى ضياء لثمان بقين

يريد : أنه أعرض عنه بوجهه فرأى نصفه فقط ، وهو المقدر بضياء ثمان ليال .

• • •

وله أيضاً .

فإن تك أثوابى تمزّقن عن بِلىً ... فإنى كمثل السيف فى خلَق الغمد

أخذه أبو همان وزاد فى معناه فقال :

لعمرى لئن بُيِّعت فى دار غربة ... ثيابىَ إذ ضاقت علىّ المآكل

فإنى كمثل السيف يأكل غمده ... له حلية من نفسه وهو عاطل

• • •

ولَجحدر العُكلى يصف امرأة :

على قدم مكنونة اللون رخصة ... وكعب كذفرى جؤذر الرمل أدرما

شبه كعبها الأدرم — وهو المستوى — بذفرى الجؤذر — وهو العظم الشاخص خلف أذنه — .

• • •

وللشماخ :

تَخامص عن برد الوشاح إذا مشت

تخامص حافى الرجل فى الأمعز الوجى[1]

---

(١) التخامص : التجافى ، والأمعز : المكان الصلب ، والوجى : الذى رق قدمه من المشى .

وتركيب البيت : تخامص حافى الرجل الوجى فى الأمعز .

أخذه ذو الرمة فقال يصف الإبل :

تشكو الوجى وتَجافى عن سفائفها   تجافىَ البِيض عن بَرد الدماليج[١]

• • •

ولأمية بن أبي الصلت فى عبد الله بن جُدعان :

كريم لا يغيره صباح   عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك أرض مكرمة بنتها   بنو تيم وأنت لها سماء[٢]

أخذه أيمن بن خريم فى مدح بنى هاشم فقال :

أأجعلكم وأقواماً سواء   وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم   لأعينهم وأرؤسهم سماء

• • •

وللمثقِّب العبدى فى وصف الناقة :

كأن مواقع الثفِنات منها   معرَّس باكرات الوِرد جُون[٣]

• • •

ولعمرو بن شاس :

وأسبافنا آثارهن كأنها   مَشافر قَرحَى فى مباركها هدل[٤]

أخذه الكميت فقال :

تشبَّه فى الهام آثارُها   مشافر قرحى أكلن البريرا[٥]

• • •

---

(١) السفائف : الحزم من الخوص جمع سفيفة .
(٢) بنوتيم : تيم بن مرة رهط أبى بكر الصديق .
(٣) الثفنات بالكسر : جمع ثفنه ،وهى الركبة ،والجون :السود والبيض والمراد السود هنا
(٤) الهدل : المسترخية .
(٥) البرير : أول ثمر الأراك .

ولبعض شعراء الحماسة :

أناخ اللؤم وسط بنى رماح مطيتَه وأقسم لا يَريم
كذلك كل ذى سَفر إذا ما تناهى عند غايته يقيم

وفيهما يقول ابن الأثير : وهذان البيتان من أبيات المعانى المبتدعة ، وعلى آثارهما مشى الشعراء[١] .

• • •

ولأرطاة بن سُهية فى وصف الخيل :

كأن أعينها من طول ما جشِمت سيرَ الهواجر زيت فى قوارير

أخذه بعضهم فقال :

إن الركائب مخسوف نواظرها كما تضمّنت الدهنَ القوارير[٢]

• • •

وللأسعر الجعفى فى الخيل :

يخرجن من خلَل الغبار عوابسا كأصابع المقرور أقعى فاصطلى

أخذه على بن جبلة فقال :

كأن خيلك فى أثناء غمرتها أرسال قَطر تهامى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الموت سامية نشرَ الأنامل من ذى القِرّة الصالى[٣]

• • •

وللنميرى — يصف طيب المواضع التى مشى فيها الحبيب — وهو أول من فعل ذلك — :

---

(١) المثل السائر — ١٤٩ .

(٢) مخسوفة النواظر : غائرة .

(٣) القرة بالكسر : شدة البرد .

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت ... به زينب فى نسوة عطرات[1]

• • •

ولبشار بن برد :

جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

• • •

ولآخر :

ومولى كأن الشمس بينى وبينه ... إذا ما التقينا ليس ممن أعاتبه

يقول : لا أقدر على النظر إليه من بغضه ، فكأن الشمس بينى وبينه .

• • •

ولمسلم بن الوليد :

إذا ما نكحنا الحرب بالبيض والقنا ... جعلنا المنايا عند ذاك طلاقها

• • •

وله :

تنال بالرفق ما تعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتى على مهل

• • •

ولأبى نواس فى الخمر :

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا شميما

نالنى بالملام فيها إمام ... لا أرى لى خلافه مستقيما

فاصرفاها إلى سواى فإنى ... لست إلا على الحديث نديما

كبر حظى منها إذا هى دارت ... أن أراها وأن أشم النسيما

---

(١) زينب : أخت الحجاج .

فكأنى وما أزيّن منها قَعَدىّ يزيّن التحكيما

كلّ عن حمله السلاحَ إلى الحر ب فأوصى المطيقَ ألا يقيما

والشاهد فى البيتين الأخيرين ، والقعدى بفتح القاف والعين هو الذى يرى رأى القعد بالتحريك وهم الخوارج .

وعند ابن الأعرابى : أنه جمع قاعد كحارس وحرس .

وهذه الفرقة المسماة بالقَعدة ، كانت ترى الخروج وتأمر به ، ولكنها تقعد عنه .

وله :

وخدين لذّات ، معلّل صاحب يقتات منه فكاهة ومزاحا

قال ابغنى المصباح قلت له اتئد حسبى وحسبك ضوءها مصباحا

فسكبت منها فى الزجاجة شربة كانت له حتى الصباح صباحا

وله :

لا ينزل الليل حيث حلّت فدهر شُرّابها نهار

حتى لو استودِعت سرارا لم يخف فى ضوئها السرار[1]

يريد أنها من شدة ضوئها لو أودعت السرار — وهو آخر ليلة من الشهر — أى لو أودعت ما ليس شيئا لم يخف ذلك فى ضوئها ، وهو من الإغراق .

وله :

وخمّار حطَطت إليه ليلا قلائصَ قد وَنين من السِّفار[2]

فجمجم والكرى فى مقلتيه كمخمور شكا ألم الخمار

---

(١) السرار بالفتح والكسر .

(٢) القلائص : النوق الشواب .

أبن لى كيف صرت إلى حريمى ... وجفن الليـل مكتحل بقار
فقلت له ترفق بى فإنى ... رأيت الصبح من خلل الديار
فكان جوابه أن قال صبح ... ولا صبح سوى ضوء العُقار
وقام إلى العقار فسدّ فاها ... فعاد الليل مصبوغ الإزار

وله :

كأن يواقيتا رواكد حولها ... وزُرق سنانير تُدير عيونَها

وله :

ترى حيثما كانت من البيت مَشرقا ... وما لم تكن فيه من البيت مغربا
إذا عبّ فيها شاربُ القوم خلته ... يقبّل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الرومى فقال وأحسن :

ومهفهف تمت محاسنه ... حتى تجاوز مُنية النفس
وكأنه والكأس فى فه ... قمر يقبّل عارضَ الشمس[1]

فجعل الشارب قمرا ، وليس ذلك فى بيت أبى نواس .

وله :

شككتُ بُزالها والليل داج ... فسال إلىّ عَيوق الظلام[2]

شبه الخمرة فى حمرتها حينما انسكبت من الزق بعد ثقبه بالمبزل بالعيوق ، وهو نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة .

وله :

فتعزيت بصرف عُقار ... نشأت فى حجر أم الزمان

---

(١) العارض : صفحة الخد .

(٢) البزال بالضم : موضع البزل وهو الشق .

فتناساها الجديدان حتى هى أنصاف شطور الدنان(١)
فافترعنا مُزّة الطعم فيها نزق البكر ولين العوان(٢)
واحتسينا من عتيق رقيق وشديد كامن فى ليان
لم يَجُفها مِبزَل القوم حتى نجمت مثل نجوم السِّنان(٣)
أو كعرق السام تنشق عنه شُعَب مثل انفراج البنان(٤)

شبهها فى البيتين الأخيرين حين شق دنها عنها ، وانبثقت فصارت شعبا بالسنان اللامع ، وعروق الذهب إذا انفرجت انفراج الأصابع .

وله :

من شراب ألذ من نظر المعشوق م فى وجه عاشق بابتسام

وله :

وكأنها إنعام خُلّة عاشق بالبذل بعد تعسُّر ومِكاس

• • •

وله فى وصف الخمارات المسيحيات ، ويروى لابن المعتز :

وتحت زنانير شددن عقودها زنانيرُ أعكان معاقدها السُّرَر

• • •

وله فى هجاء إبليس :

دب له إبليس فاقتاده والشيخ نفاع على لعنته
عجبت من إبليس فى تيهه وعُظم ما أظهر من نخوته

---

(١) الجديدان : الليل والنهار .
(٢) الافتراع : الافتضاض ، كناية عن أنهم أول من باشريها .
(٣) جافة : بلغ جوفه .
(٤) السام : عرق الذهب .

تاه على آدم فى سجدة　　وصار قوادا لذريته

• • •

وله فى هجاء إسماعيل بن أبى سهل :

خبز إسماعيل كالوشى　　إذا ما شُقّ يُرفا
عجبا من أثر الصنعة　　فيه كيف يخفى
إن رفّاءك هذا　　أحذق الأمة كفا
فإذا ما ألصق بالنصف　　من الجَرْدق[1] نصفا
ألطف الصنعةَ حتى　　ماترى مغرزَ إشفى[2]
مثلما جاء من التنو　　ر ما غادر حرفا
وله فى الماء أيضاً　　عمل أبدع ظرفا
مزجه العذب بماء البئر　　كى يزداد ضعفا
فهو لا يسقيك منه　　مثلما يشرب صِرفا

• • •

ولأحمد بن يوسف :

عذُب الفراق لنا قبيل وداعنا　　ثم اقتبلناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها　　طل سقيط فوق ورد يانع

وقد قال أبو بكر الصولى : هو أول من أفصح عن هذا المعنى[3] .

• • •

---

(١) الجردق : الرغيف .

(٢) الإشفى : المثقب .

(٣) الأوراق — ١ — ٢٢١ .

وللعباس بن الأحنف :

أحرَم منكم بمــا أقول وقد · نال به العاشــقون من عشقوا
صرت كأنى ذُبالة نُصبت · تُضىء للنــاس ثم تحترق

• • •

ولخالد الكاتب :

بكى عاذلى من رحمتى فرحمتــه · وكم مثله من مُســعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها · دموع دموعى لا دموع جفونى

• • •

ولأبى – تمام والتشبيه ضمنى – :

لا تنكرى عطَل الكريم من الغنى · فالسيل حرب للمكان العــالى

• • •

وقوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا · إن السماء تُرَجَّى حين تحتجب

• • •

ولابن الرومى :

غدا الدهر يرمينى فتدنو سهامه · لشخصى وأخلق أن يصبن سواديا
وكان كرامى الليل يرمى ولا يَرى · فلما أضاء الشيب شخصى رمانيا

ويقول المرتضى فى البيت الأخير : إنه أبدع فيه وأغرب ، وما علمت أنه سبق إلى معناه لأنه جعل الشباب كالليل الساتر على الإنسان ، الحاجز بينه وبين من أراد رميه لظلمته ، وجعل الشيب مبديا مقاتله هاديا إلى إصابته لضوئه وبياضه ، وهذا فى نهاية الحسن .

وأراد بقوله رمانى : أصابنى[1] .

• • •

وله :

عينى لعينـــك حين تنظر مقتل   لكن لحظك سهم حتف مرسل
ومن العجائب أن معنى واحداً   هو منك سهم وهو منى مقتل

• • •

وله فى العتاب :

توددت حتى لم أدع متوددا   وأفنيت أقــلامى عتابا مرددا
كأنىَ استدعى بك ابن حَنِيّة   إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا[2]

• • •

وله :

كل الخــلال التى فيكم محاسنكم   تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شـــجر الأترج طاب معاً   حملا ونوراً وطاب الأصل والورق[3]

وشجر الأترج يضرب مثلا لما طاب أصله وفرعه وكل شىء فيه ، وهو أول من شبه به .

• • •

وللبحترى :

---

(١) أمالى المرتضى ١ — ١٧٣ .

(٢) ابن حنية : كناية عن القوس .

(٣) رواية الديوان : طاب العود .

يمشون فى زَرَد كأن متونها ... فى كل معركة متون نِهاء(١)
بيض تسيل على الكماة نصولها ... سيل السراب بقفرة بيداء
وإذا الأسنة خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكب فى ماء

والشاهد فى البيت الأخير .

• • •

ولعلى بن جبَلة :

تكفَّل ساكنَ الدنيا حُميد ... فقد أضحت له الدنيا عِيالا
كأن أباه آدم كان أوصى ... إليه أن يعولهم فعالا

ولابن المعتز فى طول الليل :

أقول وقد طال ليل الهموم ... وقاسيت حزن فؤاد سقيم
عسى الشمس قد نُسخت كوكبا ... وقد طلعت فى عِداد النجوم

• • •

وله :

إذا الهلال فارقته ليلته ... بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الأسود شابت هامته

* * *

وله :

دمعتى! تعلم وجدى ... واشتياقى فسليها
لىَ من ذكراك مرآ ... ة أرى وجهك فيها

* * *

(١) نهاء بالكسر : جمع نهى بالكسر! والفتح وهو ، الغدير أوشبهه .

وله فى وصف الخمر :

علّ عقارا صفراء تحسبها ... شيبت بمسك فى الدن مفتوت
للماء فيها كتابة عجب ... كمثل نقش فى فص ياقوت

* * *

ولابن هانىء :

وكأن صفحة خده وعذاره ... تفاحة رميت لتقتل عقربا[1]

* * *

وللمتنبى :

كريم لفظت الناس لما لقيته ... كأنهم ما جفّ من زاد قادم[2]
وكاد سرورى لا يفى بندامتى ... على تركه فى عمرى المتقادم

* * *

وله :

أجزنى إذ أنشدت شعراً فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مردَّدا
ودع كل صوت غير صوتى فإننى ... أنا الطائر المحكىّ والآخر الصدى

* * *

وله :

كأن الهام فى الهيجا عيون ... وقد طُبعت سيوفك من رقاد

* * *

وله :

ولو استطعت إذا اغتدت رُوّادهم ... لمنعت كل سحابة أن تقطُرا

---

(١) يريد بالعقرب : شعر الصدغ الملتوى.
(٢) هذه رواية اليتيمة وفى الديوان : بلقته .

فإذا السحاب أخو غراب فراقهم   جعل الصياح بينهم أن يُمطرا

جعل السحاب أخا غراب البين فى التفريق ، لأن صياح المطر : أعنى سقوط الغيث منه ، كان سببا فى ارتحالهم للنجعة ، كما أن صياح الغراب يكون سبباً للفراق :

• • •

وله :

فقر الجهول بلا لب إلى أدب   فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

• • •

وله :

كأن العيس كانت فوق جفنى   مُناخات فلما ثُرن سالا[1]

يريد : كنت لا أبكى قبل فراقهم ، فكأن مطاياهم كانت مناخة فوق جفنى تحبس دمعه عن الانسكاب ، فلما رحلوا سال دمعى ، فكأنها نهضت من فوق جفنى .

والمعنى فى غاية الدقة ، وقد حكى : أن البيت ترجم لملك الروم فقال : ما سمعت بأكذب من هذا الشاعر !

أرأيت من ينيخ الجمل على عينيه ولا يهلكه[2] !

• • •

وله :

برغم شبيب فارق السيفُ كفه   وكانا على العِلات[3] يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه   رفيقك قيسىّ وأنت يمانى

---

(١) العيس : الكرام من الإبل وتكون بيضاء تخالطها شقرة ، ويروى : العير .
(٢) المثل السائر — ١٢٩ .
(٣) العلات بالكسر . جميع الأحوال

يريد شبيباً العقيلى وقد خرج على كافور الإخشيدى بدمشق فقتله .

والمعنى : أن رقاب الناس لكثرة قطع شبيب إياها ، أغرت بينه وبين سيفه لتفرق بينهما حتى تستريح من شره ، فقالت لسيفه : صاحبك من قيس وأنت منسوب إلى اليمن فكيف تأتلفان !

والتنافر بين قيس واليمن معروف ، وبلغ أشده فى زمن الأمويين بحكم سياسة فرق تسد .

• • •

وله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

• • •

وله فى وصف الحمى — وقد ذكر أهم أعراضها المعروفة فى الطب — :

وزائرتى كأن بها حياء ... فليس تزور إلا فى الظلام[1]

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى[2]

يضيق الجلد عن نفسى وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

كأن الصبح يطردها فتجرى ... مدامعها بأربعة سِجام[3]

أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام

ويصدقُ وعدها والصدق شر ... إذا ألقاك فى الكُرَب العظام

• • •

---

(١) لأن حرارة الحمى ترتفع بالليل خاصة .

(٢) المطارف : الأردية من الخز ، والحشايا : الفراش المحشو .

(٣) يريد بالأربعة السجام : مجارى الدموع من الموقين واللحاظين ، والدمع عادة يجرى من الموقين — وهما مما يلى الأنف — فإذا كثر جرى من اللحاظين — وهما مما يلى الصدغ — .

وله – من قصيدة يمدح بها عضد الدولة ويدعو لولديه – :

فعاشا عيشة القمرين يُحيا	بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا مَلَكا سوى ملك الأعادى	ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه	له ياءى حروف أُنَيْسيان[1]

يدعو لهما ألا يملكا غير ملك الأعداء، ولا يرثا إلا من يقتلانه منهم. وهو دعاء ضمنى لأبيهما بطول العمر.

ثم يدعو لهما أيضا بأنهما إذا فاخرا عدوا بكثرة العدد، أن يكون ابنا ذلك العدو الذى يقابلهما عنده، بمنزلة ياءى التصغير فى لفظ «أنيسيان» تصغير إنسان على الشذوذ، فإن هذه الزيادة زيادة فى الاسم فقط، ونقص فى المسمى لأنه تصغير تحقير ا فهى زيادة صائرة إلى الخسة والضعف والمهانة.

والمعنى دقيق جميل، ولا عيب فيه إلا أن نسج البيت معقد، خشن السبك، خال من الرونق الشعرى.

* * *

وللفقيه بن قالوص فى المقص :

إعطاء مثلى للمِقص نقيصة	وأرى إعارتها أجلّ العار
إن المقص حكت بصورة شكلها	«لا» والجواد بلا : لئيم نجار

وقال بعض الشعراء فى ذمها :

إن شأن المقص قطع وصال	فلهذا يضيع بين الجلوس
وترى الإبرة التى توصل القطع	بعز مغروسة فى الرءوس

يشير إلى عادة الخياطين برشق الإبرة فى رءوسهم، كما يضع الكتاب القلم على آذانهم.

(١) الضمير فى له العدو، وياءى : خبر كان.

وقد أخذه ابن يعقوب فقال :

فاخرت إبرة مقصا فقالت   لِيَ فضل عليك باد مسلم
شأنك القطع يا مقص وشأنى   وصل قطع شتان إن كنت تعلم

ويقول ابن بسام : وقد نهى بعض الظرفاء من الأدباء عن إهداء المقص واستهدائها .

ثم قال فى البيت المتقدم : وهذا من الاختراع والتشبيه المطبوع[1] .

• • •

وللأخيطل الأهوازى فى الشقائق :

هذى الشقائق قد أبصرت حمرتها   مستشرفات على قضبانها الزُّلل
كأنها دمعة قد مسّحت كُحُلا   جالت به وقفة فى وجنتَىْ خجِل

إلا أنه كما يقول العسكرى : أورده فى أهجن معرض ، وفى أشد مايكون من التكلف ، وأتى بالمحال لأن الوقفة لاتجول[2] .

• • •

وللصاحب بن عباد فى خط العارض « العذار » :

قلت وقد قيل بدا شـعره   بمثل ذاك الشعر لا يشعرُ
هل زغَب الحسن له ضائر   ذا القمر التّم به يُقمر[3]

• • •

ولابن عبد ربه ــ وقد وصف الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم عليه ، ومعنى بديع لا نظير له ــ :

---

(١) الذخيرة — ٢ — ٢٨٥ .

(٢) ديوان المعانى — ٢ — ٢٥ .

(٣) الزغب : أول مايبدو من الشعر ، وأقمر القمر : صار بدرا .

وجيش كظهر اليم تنفحه الصَّبا يعُبُّ عُبابا من قنا وقنابل[١]
فتنزل أولاه وليس بنازل وترحل أخراه وليس براحل
ومعترك ضَنك تعاطت كماته كئوس دماء من كلى ومفاصل
يديرونها راحا من الراح بينهم ببيض رقاق أو بسمر ذوابل
وتُسمعهم أمُّ المنية وسطها غناء صليل البيض تحت المناصل[٢]

* * *

ولكُشاجم :

قلت وقد أبصرتها حاسرا عن ساقها فاضلُ سربالها
لو لم يكن من بَرَد ساقها لاحترقت من نار خلخالها[٣]

* * *

وللعسكرى - والتشبيه ضمنى - :

لهيب قلبي أفاض الدمع من بصرى والعود يقطر ماء حين يحترق

* * *

وله يهجو :

وقفت لديكم للسلام عليكم وقوفى على أطلال سلمى وعاتكة
يروعك تسليم العُفاة كأنه بوادر طعن فى الضلوع مُواشكة
وما فيكم حرٌّ يكرِّم ضيفه ولكن إذا ماشاء أكرم نائله
وإن كنتم ناسا - وما أنتم به - فإن القرود والكلاب ملائكة

* * *

(١) القنابل : الطائفة من الخيل .
(٢) أم المنية : كنية الحرب .
(٣) لأن خلخالها من الذهب فله أشعة كأشعة النار .

ولأبى العلاء :

وهواك عنـــدى كالغناء لأنه حسن لدىّ ثقيـــله وخفيفه

وأبو العلاء أكثر الشعراء ابتكارا للمعانى ، بسلوكه طرائق شتى لم يسلكوها فى الشعر ، أمدته بفيض زاخر من الأفكار الطريفة ، ولم تقف به عند مناهج المتقدمين فى الشعر التقليدى .

* * *

ولابن حمديس الصقلى فى هلال آخر الشهر :

كأنما أدهم الظلماء حين نجـــا من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وقد وصفه ابن الأثير : بأنه أتى فيه بما لم يأت غيره ، وأنه من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى[١] .

* * *

ولأبى بكر الوراق :

بدر له إشراق شمس عـــلى غصن سبى قلبى بنوعـــين

يكاد من لـــين ومن رقـــة فى خصره ينقـــد نصفين

إدباره ينسيك إقبـــاله كأنما يمشى بوجهـــين

* * *

وله فى الخمر والكأس :

قم ياغلامُ فهاتها فى كأسها كالجُلّنارة فى جنى نِسرين[٢]

---

(١) المثل السائر — ١٢٥ .

(٢) النسرين بالكسر : نور ابيض وردى يشبه شجره شجر الورد ، وسماه بعض الناس وردا صينيا .

أو ما رأيت هلال شهرك قد بدا   فى الأفق مثل شعيرة السكين(١)

ولبعض المغاربة فيها أيضا :

ثقلت زجاجات أتتنا فُرَّغا   حتى إذا مُلئت بصرف الراح

خفَّت فكادت أن تطير بما حوت   وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وهذا معنى مبتدع يقول فيه ابن الأثير : إنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ، ويروق كما راقت لطفا ، ويفوح كما فاحت نشرا(٢) .

وللأَرَّجانى :

رنا لى وقد ساويته فى نحوله   خيالىَ لمّا لم يكن لىَ راحم

فدلّس بى حتى طرقت مكانه   وأوهمت إلفى أنه بى حالم

وبتنا ولم يشعر بنا الناس ليلة   أنا ساهر فى جفنه وهو نائم

* * *

ولابن سهل الأندلسى :

كأن القلب والسلوان ذهن   يحوم عليه معنى مستحيل

* * *

وللحموى :

وعلى ظهور الخيل ماتو خيفة   فكأن هاتيك السروج مقابر

* * *

وله

---

(١) شعيرة السكين : هنة تصاغ من فضة أوحديد على شكل الشعيرة ، تكون مساكا لنصاب النصل .

(٢) المثل السائر — ١٣٠ .

والغصن يحكى النون فى ميلانه وخياله فى الماء كالتنوين

* * *

وللشاعر المعروف بالحافظ فى البهار :

عيون تبر كأنما سرقت سوادَ أحداقها من الغسَق
فإن دجا ليلُها بظلمتـــه ضممن من خوفها على السَّرَق[1]

* * *

ولأبى الحسن الأنبارى :

كأن الشموع وقد أظهرت من النار فى كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين تَضرَّع تطلب منك الأمانا

ومثله ما حكاه ابن خلكان : من أن المعز بن باديس كان يوما جالساً فى مجلسه ، وعنده جماعة من الأدباء وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم أن يعملوا فيها شيئا .

فقال ابن رشيق :

أترجة سَبطة الأطراف ناعمة تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفاً لخالقهــا تدعو بطول بقاء لابن باديس

فاستحسن منه ذلك ، وفضله على من حضر من الجماعة .

* * *

ولابن قلاقس :

زد رفعة إن قيـــل أماق م وانخفض إن قيل أثرى
كالغصن يدنو ما اكتسى ثمراً وينأى ما تعرى

* * *

(١) السرق بفتح الراء شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة .

ولشاعر :

ألا يابغلة الشّطرنج م في القيمة والقامه[١]

* * *

ولآخر :

ولى سَنة لم أدر ما سِنة الكرى   كأن جفونى مَسمَع والكرى عذل

* * *

ولآخر يصف قدرته على اختراق الحجاب الصعب :

كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحاً   وليس يدخله إلا إذا انطبقا

* * *

ولبعض المغاربة :

* * *

غدرتْ به زرق الأسنة بعدما   قد كن طوع يمينه وشماله

فليحذر البـدرُ المنير نجومه   إذ بان غـدر مثالها بمثاله

* * *

ولشوقى :

ومصر كالكرم ذى الإحسان فاكهة   لحاضرين وأكوابا لبادينـا

* * *

وله فى شعر شكسبير :

من كل بيت كآى الله مسكنُـه   حقيقة من خيال الشعر غراء

---

(١) بغلة الشطرنج : يشبه بها القصير الدنىء الساقط .

وكل معنى كعيسى فى محاسنه · جاءت به من بنات الشعر عذراء

* * *

وللرصافى[1] — يصف قصر البحر فى بيروت : —

كأن الموج فى الدأما رجال · وهذا القصر بينهم خطيب[2]

تخاطبهم مبانيه فيعلو · من الأمواج تصفيق رحيب

* * *

وله فى وصف الشمس والشفق :

يحكى دم المطلول مازَج أدمعا · همَلت بها عين اليتيم همولا

رقّت أعاليه وأسفله الذى · فى الأفق أشبه عُصفرا محلولا[3]

كالخود ظلّت يوم ودّع إلفُها · ترنو وترفع خلفه المنديلا

* * *

وله يشكو :

كان نجم السها أديب · فى أرض بغداد ذو ثَواء

كأنما أنجم الثريا · فى شكلها الباهر الضياء

قُفّاز كف به فصوص · من حجر الماس ذى الصفاء

* * *

وله فى رثاء أستاذه محمود شكرى الألوسى :

أما العراق فأمسى الرافدان به · سطرين للدمع فى خديه قد سالا[4]

---

(١) كتاب معروف الرصافى — ١٦٢ .

(٢) الدأماء : البحر .

(٣) العصفر بالضم : زهر القرطم .

(٤) الرافدان : دجلة والفرات .

وللشاعر القروى(١) رشيد سليم خورى — يصف الشعرة البيضاء — :

كأن الشعور السود أعصر ظالمة بدا بينها عصر أغرّ مجيد

كأن سواد الفوْد حيرة جاهل تصدى لها رأى أجلّ سديد

تجلّت على عرش الشباب كسيد حواليه من سود الشعور عبيد

وقوله :

يريكم إبائى أن « روتشلد » والدى وما ملكت كفّاى من ماله شروى

وأبدى وفائى قبل صنع جميلكم كأن وفائى فى محبتكم رشوى

وقوله — يصف المقلة والنهد — :

فكأن مقلتها وبارز نهدها متواضع يرنو إلى متكبر

وقوله :

همٌّ يزول بمثله والشوك ينزع بالإبر

وقوله :

وكأن النجوم شِعرٌ بديع لا غموض فيه ولا إبهام

وقوله :

وأعود بين تلفّت وتطلّع والليل جسر بين أمسى والغد

هذا ويقتضينا الإنصاف أن نصرح بأن شعراء المهجر فى الدنيا الجديدة من سوريين ولبنانيين ، تكثر فى أشعارهم صور البيان المبتكرة على اختلاف ألوانها ، وهذا شىء طبيعى لأن التقلب فى البلاد والضرب فى زحمة الناس ، يفتح للشاعر آفاقا جديدة ، ويتيح له رؤية مناظر جديدة ، والوقوف على عادات وأخلاق جديدة ؛ ويخرجه من حالة الركود والجمود التى يعيش فيها

---

(١) من ديوان القروى المطبوع بالبرازيل .

إلى حياة فيها خصب وقوة وقلق وتوثب وانبعاث ، هذا إلى ما تذكيه الغربة فى نفسه من حنين لايفتر إلى وطنه الأصلى ، وشوق عارم إلى رؤية الأهل والأصدقاء ، ومآلف الأحباب ، ومعاهد الطفولة ، ومراتع الصبوة والغرام!

وكما يكون الاختراع فى الشعر يكون فى النثر ، فمن ذلك : أن عبد الملك ابن مروان ، بنى بابا من أبواب المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وبنى الحجاج بابا إلى جانبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك ، فتطير لذلك وشقّ عليه!

فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه يقول : بلغنى كذا وكذا ، فليهن أميرَ المؤمنين أن الله تقبل منه! وما مثله ومثلى إلا كابنىْ آدم إذ قرّبا قربانا فتُقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر[1].

فلما وقف عبد الملك على كتابه سُرِّىَ عنه.

وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم[2].

هذه نبذ من ابتكار الشعراء فى عصور مختلفة استخرجناها من مظانها ، وأكثرها مما وقع عليه إجماع النقاد.

ويجب أن يعرف أن الابتكار ليس حتما على الشاعر وإن حسُن وقوعه منه ؛ لأن وظيفة الشاعر التى خلق لها أن يجسّد آلامنا وآمالنا ، ويترجم أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا وكل مايعتلج فى صدورنا ، ويختلج فى نفوسنا مما نحسّه فى داخلنا ، ونعجز عن الإعراب عنه ؛ لقصر أداتنا وضيق وعائنا ، فالشاعر مرآة صقيلة لعصره ، وبوق أمين لمجتمعه ، فحسبه أن ينقل صورة العصر ، ويتحدث بصوت المجتمع ، وهذا شىء ليس بالقليل.

---

(١) يشير إلى قصة هابيل وقابيل المشهورة.

(٢) المثل السائر — ١٢٧.

والشاعر الكبير يشيد المعابد الضخمة ، ويبنى الهياكل الرائعة والجواسق الجميلة ، ولكن ليس عليه استحضار الأحجار وجلب الصخور ، ونحتها وصقلها وإعدادها للبناء ، ولا بأس أن تستورد له الأعمدة وسائر ما يلزمه فى إقامة أبنيته الفنية ، وتشييد صروحه الخالدة .

والشاعر الحق ينتفع من مجهودات العالِم ، ويستثمر الأفكار التى يصل إليها الفيلسوف عن طريق التجريد ، ويبعث فيها الموسيقية الساحرة، ويسبغ عليها الجمال الفنى الرائع ، وليس على الشاعر ابتكار أفكار العصر وخلقها وإنما هو من عمل الفيلسوف والعالم ، وعلى الشاعر التغنى بتلك الأفكار وأن يَشعر ويُشعر بها[١] .

ولا شك أن الاختراع فى صور البيان يختلف باختلاف العصور وحظها من انتشار الثقافة وتقـدم المعارف ، ورقى العقول والأفكار ، واستبحار الحضارة والمدنية .

وقد اعترف ابن رشيق : بأن عصره — وهو القرن الخامس الهجرى — كان قليل النصيب من الاختراع ، فنسمعه يقول : وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتولّد ، غير أن ذلك قليل فى هذا الوقت[٢] .

وقد تعصب ابن أفلح البغدادى للمحدثين فذكر فى مقدمته : أن المعانى المبتدعة ليس للعرب منها شىء ، وإنما اختص بها المحدثون .

ثم ذكر معانى المحدثين وقال : هذا المعنى لفلان وهو غريب ، وهذا القول لفلان وهو غريب .

وقد رد عليه ابن الأثير : بأن تلك الأقوال التى خص قائليها بأنهم ابتدعوها قد سُبقوا إليها ، وأنه فيما ذهب إليه إما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يقف على أقوال الناظمين والناثرين ، وطريقة

(١) على هامش الأدب والنقد — ١٤٧ .

(٢) العمدة — ١ — ١٧٦ .

تحريها حتى يعرف ماقاله المتقدم مما قاله المتأخر .

ثم يقول : وأما قوله : إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين ، فياليت شعرى مَن السابق إلى المعانى ؛ مَن تقدم زمانه أم من تأخر زمانه؟

ثم ساق أمثالا للعرب نسج على منوالها المحدثون ، واستدل على فساد ماذهب إليه ابن أفلح : بأن أول من بكى الديار فى شعره ابن حِزام باعتراف امرئ القيس ، وأن لامرئ القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق إليها ولا قيلت من قبله .

ثم يقول : ولو قال ابن أفلح : إن المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى وألطف مأخذاً ، وأدق نظراً لكان صوابا ، لأن المحدثين عَظُم الملك الإسلامى فى زمانهم ، ورأوا مالم يره المتقدمون[1] .

ولا شك أن ابن أفلح قد تطرّف جداً فى رأيه ، ولا أدرى كيف يصدر هذا من حصيف مثله ، وكيف يعقل أن نجرد جيلا كاملا من الناس من الابتكار ولو فى أدنى درجاته ! ولا سيما إذا كان هذا الجيل قد أخذنا عنه لغته بجميع خصائصها .

---

(١) المثل السائر — ١٣٩ .

الفصل الخامس

التشبيهات القبيحة

يعرض القبح للتشبيه كما يعرض لغيره من صور البيان ، فتشيل درجته في ميزان البلاغة ، ويوصف قدره بالضعة والسَّفال .

ومما يلاحظ أن التشبيه بين ألوان البلاغة ممعن في الترف ، كثير الأناقة شديد الحساسية ، رقيق المزاج ، ومن أجل ذلك يظهر فيه العيب الطفيف وتبين عليه الهجنة الخفية .

وأريد بالقبح هنا مايعرض للتشبيه من مثالب ، لاتصل إلى درجة الخطأ الذى أفردنا له باباً خاصاً .

وهذا القبح أنواع كثيرة ، يرجع بعضها إلى الألفاظ المفردة ، وبعضها إلى الصياغة والسبك ، وبعضها إلى المعنى ، وبعضها إلى الخيال ، إلى غير ذلك مما يضع من شأن الكلام ،ويبعده عن الوصف بالبلاغة .

فن ذلك قول امرئ القيس :

وسِنّ كسُنَّيق سناء وسُنَّما ذعرت بِمدلاج الهجير نهوض

نقل الباقلانى : أن الأصمعى قال : لا أدرى ما السنّ ولا السنيق ولا السنم .

وقال بعضهم : السنيق : أكمة .

وقال الخفاجى : لم يعرفه الأصمعى ولا أبو عمرو وقال : هو بيت مسجدى : يريد من عمل أهل المسجد .

وقال غيرهما : سنيق : جبل ، وسنم : هى البقرة ، فأما السن فهو الثور[١] .

* * *

وقوله :

فظل العـــذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهدّاب الدّمقس المفتّل

عابه الباقلانى : بأنه عرّف اللحم ونكّر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها .

وذكر تشبيه أحدهما بشىء واقع ، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة .

وهذا نقص فى الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه .

وفيه شىء آخر ، وهو أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة وهذا قد يعاب .

وقد يقال : إن العرب تفخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدمقس ، فشىء يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه ، وإنما أراد « المفتل » للقافية وهذا مفيد .

ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعدّ أهل الصنعة ذلك من البديع ورأوه قريباً .

وفيه شىء آخر ، وهو أن تبجّحه بما أطعم للأحباب مذموم ، وإن سوغ التبجح بما أطعم للأضياف ، إلا أن يورد الكلام مورد المجون ، وعلى طريقة أبى نواس فى المزاح والمداعبة[٢] .

* * *

(١) أسرار الفصاحة — ٦٦ .

(٢) اعجاز القرآن — ١٣٥ · ١٧٠ .

وقول بشر بن أبي حازم :

وجر الرامسات بهـــا ذيولا كأن شمالها بعـــد الدَّبور[١]

رماد بين أظآر ثـــلاث كما وُشم النواشر بالنَّئور[٢]

شبه ريح الشمال والغرب بالرماد ، والبعد والابهام فيه لا يخفى .

* * *

وقول عامر بن معشر بن أسحم — يصف أسيراً أسروه — :

فظل يُخالس المذَقاتِ فينا يُقاد كأنه جمـــل ربيق

وقد عابه الأصمعى وغيره .

وذلك أنه وصف أسيرهم بأنه جائع يخالس القليل المذوق من اللبن ، وإنما ذلك من الجهد[٣] .

* * *

وقول علقمة بن عبدة :

كأنهمُ صابت عليهم سحابة صواعقهـــا لطيرهن دبيب

* * *

وقوله :

يحملن أترجَّة نضح العبير بها كأن تَطيابها فى الأنف مشموم

وقد وصف المرزبانى هذه الأبيات بأنها مستكرهة الألفاظ ، قلقة القوافى ، رديئة النسج ، فليست تسلم من عيب يلحقها فى حشوها أو قوافيها أو ألفاظها أو معانيها[٤] .

---

(١) الرامسات : الرياح تحثو التراب ، والدبور : الريح تهب من الغرب .

(٢) الأظآر : يريد بهـــا الأثافى ، والنواشر : عروق وعصب بباطن الذراع ، النئور كصبور : النيلنج .

(٣) العمدة — ٢ — ١١٧ .

(٤) الموشح — ٩٠ — ٩١ .

وقول زهير — يصف صقراً يطارد قطاة — :

خزلّ عنها ووافى رأس مرقبة

كنصِب العِتر دمّى رأسه النُسك(١)

• • •

وقول خُفاف بن نُدبة :

أبقى لها التّعداء من عتَداتها ومتونها كخيوطة الكتّان(٢)

يريد أن قوائمها دقت حتى عادت كخيوط الكتان .

وأراد ضلوعها فقال : متونها .

• • •

وقول أوس بن حجَر فى الناقة :

كأن هراً جنيبا عند غُرضتها والتف ديك برجليها وخنزير(٣)

يقول : كأن هراً مقوداً عند صفحة خدها يخدشها فتغذ فى السير . وكأن ديكا وخنزيراً التفا برجليها ، فهى من خوفها تمعن فى الإرقال .

وفى معنى الشطر الأول يقول عنترة :

هر جنيب كلما عطفت له غضبى اتقاها باليدين وبالفم

يصفها بأنها تتنحّى وتتباعد غضبى ، خوف سنور مجنوب إليها ، فكلما عطفت إليه غضبى لتعضه ، استقبلها بالخدش بيده والعض بفمه .

• • •

---

(١) زل عنها : أى سقط الصقر عن القطاة ، والمرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب . والنصب كتبر : أصل الشىء ، والعتر بالكسر ، الصنم وكل ما ذبح ، وشاة كانوا يذبحونها لآلهتهم كالعتيرة ، والنسك بالضم : الدم .

(٢) التعداء : العدو ، والتعدات : القوائم .

(٣) الغرضة بالضم : حزام الرحل ، والجنيب : المقود .

وقول لبيد :

ما عاتب الحرّ الكريم كأصله   والمرء يُصلحه الجليس الصالح

وقد قالوا فيه : إنه جيد المعنى والسبك ، ولكنه قليل الرونق والماء .

• • •

وقوله يصف الدرع :

فخمة ذفراء تُرتَى بالعُـــرا   قَرْدُمانيّا وتَرْكا كالبصل[١]

وهذا البيت معقد ثقيل ؛ لنقل بعض كلماته عن الفارسية[٢] .

• • •

وقول النابغة :

تخدِى بهم أُدم كأن رحالها   عَلَق أُريق على متون صوار[٣]

شبه رحال الإبل فى حمرتها بلون دم مراق على ظهور بقر الوحش .

وقد عده أبو الحسن بن طَباطَبا من التشبيهات البديعة التى لم يلطف أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم فى العبارة مخرجا سلسا[٤] .

• • •

وقوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجوه العُوّد

---

(١) ترتى : تشد إلى فوق لتنشمر عن لابسها ، وقردمانيا : سلاح معد كانت الأكاسرة تدخره فى خزائنها ، وأصله بالفارسية « كردماند » ، ومعناه : عمل وبقى وهى الدروع الغليظة ، والترك : البيض من الحديد جمع تركة ، والبصل يشبه به الترك المحدد الوسط .

(٢) الموشح — ٨٧ — المعجم فى اللغة الفارسية — ٩٨ — لسان العرب مادة نقم ورتى :

(٣) الأدمة فى الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح ، والعلق محركة : الدم ، والصوار بالضم والكسر : القطيع من البقر الوحشى .

(٤) الموشح — ٨٦ .

وقد عابه الأصمعى بين يدى الرشيد[١] ، على أنه تشبيه لا يلحق ولا يشق غبار صاحبه .

ولم يجد المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوب به ، وفضل عليه قول عدىّ بن الرّقاع :

وكأنها وسط النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سِنة وليس بنائم

وقد عدّه أبو عمرو أحسن ما قيل فى العيون[٢] .

ولست مع الأصمعى فى ذلك ؛ لأن نظرات السقيم إلى وجوه عائديه الأصحاء مملوءة بالذل والحسرة والتوسل والانكسار والسهوم ، فشبه بها نظرات العيون السقيمة من غير سقم ، بما كلت به من سحر وفتون وذبول !

وقد جاء وصفها بأكثر من ذلك فى قول العكوّك :

وتخالها وسنَى إذا نظرت أو مدنَفا لما يُفق بعد

بفتور عين ما بها رمد وبها تُداوى الأعين الرُّمد

وقول آخر :

يسقيكها خنِث الألفاظ ذو هيَف كأن أجفانه أفرقن من داء[٣]

فقد صور الأجفان لشدة ذبولها وفترتها ، كأنها قريبة عهد بالشفاء من الرمد .

وقد ذكر القالى[٤] : أن من أحسن ما قيل فى فتور الطرف قول أبى نواس :

---

(١) العمدة — ١ — ٢٠٥ .

(٢) ديوان المعانى — ١ — ٢٣٥ .

(٣) أفرق : برىء وأفاق .

(٤) الأمالى — ١ — ١٣١

ضعيفة كرِّ الطرف تحسب أنها   قريبة عهــد بالإفاقة من سقم

والحق أن تشبيه النابغة لا يعاب ، فإن قصده أن يبالغ فى تصوير ما تضمنت جفونها من الذبول والانكسار والفتور ، وهو من سمات العيون الفتانة الساحرة للألباب

وقد جرى الشعراء على ذلك قديماً وحديثاً ، وما من شك فى أن هذه الفترة تتجلى فى نظر السقيم إلى وجوه عواده ، لأن نظرته إذ ذاك يشوبها التأسف والتحسّر على ما هو فيه ، حين يزن حاله بحال الأصحاء الذين يحفّون بفراشه ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، فكأنه يقول : إن فتور عينيها بلغ الغاية التى لا غاية وراءها !

وقد خالف ابن قتيبة الأصمعى فيما ذهب إليه ؛ وعدّ بيت النابغة فيما يستجاد له .

وفسّر البيت : بأنها نظرت إليك ولم تقدر أن تكلمك ، كما ينظر المريض إلى وجوه عوّاده ، ولا يقدر أن يكلمهم[١] .

ومن الغريب أن الأصمعى كان يروى وينشد قول بشر بن عبد الرحمن الأنصارى :

وقصــيرة الأيام ودّ جليسها   لو باع مجلسها بفقــد حميم

من مُحذيات أخى الهوى غصص الجوى

بدلال غانيــة ومقلة ريم[٢]

صــفراء من بقر الجِواء كأنما   خفَرُ الحياء بها رُداعُ سقيم[٣]

فياليت شعرى لم أعجب برداع السقيم — وهو تغير لونه من المرض —

---

(١) الشعر والشعراء — ١٨ .

(٢) محذيات : معطيات .

(٣) الرداع كغراب : أثر الطيب والتغير من المرض .

فشبه به لون هذه المحبوبة ، مع أن نظر السقيم أقرب إلى القبول من لون السقيم !

* * *

وقوله للنعمان :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت　　إلى حمام سراع وارد الثَّمَدِ[1]

عابوه : بأنه أمره أن يحكم كحكم امرأة .

ولست أرى ما رأوه عيبا ، فلا يصح أن يعاب حكم ؛ لأن صاحبته امرأة لأن العبرة بالصواب ، وقد تصيب امرأة ويخطىء رجل كما قال عمر .

ثم إن المرأة هنا زرقاء اليمامة التى عرفت بحدة البصر ، وصار اسمها علما على النظر النافذ الذى يرى البعيد قريبا ، فلا يخطىء صاحبه فى الحكم حتى قيل :

إذا قالت حذام فصدقوها　　فإن القول ما قالت حذام

وحذام هى : زرقاء اليمامة

فهى ليست ككل امرأة بل امرأة ممتازة ، وفى مثلها يقول المتنبى :

ولو كان النساء كمن فقدنا　　لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب　　ولا التذكير فخر للهلال

* * *

وقوله يضرع للنعمان :

خطاطيف حُجن فى حبال متينة　　تمد بها أيد إليك نوازع[2]

يقول قدامة فى معناه : ضاقت علىَّ الدنيا فكأنى من ضيقها فى بئر ،

---

(١) فى الحيوان للجاحظ ، وفى الصناعتين شراع بالشين : أى مجتمعة داخلة فى الماء ، والثمد بإسكان الميم ويحرك الماء القليل .

(٢) الخطاطيف : جمع خطاف بالضم ، وهو حديدة معوجة يخطف بها الشىء ، وحجن : معوجة ، ونوازع : منجذبة .

فإذا أردتنى وأمرت بسوق إليك ، فأنا أمد إليك بالخطاطيف لا أجد غيرك[1] .

وقال أبو محمد : رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه ؛ لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيف عُقف يمد بها ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف .

ثم يقول : وعلى أنى أيضاً لست أرى المعنى جيداً[2] .

وذكر ابن عبد ربه : أنه شبه نفسه بالدلو ، وشبه النعمان بخطاطيف حجن : يريد خطاطيف معوجة تمد بها الدلو[3] .

ويقول الدكتور مندور : يحسّ وقوعه المحتوم فى يد الملك الذى أوعده ، وقد نظر حوله فرأى الدلو معلقة بالخطاطيف الحجن لاتستطيع منها إفلاتا ، وما على الماتح إلا أن يجذبها لتأتيه ، فخفت قريحته إلى تشبيه موقفه من النعمان بهذه الدلو[4] .

ولا شك فى تخالف المعنى الذى أراده قدامة وأراده غيره .

* * *

وقول أعرابى يصف رأس بعيره[5] .

ترى شئون رأسه العواردا   مضبورة إلى شبا حدائدا

ضبرَ براطيلَ إلى جلامدا[6]

وفى ذلك يقول أحمد بن عبيد الله بن عمار : قد سلك قوم من الأعراب

---

(١) نقد الشعر — ٨٦ .
(٢) الشعر والشعراء — ٩ .
(٣) العقد الفريد — ٣ — ١٣١ ؛
(٤) النقد المنهجى — ٦٧
(٥) نسبه القاموس إلى حجل مولى بنى فزارة .
(٦) شئون الرأس : موصل قبائلها والعوارد . المنتبذة أو الغليظة ، والمضبورة : المجموعة ، والبراطيل هنا : حجارة أو حدائد طوال صلاب خلقة تنقر بها الرحى .

الزلل والخطأ فى أشعارهم مع رقة أذهانهم ، وصحة قرائحهم ، واقتدارهم على غريب الكلام .

ثم قال مشيراً إلى الشعر السابق : وما رأيت عالما إلا وهو يذم هذا القول ، ويستقبح هذا النسج[١] .

• • •

وقول الشماخ :

تَخامص عن بَرْد الوشاح إذا مشت

تخامصَ حافى الخيل فى الأمعز الوجى[٢]

يريد : تتخامص إذا مشت عن برد الوشاح ، تخامص حافى الخيل الوجى فى الأمعز .

فقدم وأخر .

• • •

وقول أبى حية النميرى فى رسوم الدار :

كما خط الكتاب بكف يوما يهودى يقارب أو يزيل

أراد : كما خط الكتاب بكف يهودى يقارب أو يزيل : أى يقارب الكتابة : يبينها ، أو يزيلها : يباعدها .

• • •

وقول امرأة من بنى قيس :

هما أخوا فى الحرب من لا أخاله إذا خاف يوما نبوة ودعاهما

تريد هما أخوا من لا أخاله فى الحرب .

---

(١) الموشح — ٤٤٣ .

(٢) تخامص : تتجافى . والأمعز : المكان الصلب الكثير الحصى ، والوجى : المصاب بالوجى ، وهو رقة القدم والحافر والفرسن والمناسم .

وقول الفرزدق - يمدح إبراهيم بن هشام المخزومى ، خال هشام بن عبد الملك - :

وما مثله فى الناس إلا مُملَّكا ... أبو أمه حىّ أبوه يقاربه

فى هذا البيت من التقديم والتأخير ما أحال معناه وأفسد إعرابه ؛ لأن مقصوده : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه .

وترجمة الكلام : لايوجد فى الناس أحد يشبه هذا الممدوح ، إلا الخليفة هشام الذى أبو أمه - أى جده - أب لهذا الممدوح !

فالضمير فى « أمه » للملك هشام ، وفى « أبوه » للممدوح ، وهو إبراهيم خال هشام .

ففصل بين « أبو أمه » وهو مبتدأ ، و « أبوه » وهو خبره ، بأجنبي عنه وهو « حى » .

وكذا فصل « حى » و « يقاربه » وهو نعته بأجنبي وهو « أبوه » ، وقدم المستثنى على المستثنى منه فجاء كما ترى فى غاية التعقيد !

وفيه يقول الرمانى : قد اجتمع فى البيت أسباب الإشكال الثلاثة : سوء الترتيب ، وبه تغير نظام الكلام ، وسلوك الطريق الأبعد فى قوله : « أبو أمه أبوه » وكان يجزئه أن يقول : خاله وإيقاع مشترك الألفاظ فى قوله « حى » لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان بالحياة !

* * *

وقوله :

فلبست خراسان التى كان خالد ... بها أسد إذ كان سيفا أميرها

فإن جماعة من النحويين قالوا : إنه يمدح خالداً ويذم أسداً ، وقد كانا واليين بخراسان ، وخالد قبل أسد .

وتقدير البيت : فليست خراسان بالبلدة التى كان خالد فيها سيفا إذ كان أسد أميرها .

ويكون رفع « أسد » بكان الثانية ، وأميرها نعت له ، و « كان » فى معنى وقع ، أو يكون فى كان ضمير الشان والقصة ، ويكون أسد وأميرها مبتدأ وخبرا فى موضع خبر الضمير .

وقال أبو سعيد السيرافى : إن تقدير البيت عنده أن يجعل « أسد » بدلا من خالد ، ويجعله هو « خالد » على سبيل التشبيه له بالأسد ، فكأنه قال : فليت خراسان التى كان بها أسد إذ كان سيفا أميرها ، ويجعل « سيفا » خبراً لكان الثانية ويجعل « أميرها » اسمها .

وعلى كلا التأويلين فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ، ووضع الألفاظ فى غير موضعها .

والفرزدق أكثر الشعراء استعمالا للمعاظلة والتعقيد ، حتى كان يعتمده ويقصده ليعجب النحويين وإن غاظ الأدباء !

* * *

وقوله : يهجو ابن هبيرة الفزارى والى العراق فى عهد يزيد بن عبد الملك :

أمير المؤمنين وأنت برّ حليم لست بالجشع الحريص

أولّيت العراق ورافديْه فزاريا أحذّ يد القميص[1]

قال الشهاب الخفاجى : أحذّ يد القميص : يكنى به عن السرقة ، واليد ، استعارة .

ثم قال . ذكر ابن المكرم فى كتابه الكناية وفى شرح ديوان

---

(١) الرفدان : دجلة والفرات لكثرة الانتفاع بهما ، وفى البيت روايات أخر .

الفرزدق : أنه أراد أحذ اليد كما يقال : خفيف اليد للسارق ، فاضطر إلى ذكر القميص[١] .

والحق أن كلمة القميص هنا ، ليست فضلة اضطر إليها الشاعر ، وإنما وقعت موقعا أصيلا تقتضيه البلاغة .

وقد قال الثعالبي : فإن كان خفيف اليد في الطرّ والسرقة قالوا : هو أحذُّ يد القميص .

ويد القميص هو الكم ، والسارق يقص كمه ويخففه ؛ ليكون أقدر على عمله ، ثم أورد بيت الفرزدق[٢] .

وقال القاضي الجرجاني : أحذُّ يد القميص : كناية عن السرقة والخيانة ؛ مأخوذ من الحذَذ وهو الخفة .

ومعناه : أن كمه قصير ؛ فيده بادية للأخذ والخيانة .

ثم قال ويحتمل أن يكون كناية عن الدناءة والخسة وترك الهمة ؛ لأن أدوان الناس أكمامهم قصيرة ، وأكثرهم يلبسون الصدار[٣] .

• • •

وقوله :

وإن تميما كلها غير إسعدها زعانف لولا عزُّ سعدت لذلَّت

فقد وضع من قبيلته كلها وهجاهم بهذا القول ، وإن مدح قومه الأدنين .

• • •

وقوله :

وأصبح مبيضُّ الضريب كأنه على مروَات البيت قطن مندَّف

فندف من الألفاظ المبتذلة .

---

(١) شفاء الغليل — ٢٩ — ٧٧ .
(٢) الكنايات — ٤٠ ؛
(٣) كنايات الأدباء — ٧٤ .

وقول بعضهم :

فأصبحت بعدَ خطٌ بهجتها كأن قفرا رسومها قلما

يريد : فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها !

وعندي أن هذا البيت مصنوع عن قصد ؛ لأن رداءة تركيبه ، وشدة معاظلته ، وسوء نسجه لا يمكن أن تحدث إلا بإعمال الفكر والروية ، واستنفاد الجهد فى صوغه على هذا النهج الغريب .

. . .

وقول ذى الرمة :

كأن أصواتَ من إيغالهن بنا أواخرِ الميس أصواتُ الفراريج(١)

يريد : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا .

. . .

وقوله فى وصف الثور :

كأنه كوكب فى إثر عفــرية مسوّم فى سواد الليل منقضب(٢)

أنشده الرمانى ثم قال : قد اجتمع الثور والكوكب فى السرعة ، إلا أن انقضاض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه .

ويقول ابن رشيق : وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر ، وإغفالا من الشيخ المفسر ؛ وذلك أن الثور مطلوب والكوكب طالب ، فشبّهه به فى السرعة والبياض ، ولو شبّهه بالعفريت ، وشبه الكلب وراءه بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذى أراده من فوت الثور الذى شبه به راحلته .

---

(١) الميس : شجر عظام، وضرب من الكروم ، والتبختر ، والفراريج : أفراخ الدجاج .

(٢) منقضب : منقطع من مكانه .

وأما ما أغفله الشيخ فإن الشاعر إنما رغب فى تشبيه الثور بالكوكب واحتمل عكس التشبيه — بأن جعل المطلوب طالباً — لبياضه ، فإن الثور لِهق[١] لا محالة .

وأما السرعة التى زعم ، فإن العفريت لو وصفه به وشبّهه بسرعته لما كان مقصّراً ولا متوسطا بل فوق ذلك[٢] .

• • •

وقول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقتَ الزيارة فارجعى بسلام

تجرى السواك على أغرّ كأنه بَرَد تحدّر من متـــون غمام

فليته إذ كان طردها ما وصفها ، فالارتباط مفقود بين البيتين .

• • •

وقول الأخطل :

قد كنت أحسبه قَيْنًا وأنبؤه فاليوم طُيِّر عن أثوابه الشرر

مدح به رجلا من بنى أسد كان قد أجاره ، وكان يقال لقوم الرجل : القيون ، ويعيرن بذلك .

والمعنى : فاليوم نفى ذلك عن نفسه ، أى صفة القيون .

فما زاد أن نبّه عليه ، وقد كان له فى المادح متّسع[٣] .

وقد قال له الرجل — وكان — يدعى سماكا — يا أخطل ، أردت مدحى فهجوتنى ! كان الناس يقولون قولا فحققته[٤] .

• • •

---

(١) اللهق كعنز : الأبيض .

(٢) العمدة ١ — ٢٠٢ .

(٣) الموازنة — ٣٩ .

(٤) سر الفصاحة — ٢٤٦ .

وقوله — يخاطب عبد الملك فى شأن زفر بن الحارث — :

بنى أميـــة إنى ناصح لـكم   فلا يبيتن فيكم آمنا زُفَر
يظل مفترشا كالليث كلكله   لوقعة كائن فيها لها جزَر

فأراد أن يضع منه فرفعه حتى خوّف منه .

• • •

وقول رؤبة فى نساء :

يُكسين من لين الشباب نيما

والنيم : الفرو الخلق ، وهو على غرابة لفظه ، يستهجن تشبيه أجسام النساء به فى اللين والنعومة ، لأن الفرو لا يخلو من خشونة ، وبخاصة أنه لم ينص على نوعه كفرو سمّورة مثلا ، وما الظن بعد هذا إذا كان فروآ باليآ !

وقد قال غيره :   لها بشر مثل الحرير . . .

فأجاد وأصاب .

• • •

وقول العَرْجى :

وأُشرِب جلدى حبّها ومشى به   كمشى حُميّا الكأس فى جلد شارب
يدِبُّ هواها فى عظامى وحبها   كما دبّ فى الملسوع سم العقارب

فتشبيه دبيب الهوى فى العظام ، بدبيب السم فى الملسوع غاية فى البشاعة ! وهذا التصوير للحب لا يدل على الحب !

• • •

وقول كثير :

فما روضة بالحزْن طيبة الثرى   يمجُّ الندى جَثجاثها وعَرارها(١)

(١) الجثجاث : نبت والعرار ، بهار البر .

بأطيب من أردان عَزّة موهِنا ... وقدأوقدت بالمَندَل الرطب نارَها

وقد قيل : لو أن زنجية تبخّرت بمندل رطب لكانت أردانها طيبة !

• • •

وقوله :

ألا إنمـــا ليلى عصا خيزُرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين[1]

وقد أنشده بشاراً فضحك ! وقال : لله أبو صخر ! جعلها عصا ثم يعتذر لها ! والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لكان قد أساء !

ألا قال كما قلت :

وبيضاء المدامع من معَدّ ... كأن حديثها ثمر الجنـــان

إذا قامت لسُبحتها[2] تثنت ... كأن عظامها من خيزران

ينسّيك المنى نظر إليها ... ويصرف وجهها وجه الزمان

ورواية المرتضى :

وحوراء المدامع من معد ... كأن قوامها ثمر الجنـــان

وتشبيه القوام بالثمر غريب .

ورواية العقد الفريد : إذا قامت لحاجتها ، وهو أجود .

وفي رواية الأصمعي : أن رجلا أنشد بشاراً قول الشاعر :

وقد جعل الأعداء ينتقصوننا ... وتطمع فينا ألسن وعيون

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال بشار : والله لو جعلها عصا مخ أوعصا زبد لما كان إلا مخطئا مع ذكر العصا ، ألا قال كما قلت :

«وبيضاء المحاجر من معد . . . » . . . الأبيات السابقة » .

---

(١) الخيزرانة : كل غصن لين يلتني .

(٢) السبحة : صلاة التطوع .

ومما يلاحظ أن بشاراً أكثر من الوصف بالخيزرانة ، فمن ذلك قوله من مقطوعة — يصف فيها مغنية وصفا بارعا — :

لعمر أبي زُوّارها الصّيد إنهم ... لفى منظر منها وحسن سماع
تُصلّى لها آذاننا وعيوننا ... إذا ما التقينا والقلوب دواعى
وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ... ببؤس ولم تركب مطية راعى
إذا قلدت أطرافها العود زلزلت ... قلوبا دعاها للوساوس داعى
كأنهم فى جنــة قد تلاحقت ... محاسنها من روضة وبقاع
يروحون من تغريدها وحديثها ... نشاوى وماتسقيهم بصواع[1]
لعوب بألباب الرجال وإن دنت ... أطيع التقى والغى غير مُطاع

فليس القبح فيما مضى يرجع إلى التشبيه بالخيزرانة ، لأن الخيزرانة كل غصن لين يتثنى ، وهو وصف جميل للقوام ، وإنما القبح جاء من ذكر العصا التى توحى بمعانى اليبس والجساوة والغلظ ، لا اللين واللدونة والرقة .

* * *

وقول أبي عديّ القرشي :

نحن الرءوس وما الرءوس إذا سمت ... فى المجــد للأقوام كالأذناب

فقوله : « للأقوام » حشو لا منفعة فيه .

* * *

---

(١) الصواع بالضم : المكيال ، ومعناه عند على بن هارون : إذا غنت شربوا جزافا بلا كيل ولا وزن من حسن ما يسمعون .

وقال المرتضى : هذا خطأ منه ، وإنما أراد أن غناءها بفرط حسنه وشدة إطرابه يغنيان نشوة الخمر ؛ وإن لم يكن هناك شرب بصواع .

ثم يقول : وما كان عندى : أن أحداً يتوهم فى معنى هذا البيت ما ظنه هذا الرجل .

وقوله :

يابن خير الأخيار من عبد شمس   أنت زين الدنيا وغيث الجنود

فليس غيث الجنود مقابلا لزين الدنيا ولا موافقا ، فالتقسيم هنا غير مستقيم .

ومثله قول ابن المعتز .

أرى ليـــلا من الشعر   على شمس من الناس

والجمع بين الليل والناس ردىء ، وقد وقع هنا بارداً .

ويلحق به فساد التفسير كقول بعضهم :

فيأيها الحيران فى ظُلَمَ الدجى   ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا

تعال إليه تلق من نور وجهه   ضياء ومن كَفيه بحراً من الندى

فإن هذا الشاعر لما قدّم فى البيت الأول الظلم وبغى العدا ، كان الوجه فى التفسير أن يأتى فى البيت الثانى بما يليق به ، فأتى بالضياء بإزاء الظلم وذلك صواب .

وكان يجب أن يأتى بإزاء بغى العدا ، بالنصرة أو العصمة أو ماجرى مجرى ذلك ، فلما جعل مكانه ذكر الندى كان التفسير فاسدا[١] .

. . .

وقول آخر :

وتلحقه عنـــد المكارم هزة   كما انتفض المحموم من أم مِلْدَم[٢]

فجعل اهتزازه من أريحية الكرم ، كانتفاض المحموم من الحمى ، وبشاعته لا تخفى .

---

(١) سر الفصاحة — ٢٢٥ .

(٢) أم ملدم كمنبر : كنية الحمى .

فأين هو من قول الآخر :

وتلحقه عنـد المكارم هـزة
كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب(١)

وأين هو من قول الهذلى .

وإنى لتعرونى لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بلله القطر

* * *

وقول رجل من تميم :

ومنهم عمـر المحمود نائله كأنما رأسه طـين الخواتيم

وقد أنشده الفرزدق فضحك ثم قال : يابن أخى ، إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره ، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وقد اجتمعا لك فى هذا البيت ، فكان معك الهوبر فى أوله فأجدت ، وخالطك الهوجل فى آخره فأفسدت(٢) .

* * *

وقول بعض الشعراء :

يُزَجّين بكرا يبهَر الرَّيط متنها كما مار ثعبان الغضا المتدافع(٣)

فشبه مشيتها بمشية الثعبان .

ومشية الثعبان ناعمة رقيقة حسنة لطيفة ، ولكن القبح جاء من لفظة الثعبان ، فليست مما يصطنع فى التشبيهات الغزلية ، ولو أنه قال كما قال الآخر :

من المتصيِّدات لغير سوء تسيل إذا مشت سيل الُحباب

لبرئ من العيب مع أن الحباب هو الحية .

---

(١) البارح : الريح الشديدة .

(٢) جهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى — ٣٠ .

(٣) يبهر : يغلب ، والربط : الثياب الرقيقة .

ومثله قول شهاب الدين الأنسى اليمنى :

إذا خطرت فى الروض نعم عشية ... تفاوح من فضلات أردانها العطر
وإن سحبت أذيالها قلت حية ... إلى الماء تسعى ما لأخمصها إثْر

وهذا من قبيح التشبيه على مافيه من الخلل[١] .

* * *

وقول بشار :

كأن إبريقنا والقَطْر فى فه ... طير تناول ياقوتا بمنقار

ولفظ طير ردىء والجيد طائر[٢] .

يعنى استعماله فى المفرد ، وأما استعماله فى الجمع فهو المقصود ، وفى القرآن الكريم : « وتفقَّد الطير . . » .

وقد وقع شوقى فى هذا التهافت حيث يقول :

وإنى لطير النيل لا طير غيره ... وما النيل إلا من رياضك يُحسب

* * *

وقوله :

إنمـــا عَظم سليمى خُلتّى ... قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصـــلا ... غلب المسك على ريح البصل

* * *

وقوله :

وبعض الجود خنزير !

---

(١) سلافة العصر — ٤٧١ .
(٢) ديوان المعانى — ١ — ٣١١ .

وكل ذلك من بارد الشعر وسفسافه ، وكثير على مثل بشار أن يقع فيه .

* * *

وقول أبى الشيص الخُزاعى :

وناعس لو يذوق الحب مانعسا — بلى عسى أن يرى طيف الحبيب عسى
وللهوى جرس يُنفىَ الرقاد به — فكلما كدت أغفى حرّك الجرسا

* * *

وفيه يقول ابن داود : إنه من التشبيه الذى لا يقع أبرد منه[1] .

* * *

وقول ابن أبى الفوارس :

جاءنى مكتئبا ملتبثا — فدعوناه لأكل وكُجّنا
مد فى السفرة كفا تَرِفا — فحسبنا أن فى السفرة جبنا

* * *

وقوله :

أنت ظبى أنت مسك — أنت درى أنت غصن
فى التفات وثناء — وثنايا وتثنى

* * *

وقول أبى العتاهية :

كأن عَتابة من حسنها — دُمية قس فتنت قسها
يارب لو أنسيتها بالذى — فى جنة الفردوس لم أنسها

---

(١) الصناعتين — ١١٠ .

إنى إذاً مثل التى لم تزل دائبة فى طحنها كُدْسَها[1]
حتى إذا لم يبق منه سوى حفنة بُرّ خنقت نفسها

. . .

وقوله :

ولَّهنى حبها وصيرنى مثل جحا شهرة ومشخلبه

وقوله :

عتب ، ما شأنى وما شانك ترفّــق أخت بسلطانك
لما تبديت عـــلى بغــلة أشرقت الأرض ببرهانك
حتى كأن الشمس مزفوفة بين جواريك وخصيانك

وفيه يقول المرزبانى : وهذا لعمرى كلام ضعيف[2] .

وليس هو ضعيفاً فقط ، ولكنه ردىء سخيف ، وكلمة الأخت التى اصطنعها فى معرض الغزل ، من الكلمات الساقطة النابية التى تشمئز منها نفوس الأشراف ، وقد رأيت بعض شعراء العصر يستعملونها للبرهنة على الحب العذرى وما دروا أن الحب — وإن كان عذريا على زعمهم — يأنف أن تلبس فيه المحبوبة صورة الأخت ، وأن هذه عاطفة شاذة مريضة لا تجول إلا فى جوانح شاعر مئوف ، ينزع به عرق إلى المجوسية !

. . .

وقول آخر :

إن قلبى سُلّ من غير مرض وفؤادى من جوى الحب حرَض[3]

---

(١) الكدس بالضم : الحب المحصود المجموع .
(٢) الموشح — ٢٦١ .
(٣) حرض محركة : قارب الهلاك من المرض .

كجراب كان فيه جُبُن   دخل الفار عليه فقرض

• • •

وقول آخر :

كأنها الشمس إذا ما بدت   تلك التى قلبى لها يضرب

تلك سليمى إذا ما بدت   وما أنا فى ودها أرغب

كأن فى النفس لها ساحرا   ذاك الذى عله « المذهب »(١)

وهو من النوع الفاتر السفساف كسابقه .

• • •

وقول العَمَّانى :

كأنما الطرف يرى فى جوانبه   عن العمى وكأن النجم قنديل

واجتماع العمى والقنديل فى غاية التنافر ، والبيت من ردىء التشبيه .

• • •

وقول آخر :

وقُل أم عمرو داؤه ودواؤه   لديها ، وربّاها الطبيب الموافق

والبيت جيد المعنى ردىء الرصف .

• • •

وقول الحسين الخليع :

وشاطرىّ اللسان مختلق التكريه م   زان المجون بالنسك(٢)

كأنه نَصْب كأسه قمر   يكرع فى بعض أنجم الفلك

والمعنى بديع ، ولكن العبارة ليست جيدة ، لأن قوله : يكرع : ليس

---

(١) المذهب بضم الميم وفتحها : شيطان الوضوء .

(٢) الشاطر فى الأصل : من أعيا أهله خبثا .

بصحيح ، وفيه ثقل بيّن وتفاوت ، وفيه إحالة أيضاً ، لأن القمر لا يصح تصوره يكرع فى نجم !

وقد أخذه أبو نواس فقال :

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته ... يقبّل فى داج من الليل كوكبا

وكلمة « عب فيها » قصد منها المتانة ، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح .

وقوله : شارب القوم ، فيه ضرب من التكلف الذى لا بد له منه أو من مثله لإقامة الوزن .

ثم قوله :

خلته . . . يقبل فى داج من الليل كوكبا

تشبيه بحال واحدة من أحواله ، وهو أن يشرب حيث لا ضوء هناك وإنما يتناوله ليلا ، فليس بتشبيه مستوف ، على ما فيه من الوقوع والملاحة .

وقد قال ابن الرومى ما هو أوقع منه وأملح وأبدع وهو :

ومهفهف تمت محاسنه ... حتى تجاوز منية النّفس
تصبو الكئوس إلى مراشفه ... وتحن فى يده إلى الحبس
أبصرته والكأس بين فم ... منـــه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها ... قمر يقبّل عارض الشمس

ولا شك أن تشبيه ابن الرومى أحسن وأعجب ، إلا أنه تمكن من إيراده فى بيتين ، وهما مع سبقهما إلى المعنى أتيا به فى بيت واحد[1] .

• • •

---

(١) المثل السائر — ١٨٠ .

وقول أبي نواس فى الأمين :

تنازع الأحمدان الشِّبْه فاشتركا ... خَلقا وخُلقا كما قُدَّ الشِّراكان

فزعم : أن ابن زبيدة مثل الرسول — صلوات الله عليه — فى خلقه وخلقه[1] .

وهو من غلوه الممقوت ؟

• • •

وقوله فى صفة الباز :

فى هامة علياء تهدى منسرا ... كعطفة الجيم بكف أعسرا[2]

يقول من فيها بعقل فكرا ... لو زادها عينا إلى فاء ورا

فاتصلت بالجيم كانت جعفرا

وفى ذلك يقول العسكرى : سمعت بعض العلماء يقول : ومن المعانى الباردة قول أبي نواس فى صفة البازى .

وقد وصفوا البيت الأول بأنه جيد مستوف .

وقالوا فى الباقى : فمن يجهل أن الجيم إذا أضيفت إليها العين والفاء والراء تصير جعفراً !

وسواء قال هذا أو قال :

لو زادها حاء إلى دال ورا ... فاتصلت بالجيم صارت جحدرا !

وما يدخل فى صفة البازى من هذا القول[3] .

وتبعه أبو تمام فقال :

هن الحمام فإن كسرت عِيافة ... من حائهن فإنهن حِمام

(١) إعجاز القرآن للباقلانى — ١٤٧ .

(٢) المنسر كمجلس ومنبر : المنقار ، والأعسر : من يعمل بيده الشمال .

(٣) الصناعتين — ١١٤ — ١١٥ .

فمن الذى جهل أن الحمام إذا كسرت حاؤه صار حماما .

وإنما أراد أبو نواس أن يشبه الجيم لا يغادر من شبهها شيئاً ، حتى لو زاد عليها هذه الأحرف صارت جعفراً لشدة شبهها به .

ثم يقول العسكرى : وهو عندى صواب إلا أنه لو اكتفى بقوله :

كعطفة الجيم بكف أعسرا

ولم يزد الزيادة التى بعدها كان أجود وأرشق وأدخل فى مذاهب الفصحاء ، وأشبه بالشعر القديم .

وأما قول أبى تمام ، فله معنى بخلاف ما ذكروه ، وذلك أنه أراد أنك إذا أردت الزجر والعيافة أداك الحَمام إلى الحِمام ، كما أن صوتها الذى يظن أنه بكاء ، إنما هو طرب ويؤديك إلى البكاء الحقيق .

وهذا المعنى صحيح ، إلا أن المعنى إذا صار بهذه المنزلة من الدقة ، كان كالمعمَّى ، والتعمية حيث يراد البيان عىٌّ .

. . .

وقول أبى نواس — أيضاً — فى الخمر :

توهمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يُدرك بالعقل

خرج إلى المحال فى تشبيهه ، حين جعلها لا تدرك بالعقل !

. . .

وقوله :

يامَن جفانى وملّا نسيت أهلا وسهلا

ومات مرحب لما رأيت مالىَ قلّا

إنى أظنــك فيما فعلت تحكى القِرِ لا[1]

---

(١) القرلى : من طيور الماء ، صغير الجرم ، شديد الغوص ، سريع المخاف .

وقوله :

وأنمر الجـلدة صيَّرته في الناس زاغا وشقرّاقا[1]

لجاء بألفاظ العامة والسوقة .

. . .

وقوله :

وليس كجدتيه أم موسى إذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا مدح فسل ، نازل إلى الحضيض ، وزاده ضعفا تصريحه فيه بذكر النساء !

. . .

وقول أبي تمام :

وكأن فارسه يصرّف إذ بدا في متنه ابنا للصباح الأبلق

لجعل الفرس ابنا للصباح الأبلق !

. . .

وقوله :

لك قدّ أرقّ من أن يحاكى بقضيب في النعت أو بكثيب

والقد لم تجر العادة بوصفه بالرقة ، وإنما يوصف بالهيف والنحول مثلا .

ثم هو يشبه بالقضيب ولكن لا يشبه بالكثيب ، وإنما يشبه به الردف .

. . .

(١) الزاغ : غراب صغير إلى البياض ، والشقراق بكسر الشين وفتحها وتشديد الراء وكقرطاس : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض يكون بأرض الحرم .

وقوله :

متفجِّر نادمتـــه فكأننى للدلو أو لِلمرزَمَين نديم

والدلو هنا : أحد البروج ، والمرزمان : نجمان مع الشِّعريَيْن .

وأنت تجـــد بأقرب تأمل فرق مابين قول القائل لمن يمدحه : أنت المرزم جودا ، والُجنّة لمن يقصدك عزا ، وبين قولك : أنت الدلو كرما ، والكنيف لطريد الدهر سعة .

والمعنيان صحيحان ، وحسْن إحداهما وقبح الآخر لا خفاء به[1] .

. . .

وقوله :

أنت دلو وذو السماح أبو مو سى قليب وأنت دلو القلب

ومراده من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه ، كما أن الدلو سبب فى امتياح الماء من القليب .

ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب — كما يقول ابن الأثير — إلى حد يدندن حوله هذه الدندنة ، ويلقيه فى هذا المثال السخيف[2] .

ومثله فى ذلك قول على بن الجهم فى مدح المتوكل :

أيها الدلو لاعدمنـــاك دلوا من جيادالدلاء صُلب الصليب

أنت كالدلو لاعدمناك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب

أنت كالكلب فى حفاظك للود م وكالتيس فى قراع الخطوب

والشناعة هنا جاءت من قبل اللفظ ، وإلا فكل واحد من هذه الثلاثة يعد غاية الغايات فى الصفة التى أريد بها المدح .

وقد يغتفر لابن الجهم قوله هذا لأن كان متبدّيا إذ ذاك ، ولكن

(١) سر الفصاحة — ٧٩ .
(٢) المثل السائر — ٢٩٩ .

كيف يغتفر ذلك لأبى تمام المدنى المتحضر !

. . .

وقوله :

ضاحى المحيا للهجير وللقنا   تحت العجاج تخاله محرانا

وفيه يقول ابن رشيق : فلعنة الله على هـــذا المحراث ههنا ! ماأقبحه وأركّه ! وأين هذا كله من قوله المليح البديع .

أو ما رأت بردىّ من نسج الصِّبا   ورأت خضاب الله وهو خضابى

وإن كان أخذه من قول الله — عز وجلّ — : « صِبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغةً »(١) .

. . .

وقوله :

كأنى حين جرّدت الرجاء له   عضبٌ صبيت به ماء على الزمن

وقد علق عليه العسكرى بقوله : ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا (٢) .

ورواه البديعى (٣) هكذا :

كأنى حين جردت الرجاء له   محضاً أخذت به سيفاعلى الزمن

ومعنى البيت على هذه الرواية : أنى بقصر رجائى عليه أصبحت قوياً منيعاً ، حتى كأنى شهرت سيفاً على الزمن ، وبذلك ينتفى منه العيب .

. . .

وقوله :

---

(١) العمدة — ١ — ١٨٤ .

(٢) الصناعتين — ٢٤٨ .

(٣) هبة الأيام — ١٢٣ .

للجود باب فى الأنام ولم تزل   مذ كنتَ مفتاحا لهذا الباب

وقد ذكر ابن رشيق(١) : أن بعض الناس اعترض على هذا البيت بحضرة بعض أصحابه وقال : أنى إلى ممدوحه فجعله مفتاحا ، فهلا قال كما قال ابن الرومى :

فَبَّل أنامله فلسن أناملا   لكنهن مفاتح الأرزاق

فقال له آخر : عجبت منك تعيب أن يجعل ممدوحه مفتاحا ، وقد جعل ربه كذلك فى قوله :

والله مفتاح باب المعقل الأشِب(٢)

ولا خلاف أن التشبيه بالمفتاح قبيح فى باب المديح ، وبخاصة حين يتجه به الخطاب إلى الممدوح كما فى قول أبى تمام المتقدم .

فأين هذا من قول أبى نواس :

هات من الراح فاسقنى الراحا   أما ترى الديك كيف قد صاحا

من كف قبطية مزّنرة   نجعلها للصبوح مصباحا

وقد تابعه على هذه الإساءة السرى الرفاء فى قوله :

عصابة لو شهدت مجلسهم   كنت شهابا لهم ومصباحا

أغلق بابُ السرور دونهم   فكن لباب السرور مفتاحا

ولكن مما يهوّن الخطب هنا : أن المقام مقام هزل لا جد ، وأنس وتبسّط ، لا تزمُّت ووقار .

وقريب من هذا قول أعرابى :

---

(١) العمدة — ١ — ١٨٤ .

(٢) الأشب : الملتف .

وإذا المكارم أغلقت أبوابها يوما فأنت لقفلها مفتاح

فإن القفل أيضاً لابد له من مفتاح .

وقد وقع فى هذا الخطأ المنصور حيث يقول من خطبة له : أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى[1] .

وكذا محمد بن الليث فى قوله : كان قفلا فتحه أمرك ، وبابا أغلقه نهيك[2] .

وعلى ذلك نرى أن كلمة مفتاح تحسن إذا وقعت فى غير المدح ، كقول على بن عبد الله الجعفرى :

ربما سرنى صدودك عنى وطلابيك وامتناعك منى

حذرا أن تكون مفتاح غيرى فإذا ما خلوت كنت التمنى

فكلمة مفتاح هنا متعينة فى مكانها ، وهى من بديع الكنايات أيضا .

فهو يريد أن يقول : إنه يرحب بصدود المحبوب وامتناعه عليه برغم هيامه به ، لأن انقياده له يجعله سلس القياد لغيره ، لين العريكة فيما يطلب منه ، وهو لايريد أن يكون مفتاحا لباب الطمع فيه ، فالحرمان فى هذه الحال ، أشهى إليه من الوصال .

وكذلك نجد كلمة مفتاح تحسن إذا وصف بها غير الإنسان ، كالجوارح والأخلاق والأشياء المعنوية ، وذلك كقول منذر بن سعيد : ... فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها[3] . وكقول ابن الرومى المتقدم :

---

(١) الطبرى — ٩ — ٣١٠ .

(٢) جمهرة خطب العرب — ٣ — ٦٦ .

(٣) المصدر المتقدم — ٣ — ١٢٥ .

قبّل أنامله فلسن أنامــلا لـكنهن مفاتح الأرزاق

وقد قيل : إنه أحسن ماقيل فى معناه[١] .

ومن فصل للبديع الهمذانى : قبلت من يمنـــاه مفتاح الأرزاق ...

وقول الشاعر :

خزٌ عمامته ، حلو فكاهته فى كفه من رُقى الشيطان مفتاح

وقول الراجز :

إنى بغيْت الشعر وابتغانى حتى وجدت الشعر فى مكانى

فى عَـيْبة مفتاحها لسانى[٢]

وقول بعضهم :

ألم تر مفتاح الفؤاد لســانه إذا هو أبدى مايقول من الفم

وقول آخر :

مفتـــاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعـــده يسر

وكل من أعيتك أخـــلاقه فإنمــا حيلتـــه الهجر

وقول الربيع بن يونس : المحبة مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر .

وقول المهدى العباسى : المشاورة والمناظرة : بابا رحمة، ومفتاحا بركة .

وقول الفضل بن الربيع : الاقتصاد رأس النصيحة، ومفتاح اليمن والبركة .

وقولهم مفتاح الفتن .

وهو مقتل عثمان أو الحسين — رضى الله عنهما — .

---

(١) ثمار القلوب — ٥٣٢ .

(٢) العيبة : الحقيبة .

«مفتاح» فيما تقدم لا يمكن أن يقال : إنها قبيحة .

وعند التأمل الدقيق يظهر لنا أن قبح «مفتاح» يتجلى أبين ما يكون حينما يقترن بلفظ «الباب» أو «القفل» .

ولعل السر فى هذا : أن اقتران المفتاح بالباب والقفل يجعل التشبيه قريبا جداً من عالم الواقع .

وبهذا القرب يصبح الموصوف أدنى إلى أن يكون آلة جامدة صماء . وإن شئت فقل : مفتاحا بالفعل .

وآية ذلك أننا لا نشعر بهذا النبوّ فى قولك مثلا : جعلك الله مفتاحا للخير ، مغلاقا للشر !

ولا فى قولهم لعمر بن الخطاب : مفتاح الأمصار[1] .

. . .

وقوله :

فإذا ما أردت كنت رِشاء وإذا ما أردت كنت قليبا

يريد أنه مرة يكون رسول الخير ، وأخرى يكون مصدر الخير نفسه.

فجعله لذلك مرة حبلا ، وأخرى بئرا .

والرشاء والقليب كالدلو والمفتاح فى شعره السابق سخفا وركة .

وجاء السرى الرفاء فقال :

تراك إذا كان الندى فى قليبه رشاء فإن يعلُ اتخذناك سلما

وجاء مهيار أيضا فقال :

لك الخير مولى رميت المنى رشاء إليه فروّى قليبا

---

(١) قيل له ذلك لأنه أول خليفة مصر الأمصار وفتح أكثرها .

لجعله قليباً .

ولم تقبح لفظة « قليبا » هنا قبحها فى بيت أبى تمام السالف ، لأن الممدوح لم يخاطب بها خطاب مواجهة لأنها لم تقع خبرا عنه .

وعلى كل فتشبيه الممدوح بأنه قليب أهون من تشبيهه بأنه رشاءو سلم .

ويلاحظ حسن لفظة رشاء فى القول المتقدم .

رميت المنى رشاء إليه ...

وكذا فى قول أبى الفتح البستى : الرشوة رشاء الحاجة :

والسبب : أنها لم تقع وصفا للإنسان .

* * *

وقول أبى تمام أيضا :

صارت المكرمات بُزْلا وكانت أدخلت بينها بنات مخاض

شبه المكرمات بالنوق البزل — وهى التى بلغت سن التاسعة — بعد أن كانت بنات مخاض — وهى إناث النوق التى دخلت فى السنة الثانية وحملت أمّاتها .

والتشبيه غاية فى الغثاثة ، ولأبى تمام كثير من هذا النوع .

وقوله :

خلق كالمدام أو كرضاب المسك م أو كالعبــير أو كالملاب

وقد عابوا قوله هذا : بأن الناس يقعون من الدون إلى الأعلى ، وهذا من الأعلى إلى الدون ، فجعل خلقه كالمدام أو كالمسك ، ثم قال : أو كالعبير أو كالملاب[1] .

وقوله :

---

(١) الملاب بفتح الميم : عطر ، أو الزعفران .

سمابنَ أوْس فى الفخار وحاتم ‏ ‏ وزيد القنا والاَثرمان ورافع

نجوم طواليع جبال فوارع ‏ ‏ غيوث هواميع سيول دوافع

فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدم ما أخر لما اختل النظم ، بأن قال :

سيول دوافيع غيوث هوامع ‏ ‏ جبال فواريع نجوم طوالع

وذلك ان من عادة العرب فى التخاطب أن يبدءوا فى باب المديح وشبهه بالصفة الدنيا ، ثم يثنوا بأعلى منها ، وهكذا إلى أن ينتهو إلى آخرها وعكس ذلك فى الذم .

وقد ورد على ذلك قول البخترى فى وصف نحول الإبل :

يترقرقن كالسَّراب وقد خُضن م ‏ ‏ غِمارا من السراب الجارى

كالقسىّ المعطّفات بل الأسهم م ‏ ‏ مبرية بل الأوتار

فترقّ فى تشبيه التحول من القسىّ المنحنية ، إلى الأسهم المبرية ، إلى الأوتار وهى أشد الثلاثة نحولا ورقة .

ويقول ابن الأثير : وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك ، فن جملتهم المتنبى فى قوله — يمدح بدر بن عمار الأسدى :

يا بدر يابحر ياغمامة ياليث م ‏ ‏ الشرى يا حِمام يارجل

وكان ينبغى أن يبدأ فيه بالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك ، كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه .

فأما قوله : يا بدر ، فإنه اسم الممدوح ، والابتداء به أولى ، ثم بعد ذلك يجب أن يقول : يارجل ، ياليث ، ياغمامة ، يابحر ، ياحمام ، لأن الليث أعظم من الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهذا مقام مدح ، فيجب أن يرقى فيه من منزلة إلى منزلة ، حتى ينتهى إلى المنزلة العليا آخرا ،

ولو كان مقام ذم لعكس القضية .

ثم يوازن بين قول المتنبي وقول أبي تمام السابق :

نجوم طوالع ...

فيقول : وهو عندي أشهر ملامة من المتنبي ؛ لأن المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها ، وأبو تمام متمكن من ذلك ؛ وما أعرف كيف ذهب عليه هذا الموضوع مع معرفته بالمعاني[1]

ومع هذا يمكننا أن نلتمس العذر للمتنبي ونبعد عنه الملامة ، إذا نظرنا إلى أنه شبهه بهذه الأشياء كل منها على انفراد لمعان تصدق عليها .

فهو بدر في الحسن والوضاءة والرفعة ، وبحر في سعة المكارم ؛ وغمامة في جوده الذي عم القريب والبعيد ؛ لأن الغمام متنقل ، وليث في الشجاعة والجرءة والإقدام ، وموت في استئصال أعدائه وقتلهم ، ورجل في أنه جمع هذه الصفات الكثيرة الغريبة المتباينة ، وهو في كنهه إنسان ، وكأنه يشير إلى قول أبي نواس :

وليس عـلى الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

. . .

وقول البحتري :

تبسم وقطوب في ندى ووغى كالرعد والبرق تحت العارض البَرِد

وفيه يقول ابن الأثير : وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة — وهو ترتيب التفسير — فإن الأولى أنه كان قدّم تفسير التبسم على تفسير القطوب ؛ بأن قال :

كالبرق والرعد ..

---

(١) المثل السائر — ١٥٨ .

فانظر ايها المنتمى إلى هذا الفن ،كيف ذهب على البحترى مثل هذا الموضع على قربه ،مع تقدمه فى صناعة الشعر ، وليس فى ذلك كبير أمر سوى أن كان قدم ما أخر لا غير ، وإنما يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام إذا حكم عليه الوزن والقافية ، واضطر إلى ترك ما يجب عليه ، وأما إذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لا عذر له[1] .

• • •

وقول البحترى أيضاً من قصيدة :

كالبدر غير مخيَّل والغصن غير م ميَّل والدعص غير مهيَّل

هذه الاستثناءات ضرب من التكلف ؛ لأن التشبيه بالغصن كاف، فإذا زاد فقال : كالغصن غير معوج ، كان ذلك من باب التكلف خللا ، وكان زيادة يستغنى عنها .

وكذلك قوله : كالدعص غير مهيَّل ، لأنه إذا انهال ، خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا إليه ، فلا يكون لتقييده معنى .

• • •

ومنها قوله فى الفرس :

وأغرّ فى الزمن البهيم محجَّل قد رحت منه على أغر محجل
كالهيـــكلِ المبـــنى إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

ذكر الهيكل فى البيت الثانى ورد عجز البيت عليه ، وظن انه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيئاً حتى كررها .

وهى كلمة فيها ثقل ، ونحن نجدهم إذا ما أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا : ما هو إلا صورة ، وما هو إلا تمثال ، وما هو إلا دمية ، وما هو إلا ظبية ، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان .

---

(١) المثل السائر س ١٨٠

وقد استدرك هو أيضا على نفسه، فذكر أنه كصورة فى هيكل، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين، لراعوهم بها وأفزعوهم بذكرها، وذلك من كلامهم، وشبيه بضاعتهم.

° ° °

ومنها فى وصف أذنيه:

متوجّس برقيقتين كأنما تُرَيان من ورق عليه موصّل

يقول: إن الأذنين كأنهما من ورق عليه موصل، وإنما أراد بذلك حدتهما وسرعة حركتهما وإحساسهما بالصوت؛ كما يحس الورق بحفيف الريح.

وظاهر التشبيه غير واقع، وإذا ضمن ماذكرنا من المعنى كان المعنى حسناً ولكن لايدل عليه اللفظ، وإنما يجرى مجرى المضمن، وليس هذا برائق اللفظ، ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله: متوجس برقيقتين؛ فإن هذا القدر هو حسن.

° ° °

وقوله فى السيف:

وكأنما سود النمال وحمرها دبّت بأيد فى قَرَاه وأرجل[1]

المعنى مكرر على ألسنة الشعراء، وتصنيعه بسود النمال وحمرها ليس بشىء، ولعله أراد بالحمر: الذر[2].

والتفصيل بارد والإغراب به منكر؛ وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال: كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسى على سواء أو منحرفا قدر

---

(١) القرا بفتح القاف: الظهر.
(٢) الذر: صغار النمل.

شبر ، أو نصف شبر ، أو إصبع ، أو ما يقارب ذلك !

فقيل له : هذا من الورع الذى يبغضه الله ، ويمقته الناس !

ورب زيادة كانت نقصانا ؛ وصفة النمل بالسواد والحمرة فى هذا من ذلك الجنس ، وعليه خرج بقية البيت فى قوله : دبت بأيد ...

وكان يكفى ذكر الأرجل عن ذكر الأيدى ، ووصف الفرند بدب النمل ، شىء لا يشذ عن أحد منهم .

. . .

ومنها فى المدح :

عال على نظر الحسودِ كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبُل

ومنكر جداً جر النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو ، والتكلف فيه واقع[1] .

. . .

وقول ابن الرومى يهجو امرأة :

مَن شعرها من فضة وثغرها من ذهب

وقد كان بعض الأدباء يعيبه ويقول : إن التشبيه بالفضة والذهب إنما ينفع فى المدح ، وكان يجب أن يهجو هذه المرأة بما يستعمل من ألفاظ الذم وطرقه .

وقد عده الخفاجى من وضع الألفاظ فى غير مواضعها[2] .

ونحن لا نرى ذلك بل نعد البيت من أجود أنواع الهجاء ؛ لأنه مع خبث معناه ودقة مسلكه ، بعد عن ألفاظ القذف والسب التى عرف بها

---

(١) انظر نقد الباقلانى لهذه القصيدة فى إعجاز القرآن — ١٧٥ .

(٢) سر الفصاحة — ١٥٥ .

ابن الرومى ؛ فهو يريد أن شعرها أبيض كالفضة ، وأسنانها صدئة صفر كالذهب ، فعبر عن ذلك بهاتين الكنايتين اللطيفتين ، ولا معنى لقول بعضهم: إن التشبيه بالفضة والذهب إنما ينفع فى المدح فقط ، لأن الألفاظ تصلح للاستعمال فى المدح والذم معا ، بحسب إرادة المتكلم وتصريفه لوجوه الكلام .

• • •

وقول السرى الرفاء :

ونيلوفر أوراقه الخضر تحتها   بساط إليه أعين النجم تُشخّص

وهو غير مختار الوصف ظاهر التكلف .

• • •

وقول الصابى :

نعم الله كالوحوش وما تألف م إلا الأخيار النساكا

نفّرتها آثام قوم وصارت   لأولى البر والتقى أشراكا

والمعنى جيد ، ولكن تشبيه نعم الله بالوحوش ، لا يصدر إلا من وحشى الطباع !

• • •

وقول المتنبى :

كأنى دحوت الأرض من خبرتى بها   كأنى بنى الإسكندر السدّ من عزمى

فشبه نفسه بالخالق — تعالى عما يقوله الظالمون — ثم انحط إلى الإسكندر مع مافيه من الإغراق[1] .

• •

---

(١) العمدة — ٢ — ٥١ .

وقوله :

وملمومة سيفيَّة ربَعيَّـــة يصيح الحصى فيها صياح اللقـالق

يريد بالملمومة : الكتيبة المجموعة ، وسيفية رَبعيّة : منسوبة إلى سيف الدولة ، وإلى ربيعة التي منها تغلب قبيلته ، واللقالق : ضرب من الطير ، وصياح الحصى : أراد به صوتها عند وقع حوافر الخيل ؛ شبهه بصوت اللقالق .

واللقالق من الألفاظ العامية المبتذلة :

. . .

وقوله :

ومن الناس من تجوز عليـــه شـــعراء كأنها الخـازباز

الخازباز بيناء الجزأين على الكسر : حكاية صوت الذباب ، ثم سمى به الذباب نفسه .

يريد أن بعض الناس لغفلتهم ، تروج عندهم شعراء كالذباب فى طنينه ا .

وقد عد ابن الأثير هذا البيت من مضحكات الأشعار ، وأنه من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث يقول :

إن بعضـا من القريض هُراء ليس شيئا وبعضه أحكام[٢]

منـه ما يجلب البراعـةُ والفهـم م ومنـــه مايجلُـب البِرسام[٣]

والبرسام : علة يُهذى فيها .

. . .

---

(١) المثل السائر — ٧٠ .

(٢) فى الديوان : هذاء بضم الهاء وهو الهذيان .

(٣) ما يجلب : أى يجلبه، وفى الديوان : البراعة والفضل .

وقوله :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

قالوا : أراد التناهى فى إطالة الوقوف فبالغ فى تقصيره ، وكم عسى هذا الشحيح بالغا مابلغ من الشح ، وواقعا حيث وقع من البخلِ ، أن يقف على طلب خاتمه !.

والخاتم أيضاً ليس مما يخفى فى التراب إذا طُلب ، ولا يعسُر وجوده إذا فُتـِّش .

وقد اعتذر عنه القاضى الجرجانى بقوله : وأقرب ما يقال فى هذا : أن الشاعر حينما أراد أن يقول : أقف وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد : لأقفن وقوفا زائداً على القدر المعتاد ، خارجا عن حد الاعتدال ، كما أن وقوف الشحيح يزيد على مايعرف فى أمثاله ، وعلى ماجرت به العادة فى أضرابه .

وهو كقول الشاعر .

رُب ليل أمدّ من نفَس العا شق طولا قطعته بانتحاب

ونفس العاشق بالغا مابلغ ، لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، إنما مراده أن هذا الليل زائد فى الطول على مقادير الليالى ، كزيادة نفس العاشق على الأنفاس (١) .

* * *

وقوله فى وصف الحمى .

إذا مافارقتنى غسّلتنى كأنا عاكفان على حرام

---

(١) الوساطة — ٣٥٥ — ٣٥٦ .

وهو معيب لأن الغسل غير مقصور على الحرام وحده ، بل هو من الحلال والحرام جميعا ، فليس لتخصيص الحرام به وجه .

* * *

وقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقد أغرب فيه حتى قال ابن رشيق : إن هذا يحتاج إلى الأصمعى أن يفسر معناه[1] .

وقال فيه الثعالبى : وهو ما تكلف له اللفظ المتعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع بنى شرفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ، ولا تقول : تقوم فائدة الانتفاع به بإزاء التأذى باستماعه[2] .

ومعنى البيت : يقول لصاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند ربع المحبوب : وفاؤكما بمساعدتى على البكاء كهذا الربع ، فإن الربع كلما درس كان أبعث على الحزن ، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف ، ومساعدتكما كلما قلت ، اشتد حزنى لفقد من أتأسى به .

وقوله : والدمع أشفاه ساجمه : بيان لعـــذره فى البكاء ، وحجة على صاحبيه بأنهما خاليان مما هو فيه من الوجد ، لأنهما لو كانا مثله لاستشفيا بالدمع مثله كما هو شأن الحزين .

والغرابة والتعقيد جاءا من لفظة طاسم : بمعنى الطامس . وتعلق الباء فى : « بأن تسعدا » بوفاء « الواقع مبتدأ » ، وهو من الضرورات القبيحة ، لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه .

* * *

وقوله — يمدح عبد الله بن يحيى البحترى :

---

(١) العمدة — ١ — ١٦٠ .

(٢) يتيمة الدهر — ١ — ١٢٣ .

ولو نقصتُ كما زدتَ من كرم على الورى لرأونى مثل شانيكا

يقول : لو نقصت أنا عن الناس كما زدت أنت عليهم ، لرأونى خسيسا مثل عدوك .

ففرّع عن وصف الممدوح بزيادة الكرم على الناس : أنه لو نقص بقدر هذه الزيادة لعدّ نذلا مثل مبغضيه .

وهذا هو التفريع الملعون كما يقول ابن رشيق[1] .

٠ ٠ ٠

وقوله :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وقد قال فيه الخفاجى : فأما قول أبى الطيب ، فمن أقبح ما يكون من التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ، فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع .

وفيه يقول ابن الأثير : وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة . أن أبا الطيب أتى فى هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه .

وليس فى هذا البيت من تكرير ؛ فإنه كقولك : الموصوف بكذا وكذا ، ابن الموصوف بكذا وكذا .

أى إنه عريق النسب فى هذا الوصف .

وقد ورد فى الحديث النبوى مثل ذلك كقول النبى فى وصف يوسف الصديق — صلوات الله عليهما — « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ثم يقول : ولقد فاوضنى فى هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه

(١) العمدة — ٢ — ٣٥ .

وعرفته ، أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، ولكن لفظه ليس بمرضى على هذا الوجه الذى قد استعمله فيه ؛ فإن الألفاظ إذا كانت حسانا فى حال انفرادها ، فإن استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها .

ولو تهيأ لأبى الطيب أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب، أو ما يجرى مجراها لكان أحسن .

وكذلك لفظة الهتن ، فإنها ليست مرضية فى هـــذا الموضع على هذا الوجه .

ولفظة العارض وإن كانت وردت فى القرآن وهى لفظة حسنة ، فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم ، وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر[١] .

وقد أخذ العلوى قول ابن الأثير واختذله — وكثيراً ما يفعل ذلك — فقال : من الناس من صوبه فى تكريره ، ومنهم من قال : أساء فيما أورد من ذلك .

والأقرب أنه مجيد فى مطلق التكرير ؛ فإنه دال على إغراق الممدوح فى الكرم ، ولكن غير المحمود : أن لفظة العارض والهتن ليستا واردتين على جهة البلاغة فيه لقلة الاستعمال لها .

فمن أجل ذلك كان ماقاله ليس بالغا فى البلاغة مبلغا عظيما ، إلا من جهة التكرير فإنه محمود لا محالة[٢] .

ونحن نخالفهما فيما ذهب إليه من استكراه لفظتى « العارض » و « الهتن » .

---

(١) المثل السائر — ٢٣٨ — ٢٣٩ .
(٢) الطراز — ٢ — ١٨٢ .

ولا نحمد من هذا البيت ما حمداه ، بل نعده رديئا سفسافا مرذولا أشبه ما يكون بعبث الأطفال ، سواء أكان من نوع التكرير أم لا .

والمدح بالعراقة فى صفة من الصفات ، لا يستوجب هذا الإلحاح الثقيل على لفظ معين .

وللمتنبي أبيات مرقصة فى ذلك منها قوله :

وجدت عليا وابنه خير قومه وهم خير قوم واستوى الحر والعبد

وأصبح شعرى منهما فى مكانه وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

فقد قصر السيادة على الممدوح وابنه وأسرته ، ورفعهما فوق الناس جميعا فى إيجاز بالغ ، لم يحتج فيه إلى ملء الشدق بهذه الإعادة الثقيلة المملة .

والفرق بين التكرير فى بيت المتنبي وبين الحديث الشريف ، كالفرق بين الخزف والدر ؛ فإن الذى حسَّن تكرير الكريم فى قول الرسول الكريم : أن يوسف وآباءه جميعاً أنبياء معروفون ، وقد جاءوا متتابعين فى نسق واحد لا يقطعه فاصل ، فكل كريم يشير إلى واحد من هؤلاء الأنبياء — عليهم السلام — بل كاد لقوة التصاق النبوة بهم ، وانطباقها عليهم يجرى مجرى العلَم ، ولهذا نرى الرسول — صلوات الله عليه — وقف عند إبراهيم عليه السلام .

ولو كان والد إبراهيم نبياً لحسن أن يقول : ابن الكريم أيضاً :

وقد كان يحسن تكرير المتنبي لو أنه جاء على نسق التكرير فى قول الشاعر :

قيس العلا ، قيس الندى ، قيس الكرم :

على أنى أستحسن مثل تكرير المتنبي إذا وقع هجاء كقول الشاعر :

ولقد هززتك للمديـ ـح فكنت ذا نفس لكيعه

أنت الرقيع ابن الرقيـ ـع ابن الرقيعَ ابن الرقيعه

وقوله يمدح سعيد بن عبيد الله الإنطاكى :

لو استطعت ركبت الناس كلهم　　إلى سعيد بن عبد الله بُعرانا

وهذا سوء ذوق منه ، وإزراء بالإنسانية ، لا يصح وقوعه من شاعر ، ولا ينفع فى الاعتذار عنه قول من قال : إنه يقصد بالناس ناساً بأعيانهم أخذاً من قوله بعد ذلك :

فالعِيس أعقل من قوم رأيتهم　　عما يراه من الإحسان عميانا

وفى هذا الشعر يقول الصاحب : أراد أن يزيد على الشعراء فى وصف المطايا ، فأتى بأخزى الخزايا !

ثم يقول : ومن الناس أمه فهل ينشط لركوبها ! والممدوح لعله لا يريد أن يُركَبوا إليه ! فهل فى الأرض أخش من هذا التسحّب ، وأوضع من هذا التبسط(١) .

والحق أن المتنبى كثيراً مايتعسف فى إيراد معانيه حتى ينزل إلى أحط الدركات أحياناً ! ومن هذا النوع نفسه — وإن جاء على صورة أخرى — قوله فى رحيل سيف الدولة عن إنطاكية :

ليتَ أنا إذا ارتحلت لك الخيلُ م　　وأنا إذا نزلتَ الخيـــام

وقد عابوه بأن الخيام تعلو الممدوح(٢) :

وقال الواحدى فى تفسيره : ليتنامعك نتحمل المشقةفى مسيرك ونزولك.

ولكنه أساء حيث تمنى أن يكون بهيمة أو جماداً ، ولا يحسن بالشاعر أن يمدح غيره بما هو وضع منه .

* * *

وقوله فى الموتى :

---

(١) يتيمة الدهر ١ — ١٢٩

(٢) سر الفصاحة — ٢٤٨ .

خُرس إذا نودوا كأن لم يعلموا   أن الكلام لهم حلال مطلق

أى كأنهم يظنون أن الكلام محرم عليهم .

قال الواحدى : لو وصفهم بالعجز عن الكلام ، لكان أولى وأحسن مما قال ؛ لأن الميت لايوصف بما ذكره .

° ° °

وقوله :

يترشفن من فمى رشفات   هن فيه حلاوة التوحيد

فى الكلام تشبيه مضمر : أى كحلاوة التوحيد .

وفى بعض الروايات :

هن فيه أحلى من التوحيد .

والمراد على كل حال غامض ؛ فقد قيل : إن التوحيد نوع من التمر بالعراق .

وقيل : إنه توحيد الله — تعالى — .

° ° °

وقوله فى عضد الدولة :

الناس كالعابدين آلهة   وعبدُه كالموحد الله

يريد أن الناس فى خدمتهم لغيره كمن يعبد آلهة باطلة من دون الله — تعالى — ، لأنه — أى عضد الدولة — هو الملك على الحقيقة ، وغيره من الملوك بهتان وزور .

ويريد بعبده : نفسه : أى إنه فى اقتصاره على خدمة عضد الدولة ، كمن يوحد الله ولا يشرك به شيئاً !

ولا يخلو مثل هذا الكلام من مظنة التهاون بالدين والجرأة عليه !

وقوله فى مدح بدر بن عمار :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدُّنى

والمعنى الظاهر : أن أفهام الناس تتقاصر عن الإحاطة بسعة إدراكه وفسحة علمه ، كما تتقاصر عن الإحاطة بما وسع السموات والأرضين ، فإن وراءها مالا يعلمه إلا خالقه .

ونيته لاتدل عليه فأفرط وعمّى !

وجمّع دنيا على القول بالأدوار والتنامخ(١) .

وبقى أن البيت ردىء النسج ، ركيك الصياغة فى جملته ، ثم إن النقاد يعيبون استعمال لفظة « الدنى » ويعدونها من الألفاظ غير الشعرية .

* * *

وقوله — يمدح أبا الشعائر الحمدانى — :

ليس قولى فى شمس فعلك كالشمس م ولكن كالشمس فى الإشراق

شبه قوله بنفس الشمس ، وشبه فعل الممدوح بأشعة الشمس التى تملأ الكائنات .

أى إن قوله : فى فعل الممدوح الذى هو كالشمس ، ليس كالشمس فيكون مكافئا له ، ولكن نسبة قوله إلى فعل ممدوحه كالشمس بالنسبة إلى إشراقها ، فإنه أوسع من جرمها أضعافا مضاعفة .

وفى بعض الروايات :

ولكن فى الشمس كالإشراق .

والمعنى : أن قوله لا يبلغ فعل الممدوح فى الشرف والرفعة ، ولكن يدل عليه فيكون بمنزلة الإشراق من الشمس .

---

(١) الصناعتين ٣٥٤ .

وقد أورد العسكرى هذه الرواية فقط ، وصرح بأن حقيقة هذا البيت لا يوقف عليها[١] .

• • •

وقوله — يمدح سيف الدولة ويصف نكايته بالروم — :

نثرتهم فوق الأحيدب كله   كما نثرت فوق العروس الدراهم

يريد : أنه مزقهم كل ممزق فوق هذا الجبل ، وبدد جثثهم أشلاء ، كما تتبدد الدراهم التى تنثر فوق العروس .

والتشبيه جيد من هذه الناحية ، ولكن يعيبه عدم التوافق فى الجو العاطفى ، فالشطر الأول يهيم بك فى جو قابض كئيب عابس ، جو الموت والجراح والدماء والأشلاء والأنين والتوجع !

والثانى ينقلك إلى جو ضاحك مرح فرح بهيج ، جو العروس المجلوة على المنصة فى أبهى زينتها ، بين أترابها الناضرات يرقصن ، ويغنين ، ويتخطرن ويسكبن فوقها النثار .

وأين هذا من ذاك ؟

• • •

وقوله — يمدح القاضى أحمد بن عبد الله الإنطاكى — :

وأما وحقك وهو غاية مقسم   للحق أنت وماسواك الباطل[٢]

الطيب أنت إذا أصابك طيبه   والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وتقديره : الطيب أنت طيبه إذا أصابك ، والماء أنت الغاسل له إذا اغتسلت ؟

وقد ألم فى البيت الأخير بقول القائل :

---

(١) الصناعتين — ٣٥٧ .

(٢) مقسم : بكسر السين وفتحها على أنه اسم فاعل أو مصدر ميمى .

وتزيدين أطيب الطيب طيبا إن تمسيه أين مثلك أينا

ولكنه تعسف فى اللفظ :

• • •

وقوله — يمدح شجاع بن محمد الطائى — :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

وتقديره : أنى يكون آدم أبا البرايا ، وأبوك محمد ، وأنت الثقلان ؟

• • •

وقوله يصف الناقة :

فتبيت تسئد مسئدا فى نيها إسآدها فى المهمه الإنضاء[1]

وتقديره : فتبيت تسئد حال كون الإنضاء مسئدا فى شحمها إسآدها فى الصحراء .

والمعنى : أن ناقته تبيت سائرة والهزال يسير فى شحمها ، كما تسير هى فى الفلاة .

• • •

وقوله :

حملت إليه من ثنائى حديقة سقاها الحجا سقى الرياض السحائب

أى سقى السحائب الرياض ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه .

• • •

وقوله :

رمانى خساس الناس من صائب استه وآخر قطن من يديه الجنادل

---

(١) الإسآد : إدمان السير أو سير الليل بلا تعريس والنى : الشحم ، والمهمه : الصحراء .

والمعنى : رمانى رُذال الناس ممن يرمى فينقلب رميه إليه ، وممن تصير الصخور فى يديه كالقطن عديمة الأثر .

وفيه ركاكة ، وسفسفة ألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم .

• • •

وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجـــلا

• • •

وقوله :

وأقسم لو صلحت يمينَ شىء لما صلَح العباد له شِمـــالا

• • •

وقوله :

من بعد ماكان ليلى لا صباح له كأن أول يوم الحشر آخره

وفى هذه الأبيات إفراط فى المبالغة ، وخروج إلى الإحالة .

• • •

وقوله فى وصف الخمر :

هجرت الخمر كالذهب المصفّى فخمرى ماء مزن كاللجين

كأن بياضها والراح فيها بياض محـــدق بسواد عين

والتشبيه فى البيت الثانى غير متلائم ولا محكم إلا من حيث الإحداق والإحاطة .

ولـكن من حيث الشبه فى اللون غير منسجم ، لأن الخمر ليست بسوداء اللون إلا فى بعض الحالات النادرة .

• • •

وقوله :

كــبر العِيان علىّ حتى إنه   صار اليقين من العيان توهـُّما

* * *

وقوله :

ولولا أننى فى غير نوم   لكنت أظنُّنى منى خيالا

وفيه استعمال كلمات الصوفية المعقدة ، ومعانيهم المغلقة .

* * *

وقوله — يصف خيل سيف الدولة فى عدْوها — :

خرجن من النقع فى عارض   ومن عرق الركض فى وابل

وما بــين كاذَتَىْ المستغير   كما بين كاذَتَىْ البــائل

الكاذة : لحم الفخذ ، والمستغير : طالب الإغارة .

والمعنى : أن المستغير من هذه الخيل كان يفرّج بين رجليه لشدة عدوه كما يفعل البائل لئلا يصيبه البول .

أو أنه كان يعرق فى عدوه فيسيل العرق من بين فخذيه كما يسيل بوله .

والمعنى — كما ترى — فسل رذل ، وليس فيه كبير طائل ، بل فيه إساءة الأدب بالأدب كما يقول الثعالبي(١) .

* * *

وقوله :

كتمت حبك حتى منك تَكرِمة   ثم استوى فيه إسرارى وإعلانى

كأنه زاد حتى فاض عن جسدى   فصار سقمى به فى جسم كتمانى

والمعنى : كتمت حبك حتى غلب علىّ الوجد فظهر ، وتساوى فيه كتمى

---

(١) يتيمة الدهر — ١ — ١٤٥ .

وإشفاقى ، فكأنه زاد حتى فاض عنى ، وصار جسما على جسمى ، وحينئذ سرى سقم جسمى إلى جسم الكتمان فضعف ، وافتضح ما كان مكتوما عندى .

والتشبيه مستغلق مبهم لا يفهم بغير عسر وعناء !

• • •

وقول بعضهم :

شبيه أبيه خِلقــة وخليقــة　　كما حُذيت يوما على أختها النعل

وذكر النعل هنا أقبح القبح ، ومن يرضى مثل هذا الوصف ، يجب أن يحكم عليه بالتجرد من الذوق .

• • •

وقول ابن فِرناس :

رأيت أمير المؤمنين محمـــدا　　وفى وجهه بَذر المحبة يُثمر

فقال له مؤمن بن سعيد : قبحا لما ارتكبته ! جعلت وجه الخليفة حرثا يُثمر فيه البذر ! لخجل[1] .

وقد كان من السهل أن يقتدى بأبى تمام فى قوله :

هى البدر يُغنيها توَدُّد وجهها　　إلى كل من لاقت وإن لم توَدَّد

• • •

وقول أبى نصر بن نباتة :

فإياكم أن تكشفوا عن رءوسكم　　ألا إن مِغناطيسهنّ الذوائب

ومغناطيسهن كلمة غير مرضية ، لأنها من مصطلحات العلوم ، ثم لكثرة حروفها وخروجها عن حدّ الاعتدال[2] .

---

(١) نفح الطيب — ٢ — ٢٣٢ .
(٢) سر الفصاحة — ٨٠ .

فهى مثل سويداواتها ، وسراويلاتها فى قول المتنبى :

إن الكرام بلا كرامٍ منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

وقوله :

إنى على شغفى بما فى خُمرها لأعِفُّ عما فى سراويلاتها

وقول أبى تمام :

العِيس تعــلم أن حوباواتها ربح إذا بلغتك إن لم تنحر

وكلها مفرط فى الطول والثقل :

* * *

وقول بعض المولدين :

أسفرى لى النقاب ياضرة الشمس

وقد استرذل :

قال الرمانى : أتراه ظن أن الضرة لا تكون إلا حسنة[1].

ونحن لانوافقهم على هذا الرأى ؛ فقد لاتكون الضرة حسنة دائما ، ولكن مما لاخلاف فيه أنها توحى بالمثلية على الأقل ، لأن الضرتين فى الأصل : الألية من جانبى عظمها .

فالضرة مساوية للضرة ، وكل ضرة ند للأخرى ، ومتى ثبت ذلك انتفى العيب عن ضرة الشمس ، لأنها تشاكل الشمس فى صفاتها حتى لتضارّ بها .

وفى شعر الحسن بن وهب ما يؤيد ذلك ؛ فقد ذكروا : أنه قدم إليه كانون وكان معه قينة يهواها ، فأمرت بإبعاد الكانون فأنشأ يقول :

بأبى كرهت النار حتى أبعدت فعرفت ما معناك فى إبعادها

---

(١) العمدة — ١ — ٨٣ .

هى ضرة لك بالتماع شعاعها ... وبحسن صورتها لدى إيقادها[١]

وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها ... بأراكها وسيالها وعرادها[٢]

شركتك فى كل الأمور بحسنها ... وضيائها وصلاحها وفسادها

فهو يجعلها ضرة بكل ما تفيده هذه اللفظة من معانى الاشتراك بين الضرتين، حتى فى الصلاح والفساد.

على أن المعروف أن الضرة الثانية، تكون فى الأعم الأغلب أكثر شبابا أو جمالا، ومن ثم حدثت الرغبة فيها ولم يكتف بالأولى، فكأن الشاعر حين قال هنا: ياضرة الشمس، قال ضمنا: يامن هى أشب شبابا وأجمل جمالا!

وأقوال الشعراء تشير إلى ذلك؛ فابن لنكك يقول:

البدر والشمس المنير ... ة والضحا والكوكب

أضحت ضرائر وجهها ... من حيث يطلع تغرب

ويقول أبو محمد بن سفيان الأندلسى:

ياضرة الشمس قلبي منك فى وهج ... لو كان للنار لم تسكن حشا حجر

ويقول أبو العلاء بن أبى الندى:

ياضرة القمرين من لتيم ... أرديته وأحلت ذاك على القضا

وحياة وجهك لم ينم عن سلوة ... بل كان ذلك للخيال تعرضا

لاتأسفى أن زار طيفك فى الكرى ... ما كان إلا مثل شخصك معرضا

ويقول ابن محيريز البغدادى:

---

(١) هذه رواية العمدة، وفى أمالى القالى: بالتماع ضيائها.

(٢) السيال كسحاب: نبات له شوك أبيض طويل، والعراد كسحاب أيضا: نبت، والغليظ العاسى منه.

يا نساء الحى من مضر إن سلمى ضرة القمر
إن سلمى — لافجعت بها — أسلمت طرفى إلى السهر
فهى إن صدت وإن وصلت مهجتى منها على خطر
وسواد الشعر أسكنها فى سواد القلب والبصر

ويقول آخر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا إنه لدميم

فهؤلاء الشعراء جميعا لم يصفوا هؤلاء الحسان بأنهن ضرات الشمس والقمر والنار ، إلا لما صح فى خيالهم من أن الضرة لاتكون إلا ذات ميزة عن سالفتها .

• • •

وقول كُشاجم :

والزهر والقطر فى رباها ما بين نظم وبين نثر
حدائق ؛ كف كل ريح حلّ بها خيط كل قطر

والبيت جميل المعنى ، رائع الوصف ، مصيب التشبيه ، ولكن صياغته جعلت نطقه ثقيلا على اللسان ، وشابته بالتنافر ، حتى قال فيه ابن الأثير : وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه فى شدقه ، حتى يديره له[١] .

• • •

وقول الحسن بن طباطبا الإصبهانى[٢] :

منعم الجسم تحكى الماء رقته وقلبه قسوة يحكى أبا أوس

---

(١) المثل السائر — ١١٨ .
(٢) الصناعتين — ٣٦٠ .

يريد بأبي أوس : الحجر ؛ إذ هو : أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف.

أي قلبه حجر في قسوته فأبعد التناول .

وقد كتب إليه أبو مسلم :

أبا حسن حاولت إيراد قافية ... مصلبة المعنى فجاءتك واهيه

وقلت أبا أوس تريد كناية ... عن الحجر القاسي فأوردت داهيه

فإن جاز هذا فاكسرن غير صاغر ... فمي بأبي القرم الهمام معاويه

وإلا أقمنا بيننا لك جدّه ... فتصبح عنوًا بصفّين ثانيه

يريد بأبي معاوية : أبو سفيان واسمه : صخر بن حرب .

ويريد بجده : حرب بن أمية .

أي أكسر في بصخر ، وإلا أقمنا بيننا حربا تعيد وقعة صفين مرة أخرى .

• • •

وقول آخر :

إن التي ملكتني في الهوى ملكت ... بجامع الحسن حتى لم تدع حسنا

رنت غزالا وفاحت عنبرا وبدت ... شمسا وماجت غديرا وانثنت غصنا

ومثله في قول آخر :

منوع الحسن يبدي من محاسنه ... لأعين الناس أوصافا وأشكالا

فافترّ درا وغنى بلبلا وسطا ... عضبا وماس نقا واهتزّ عسالا[1]

ولا مرية في جمال صور البيان إذا نظر إليها على انفراد في هذه الأبيات ، فقد شبه فيها المحبوب بأكمل مايشبه به ، ولكن العيب جاء من

(١) النقا : الكثيب من الرمل ، والعسال : الرمح المهتز .

ازدحام التشبيهات وتراكمها ، حتى لتشعر بالتكلف وقصد الصنعة .

وأخفّ من ذلك مئونة قول الثعالبي :

فديتك يا أتم الناس ظرفا   وأصلحهم لمتخذ حبيبا
فوجهك نزهة الألحاظ حسنا   وصونك متعة الأسماع طيبا
رنا ظبيا وغنّى عندليبا   ولاح شقائقا ومشى قضيبا

ومن التشبيه المتجاوز حد الفسولة : ما حدّث الصولي : من أنه كان لمحمد بن الحسن الحصني ابن .

فقال لأبيه : إني قد قلت شعراً — وكان الحصني سيداً ظريفا - فقال : أنشدنيه يا بني لئلا يلعب بك شيطان الشعر !

قال : فإن أجدت أتهب لي جارية أو غلاما ؟

قال : بل أجمعهما لك .

فأنشد الابن :

إن الديار بيّفا   هيّجن حزنا قد عفا
أبكينني لشقاوتي   وجعلن رأسي كالقفا

فقال : يابني ، والله ماتستأهل بهذا الشعر جارية ولا غلاما ، ولكن امك طالق ثلاثا إذا ولدت مثلك !

* * *

ومن الشعر الحديث على سبيل المثال قول إسماعيل صبري :

أنت يمُّ الحسن فيه ازدحمت   سفُنُ الآمال يزجيها الرجاء

لم تجر العادة أن يقال للحسناء : أنت يم الحسن أو نهر الحسن أو بحر الحسن ، وإنما غير منكور أن يقال لها : روضة الحسن مثلا .

هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فإن الذوق ينفر من تصور

هذه الحسناء بحراً زاخراً حشدت فيه سفن الآمال ، تشقه طولا وعرضا وجيئة وذهوبا !

وكان الأفضل أن يصورها كعبة تطوف بها الآمال ، أو قبلة تتجه إليها الرغائب !

ومع أنى لست من أنصار عصر الشعر ، وتطبيقة على قوانين المنطق ، إلا أنى أرى أنه لايصح أن يبلغ فيه التجوز ، إلى هذا الحد الصارخ المجانب للذوق السليم !

وكثيراً مايغزو القبح التشبيه من جميع جهاته ، حتى يحول قبحا مجسداً يخدش الحاسة الفنية من حيث نظرت إليه .

ولا أجد مثالا أنطق بذلك وأجمع له ، من قول ديك الجن الحمصى فى ابتداء قصيدة :

كأنها ما كأنه خلل الخُلَّة م وَقفُ الهلوك إذ بغما

ومن العسير فهم هذا البيت قبل شرح مفرداته .

فالضمير فى « كأنها » للمحبوبة ، وفى « كأنه » للغزال :

« والخلة » بالضم : نبات يرعى ، والوقف بفتح الواو : السوار من العاج وغيره ، والهلوك : الجارية الحسنة المشى ، المتهالكة فيه ، أو البغى الفاجرة ، وبغم : صاح .

والمعنى : أن عشيقته فى جيدها وعينها ، كأنها الغزال الذى كأنه بين نبات الخلة ، سوار الجارية المتهالكة فى المشى أو البغى !

فما هذا كله ! وأى شىء تحته !

وقد أنشد ديك الجن شعره هذا دعبلا الخزاعى فقال دعبل : أمسك فو الله ماظننتك تم البيت الأول ، إلا وقد غشى عليك ! أو تشكيت فكيك ولكأنك فى جهنم تخاطب الزبانية ، وقد تخبطك الشيطان من المس !

وإنما أراد ديك الجن أن يهوّل عليه ، ويقرع سمعه عسى أن يردعه ، فسمع منه ما كره أن يسمعه ولعمرى ماظلمه دعبل !.

ولقد أبعد ديك الجن مسافة الكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت قبيح من جميع جهات :

منها إضمار ما لم يذكر قبل ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولا كثر استعماله فيشهر .

ومنها إحالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذى هو حشو فارغ .

ومنها استدعاء قافيته لا لشىء إلا لفساد المعنى واستحالة التشبيه !

ثم ما الذى يريده « بيغم » فى تشبيه الوقف — وهو السوار — ؟ ولم كان الوقف للملوك خاصة[1] !

---

(١) العمدة — ١٤٧ .

الفصل السادس

أثر البيئة فى التشبيه

حينما نُنعم النظر فى التشبيهات التى تعرِض لنا ، لا يُعيينا كثيراً أن نفسبها إلى عصورها التى قيلت فيها ، كما نستطيع أن نتبين مظاهر البيئة الطبيعية التى أحاطت بأصحابها ، وألوان المعارف التى ألموا بها ، ومبلغ حظهم من الرقى والتأخر ، والرفاهية والخشونة ، والغنى والفقر وما إلى ذلك .

وليس ذلك بعجيب ، فإن خيال المنشىء كاتبا كان أو شاعراً أو خطيبا يستظهر فى تأليف صوره وتحبيرها بالمعلومات المختزنة لديه .

وهذه المعلومات يلقفـها مما تقع عليه حواسه ، أو يقبسها من موارد العلوم والآداب ، والثقافات المختلفة التى حصّلها ، أو يستمليها من التجارب الشخصية التى مرت به فى الحياة ، وهذه كلها حقول خصيبة لا ينفد نتاجها ولا يفنى محصولها .

فالبيئة التى نعنيها هنا هى ما أرادته « مدام دى ستايل » : من أنها معنى يتسع لكثير من الاعتبارات الاجتماعيـــة ؛ مثل الدين والخلق والعادات والقوانين التى تؤثر فى الآداب ...

وقد كانت هذه الأديبة الكبيرة تعلّق على مسألة البيئة كثيراً ، وترى أنها وحدها مبتكِرة وأنها فنية ومُعينة على الفن ، ولا تفهمها على أنها طبيعية فقط ، ولكن على أنها خصائص مادية وعقلية وروحية .

ثم هى ترى أن البيئة أوجدت أدبا ، وأوجدت الفروق بين الآداب ، فإذا كان أدب الجنوب فى أوربا كلاسيكيا اتباعيا ، فلأنه قريب من الأدب

اليونانى واللاتينى ، وإذا كان أدب الشمال رومانسيا ابتداعيا ، فلأنه من أدب البحار ، استمد الغيوم والسحب ووصف المخاوف والمفاجآت ، ووصف المحيطات وما حولها من أقاصيص .

ولعل نشأة أدب القصة فى الشمال ينسب إلى البيئة أيضا ، وما يلتف حولها من أخيلة ، مسكنها الأحراش والأدغال ، ومسرحها أخطار البحار وأخطار الأسفار ، وتصورات الملاحين[1] .

وفى ظل البيئة الشرقية قامت فنون أدبية خاصة اتّسمت بسمات خاصة ، كوصف الرياض والأزهار والأثمار والفواكه والنسيم ، ومظاهر الربيع الفاتنة البهيجة فى البلاد الشجرية التى تمايز فيها الفصول تمايزاً ملحوظا .

وكوصف النار ومواقدها وآلات التدفئة ، والثلج والبرد فى البلاد التى يقسو فيها الشتاء ، ويشتد الزمهرير ، ويكلّب الصقيع .

وكوصف السحب والرعود والبروق والصواعق فى البـــلاد القاتمة الأجواء ، الغزيرة الأمطار .

وكوصف الأديار والخمر المعتق والبِيَع والرهبان ، والنسيب بالرواهب ، الكتابيات الجميلات فى البلاد التى يكثر فيها المسيحيون واليهود والصابئة .

وكوصف المواسم الدينية وحفلاتها ومباهجها فى مصر أيام العهد الفاطمى .

وكرثاء المدن الذاهبة ، والاستنجاد بالرسول والأولياء وملوك المسلمين فى الأدب الأندلسى .

وكالحماسة الصارخة بالدم ، والدعوة إلى الجهاد ، والشغف بالاستشهاد فى أدب الخوارج .

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٢٧١ .

وكالابتهال العميق والرثاء الفاجع والحزن الغـــامر فى أدب الشيعة وهكذا .

ومن ثَمّ كان لابد أن تختلف التشبيهات فى أساليبها ومعانيها وأخيلتها باختلاف صُوّاغها الذين يختلفون فى المربى والمنشأ والثقافة والزمن ، والنظر إلى الأشياء وتناولها وتقديرها والحكم عليها .

ولقد صدق أحد الفلاسفة فى قوله : إنى لا أسأل عن السبب فى أن معنى من المعانى يدعو آخر ويأخذ بناحيته ، ولكنى أبحث فى شىء آخر وهو أن المعنى الواحد قد يختلف تواليه باختلاف الأشخاص .

ثم يقول : ويمكن الجواب عن هذا : بأن الناس يختلفون فى ميولهم وشُعَب وجهتهم فى الحياة ، فكل معنى يدعو لصاحبه ما هو ألصق بميله وأقرب إلى عمله[1] .

فمثلا إذا سمعنا هذا البيت :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يُكوى غيره وهو راتع[2]

حكمنا : بأنه من آثار الجاهلية ؛ فإنه يشير إلى عادة من عاداتهم ؛ وذلك أنهم كانو يزعمون : أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصحيح وكووه زال العر عن السقيم[3] .

والبيت للنابغة الذبيانى

وقول شاعر :

بدّلته الشمس من منبتهـــا بردا أبيض مصقول الأُشُر[4]

---

(١) الخيال فى الشعر العربى — ١٨ .

(٢) العر بالفتح والضم : الجرب ، وبالضم : قروح فى أعناق الفصلان ، وداء يتمعط منه وبر الإبل .

(٣) نهاية الارب — ٣ — ١٢٣ .

(٤) الأشر بضمتين ، وبضم وفتح : التحزيز فى الأسنان خلقة واستعمالا .

وذلك أن غلمانهم كانوا إذا سقطت أسنانهم، رموا بها فى عين الشمس بسبّاباتهم وأباهيمهم، وقالوا: أبدلينا أحسن منها.

ولا تزال هذه العادة جارية فى القرى حتى اليوم.

والبيت لطرفة بن العبد.

وقول آخر:

إنى وقتلى سُليكا ثم أعقلَه كالثور يضرب لما عافت البقر

فقد كان من عاداتهم — إذا امتنعت البقر عن الشرب حين الوِرد — ضربوا الثور، لتخاف وترد الماء.

والبيت لأنَس بن مدرك الخثعمى.

وكذلك إذا سمعت التشبيهات الآتية لم تتردد فى الحكم عليها: بأنها نتاج الجاهلية، أو نتاج الصحراء دون أن تعرف أسماء أصحابها، كقول امرىء القيس:

ترى بَعر الآرام فى عَرصاتها وقيعانها كأنه حَبّ فُلفل

والآرام: الظباء البيض الخالصة البياض، وهى تسكن الرمل عادة.

وقوله:

كأنى غداة البين يوم تحمّلوا لدى سُمُرات الحىّ ناقف حنظل

وناقف الحنظل ينقُفها بظفره، فإن صوّتت علم أنها مدركة فاجتناها، فعينه تدمع لحدة الحنظل وشدة رائحته، كما تدمع عينا من يدوف الخردل.

فشبه نفسه حين بكى بناقف الحنظل[1].

وقول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرامُ

---

(١) الشعر والشعراء — ٥٢.

ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

الأجبّ : المقطوع السنام من الإبل .

والتشبيه صورة واضحة من صور البداوة .

وقول ضِرار السعدى :

وإنى وتَهيامى بزينب كالذى تطلّب من أحواض صَدّاء مشربا

وصداء ككتان : ركية أو عين ليس عندهم أعذب منها .

وقول العملّس بن عقيل لأبيه :

أكلتَ بنيك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلأ الوبيل

وكانوا يقولون : إن الضب يأكل أولاده عقوقا منه لها ، والقطة تأكل أولادها حبا لها .

أما ترى القطة من ودادها تأكل ماعزّ من أولادها

وقول أبى ذؤيب الهذلى — يصف حمر الوحش — :

يعثُرن فى علَق النجيع كأنما كُسيت برودَ بنى تزيد الأذرع

يصف أذرع الحمر الوحشية — وهى تعثر فى الدم — بأنها كسيت هذه البرود المنسوبة إلى بنى تزيد وهم بطن من قضاعة .

وقول عبدة بن الطبيب فى الصعلكة :

ثُمّت قمنا إلى جُرد مسوّمة أعرافهن لأيدينا مناديل

وهو مأخوذ من قول أمرئ القيس :

نمُشّ بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مُضهّب

المش : مسح اليد بالمشوش لتنظيفها وقطع دسمها ، والمضهب المشوى على الحجارة المحماة ، والذى لم ينضج ، وقد كانوا يمسحون أيديهم بعد الأكل فى أعراف الخيل .

وقول جبيهاء الأشجعى :

كأن أجيج النار إرزامُ شخبها   إذا امتاحها فى مِحاب الحيُّ مائح

الشخب بالضم والفتح : ما خرج من الضرع من اللبن ، والإرزام : الصوت .

شبه ضرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بالأزيز .

وقول سويد بن أبى كاهل اليشكُرى :

وجفِـــان كالجوابى مُلئت   من سمينات الذُّرا فهى تَرَع[1]

وقول عوف بن عطيه بن الخرَع — يصف فرسه — :

لها حافر مثل قَعب الوليد   يتخذ الفـــار فيه مُغارا

لها كفَـل مثن الطِّرا   ف مدَّ فيه البُناة الحِتارا

وقول عنترة :

بطل كأنه ثيابه فى سَرحة   يُحذى نعال السِّبت ليس بتوءم

السبت بالكسر : جلود البقر ، وكل جلد مدبوغ ، أو مدبوغ بالقرظ . والنعال السبتية لم يكن يحتذيها بينهم إلا كل رجل شريف ، فوصف عنترة من قتله بأنه كان ملكا .

وقول مُزرِّد أخى الشماخ :

وأسحم ريان القـــرون كأنه   أساود رمان السباط الأطاول

الأساود : الحيات السود ، ورمان بفتح الراء : موضع بيلادطىء ، والسباط : اللينة .

يشبه شعر محبوبته بحيات هذا المكان اللينة الطوال .

---

(١) الترع : المملوءة .

(٢) الطراف بالكسر : البيت من الأدم ، والحتار بالكسر : الحبل .

وقوله يصف الرمح :

أصم إذا ما هُزّ مارت سَراته كما مار ثعبان الرمال المُوائل

سراته : أعلاه ، والموائل : المحاذر الذى يلتمس النجاة .

يشبه الرمح — إذا اضطرب أعلاه لدى هزه — باضطراب ثعبان الرمل فى مشيه ، حين يبتغى الملجأ ويطلب السلامة .

وقول جِران العَـود :

الا لا يغرنّ امرءاً نَوْفليةٌ على الرأس بعدى أو ترائب وُضَّح

ولا فاحم يُسقى الدهانَ كأنه أساور يَزهاها لعينك أبطح

النوفلية : ضرب من المشط ، أو شىء يتخذه نساء الأعراب من صوف يكون فى غلظ الساعد ، ثم يحشى ويعطف ، فتضعه المرأة على رأسها ثم تختمر عليه .

ويزهاها : يرفعها ويحركها .

شبه شعرها الفاحم الدهين ، بالحيات المضطربة فى المسيل الواسع ، به دُقاق الحصى .

وقول الشيبانى .

وللحلى وَسواس عليها إذا مشت كما اهتز فى ريح من الصيف عِشرق

العشرق بالكسر : شجر قدر الذراع ، لها حب صغار إذا جف صَوّت بمرور الريح .

شبه وسوسة الحلى لدى مشيها ، بصوت هذا الشجر إذا حركته الريح .

وقول رجل من عبد قيس :

تركت الرمح يبرُق فى صَلاه كأن سنانه خرطوم نسر

الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، والخرطوم : المراد به منقار النسر .

شبه الرمح بمنقار النسر فى دقته ونفاذه .

وقول عمرو بن الأيهم التغلبى فى الخيل :

وتراهن شُزَّبًا كالسعالى يتطلَّعن من ثغور نقاب

الشزب : الضوامر . والسعالى : الغيلان ، أو ساحرات الجن جمع سعلاة بالكسر ، والنقاب : طرق الجبال .

شبه الخيل فى ضمورها وألوانها المختلفة بالسعالى .

وقول عويمر النبهانى :

فبت معنًّى بالهموم كأننى سليم نفى عنه الرقادَ الجلاجل

شبه نفسه فى همومه المنفرة للنوم عنه ، بالملدوغ تعلَّق عليه الجلاجل حتى لا ينام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملدوغ إذا نام سرى السم فى جسمه

وقول شاعر يهجو كعب بن جعيل التغلبى :

وسُمِّيت كعبا بشرِّ العظام وكان أبوك يسمى الجُعَل

وكان محلك من وائل مكان القُراد من است الجمل

يصفه بأنه ينزل من القبيلة أحط المنازل ، كما ينزل القراد فى أخس المواضع .

والتشبيه نابت فى معاطن الإبل :

وقول عُروة بن الورد — يمدح صعلوكا مثله[1] — :

مُطلٌّ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهَّر

المنيح بالفتح : من قداح الميسر التى لا حظ لها كالسفيح والوغد[2] :

---

(١) ديوان الحماسة — ١ — ١٦٠ .

(٢) الميسر والأزلام — ٣٧ .

والمعنى : أنه مطل على أعدائه بالغارة فيدفعونه عن ساحتهم ؛ كالقِدْح الذى لا حظ له ، ينفر منه كل واحد فهو مدفوع أبدا .

وقول أبى ثمامة الضبى :

كجارك عنـــد بيتك لحم ظبى　　وجارى عند بيتى لا يرام

يقول له : إن جارك لضعفك ذليل معتدى عليه ، مثل ظبى يتناوله كل مفترس ، وجارى لقوته عزيز لا يستطيع أحد أن يصل إليه بأذى .

وقول مجمع بن هلال :

وخيل كأسراب القطا قد وَزَعتها　　لها سَبَل فيه المنية تلمع

السبل محركة : المطر ، ووزعها : كفها :

شبه الخيل فى اجتماعها بأسراب القطا ، وتتابعها فى الغارة بتتابع المطر وتدفعه .

وقول الأخنس بن شهاب التغلبى :

ترى رائدات الخيل حول بيوتنا　　كمعزى الحجاز أعجزتها الزرائب

الرائدات : التى ترعى ولا تعلف فى البيوت .

شبه خيولهم بكثرتها حول بيوتهم، بمعزى الحجاز التى لا تتسع لها الزرائب:

وقول امرأة ترثى أباها :

إذا ما دعا الداعى علياً وجدتنى　　أراع كما راع العَجولَ مُهيب

العجول : الناقة التى فقدت ولدها ، والمهيب : الراعى الذى ينادى لإبل.

شبهت نفسها بأنها تراع — إذا سمعت اسم والدها — كما تراع الناقة الفاقدة إذا ناداها الراعى ؛ لأن فقدها ولدها جعلها تفزع لأقل الأسباب .

وفى معناه يقول المجنون :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى　　فهيّج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وقول عبد الله بن عجلان النَّهدى :

جديدة سِربال الشباب كأنها سَقيَّة بردى نمته غُيولها

السقية : المسقية ، والبردى : نبت ناعم ، والغيول : الوديان تسيل فيها العيون ؛ جمع غيل بفتح الغين .

شبهها فى نضارة شبابها وميعة صباها ، بنبتة من البردى تسق بماء الوديان.

وقول عُروة بن حِزام :

كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما وقامت عنانا مهرة سَلِسَان

شبه وشاحيها فى حال قيامها بعنانى المهرة المسترسلان .

وقول الشماخ بن يعمُر الكنانى :

كلما حاربت خُزاعة تحدو نى كأنى لأمهم جمل

وقول الحارث بن وَعلة الجَرمى :

ووطِئتنا وطأً على حنق وطء المقيَّد نابت الهرم

الهرم بإسكان الراء : شجر ضعيف :

شبه وطأهم بوطء البعير المقيد ؛ لأنه يكون أثقل لعدم تمكنه من وضع قوائمه حسب إرادته .

وقول رشيد العنبرى :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزُّلَم

ابن هند : شريح بن ضبيعة ، والزلم : واحد الأزلام ، وهى السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .

وقول متمم بن نويرة — يصف حمار الوحش وأتانه — :

يعدو تبادره المخارم سَمحج كالدلو خان رشاؤها المتقطع

الضمير فى يعدو لحمار الوحش ، والمخارم الطرق فى الجبال ، وأفواه الفجاج ، والسمحج : الصلبة القوية يريد بها الأتان .

شبهها فى سرعتها بالدلو حين انقطع رشاؤها فسقطت فى البئر ، فهو يعدو ، والأتان تسابقه .

وقوله — يصف السيف — :

ولقد ضربت به فتسقط ضربتى   أيدى الكماة كأنهن الخروَع

شبه سقوط أيدى الكماة حين يضربها بسيفه بسقوط الخروع ، لأنه شجر لين .

وقوله :

وأرملة تمشى بأشعث مُحثَل   كفرخ الحُبارى رأسه قد تضوعا

الأرملة : التى مات زوجها ، والأشعث المتلبد الشعر ، والمحثل : الذى أسىء غذاؤه : يريد به ولدها ، والحبارى : ضرب من الطير ، وتضوع : تفرق ؛ يريد شعره .

شبه ولد هذه الأرملة فى مظاهر الضر البادية عليه ، بفرخ الحبارى المتفرق شعر الرأس .

وقول الشنفرى — يصف حركات السيوف — :

تراها كأذناب الحَسيل صوادرا   وقد نهِلت منه الدماء وعلّت

الحسيل : أولاد البقر جمع حسيلة .

شبه السيوف بأذناب أولاد البقر ، حين تحركها إذا رأت أمّاتها .

وقول ثعلبة بن صُعَير المازنى فى وصف النعامة :

فبنت عليه مع الظلام خباءها   كالأحمسية فى النصيف الحاسر

الضمير فى « عليه » لبيض النعامة . والأحمسية : المرأة المنسوبة إلى

الحمس ، وهم : قريش ، وخزاعة ، وبنو عامر ، وكنانة ، وجديلة ؛ سموا بذلك لتحمسهم فى دينهم ، أو لالتجائهم إلى الحمساء وهى الكعبة ، والنصيف ؛ القناع ، والحاسر : الكاشفة لوجهها ورأسها .

شبه النعامة فى جثومها على بيضها ، بالمرأة الأحمسية الملتحفة بقناعها والحاسر عن وجهها ورأسها .

وقول المثقّب العبدى — يصف الخيل — :

وأمكن أطراف الأسنة والقنا يعاسيب قُود كالشِّنان خدودها

اليعاسيب : أراد بها كرام الخيل ، والقود : الطوال الأعناق جمع أقود وقوداء ، والشّنان : القرب البالية جمع شن بالفتح وتشديد النون .

شبه خدود الخيل فى قلة لحمها بالقرب البالية .

وقول سُبَيع بن الخطيم التيمى — يصف المطر والنبات — :

تنفى الحصى حَجرا ُته وكأنه برحال حميرَ بالضحا محفوف

الحجرات بالفتح : النواحى : يريد أن شدة وقع السحاب تطيّر الحصى ورحال حمير : أراد بها ألوان النبات الناتج عن المطر .

شبه النبات فى اختلاف ألوانه برحال حمير المختلفة الألوان ؛ لأنها رحال ملوك .

وقول بشر بن حازم فى وصف الفرس :

كأن سَراته والخيل شُعث غداة وَجيفها مسد مُغار

سراته : أعلاه ، وشعث . غبر من طول السفر ، والوجيف ؛ المر السريع ، والمسد : الحبل ، والمغار ، الشديد الفتل .

شبه أعلى ظهره فى شدته واملاسه واستوائه ، بالحبل الشديد الفتل .

وقول المرقش الأكبر — يصف الظعن — :

لمن الظعن بالضحا طافيات　　　شبهها الدوم أو خلايا السفين

الظعن : الإبل بهوادجها فيها النساء ، وطافيات : عاليات ، والخلايا : السفن العظيمة .

شبه الهوادج المضروبة على النساء فوق ظهور الإبل عاليات — كأنها تسبح فى ضياء الضحا — بشجر الدوم ، أو بالسفن العظيمة فوق ظهر البحر .

وقول ذى الرمة :

حديث كوقع القطر فى المحل يُشتفَى　　　به من جوى فى داخل القلب لاطف

اللاطف : اللاصق .

يشبه أثر الحديث فى إروائه الغلة ، وشفائه العلة ، بأثر الغيث فى الأرض المجدبة ، يحييها من الموت فتهتز وتربو .

وقول مسكين الدرامى :

كأن قدور قومى كل يوم　　　قباب الترك مُلبَسة الجِلال

كأن الموقدين بها جمال　　　طلاها الزفت والقَطِران طالى

بأيديهم مغارف من حديد　　　أشبهها مُقَيَّرة الدوالى

شبه قدور قومه فى عظمها واتساعها وسواد ظاهرها ، بقباب الترك التى ألبست أغطية سودا .

وشبه الموقدين بها — أى المشرفين عليها — بالجمال المطلية بالزفت والقطران لما أصابهم من السواد .

وشبه مغارف الحديد التى بأيديهم ، بالدلاء المغلية بالقار وهو الزفت

والصورة معرقة فى البداوة والخشونة ، ويكفى أن تغرق فى الزفت والقطران إلى هذا الحد !

وقول شاعر — يصف الصحراء — :

كأن قلوب أدلاّئها   معلقـــة بقرون الظباء

الأدلاء : الذين يهدون الناس ، والضمير فيها يعود إلى الصحراء .

وصف قلوبهم بالوجيب والاضطراب فى أحوال الجزع والهلع .

وإنما خص الظبى لأن قرنه أكثر تحركا واضطرابا ، لنشاطه ومرحه وسرعته[١].

وقول آخر :

كأن لون البيض فى الأُدحىّ   لونك لولا صفرة الجادىّ

الأدحى : مكان بيض النعام فى الرمل ، والجادى : الزعفران .

يريد : أن لونها أصفر لتضمخها بالزعفران ، وكانت العرب تحب ذلك[٢].

هذه التشبيهات كلها تنبىء بصورها ومعانيها وأخليتها ودلالاتها وانتزاعاتها وبما تضمنته من أخلاق وعقائد وعادات ، بأن قائليها إما أن يكونوا من أهل الجاهلية ، أو من سكان البوادى ؛ لأنها بكل شياتها وسماتها بعيدة عن منازع الحضريين .

ولا ريبة أن كثيراً من أمثال هذه التشبيهات ، لا يحلى فى صدورنا ولا يندى على أكبادنا ، لأن بينه وبين أذواقنا حجابا كثيفا يجعلنا نشيح عنه وننفر منه لاختلاف الطبيعة والبيئة وبعد العهد ، إلى غير ذلك مما يلون النظر إلى الأشياء ويوجب التنافر .

---

(١) أمالى المرتضى — ٢ — ٩ .
(٢) ديوان الصبابة — ٦٩ .

فمثلا كانوا يشبهون الثغور قديما بالسَّيال ، وهو نبت له شوك أبيض طويل ، إذا نزع خرج منه اللبن ، أو هو ما طال من السَّمُر .

ومن ذلك قول نابغة شيبان :

فهي بيض حور تبسمن عن غر م وأنيابهن شوك السيال

ونحن لانستملح تشبيه الثغور الرقيقة الوضيئة بالشوك ؛ أيا كان حسنه ومزيته !

وبخاصة أننا لم نرَ هذا النوع من الشوك الذى استحسنوه فنأنس به ونألفه.

وكانوا يشبهون خصور الحسان بخصور الزنابير كما قال عمر بن أبي ربيعة :

وثلاث لقيت فى الحج يوما كظباء المها ملاح ظراف

يتقابلن كالبدور على الأغصان م فى مثقل من الأرداف

بخصور تحكى خصور الزنابير م رقاق هممن بالانقصاف

وقد جرى كثير من الشعراء فى هذا النهج حتى الشاعر المصرى الموسوم بالرقة والظرف البهاء زهير ، حيث يقول فى وصف مجلس أنس جمع غادات مسيحيات :

وجوه كالتصاوير تصلى للتصاوير

ومن تحت الزنانير خصور كالزنابير

وخصور الزنابير دقيقة رقيقة ناحلة كأشد مايكون النحول ، ولكن أذواقنا العصرية المرهفة اليوم تضيق بهذا التشبيه ، ولانرى فى الزنابير إلا أنها حشرات مزعجة مؤذية ضارة ، وأسماؤها ثقيلة على السمع ؛ تشير إلى أشياء يستحيا منها .

ولو أن إنسانا فى عصرنا قال لشوهاء بله حسناء : إن خصرك كخصر الزنبار ، ما استطاع أن يخلص منها سليم الأديم !

وكانوا يشبهون مشية المرأة بمشية الحية أو الثعبان أو الحُباب — كما سبق — أو الأيم[1] كقول بعض الشعراء :

تَسيب انسياب الأيم أخصره الندى   فرفّع من أعطافه ما ترفعا

يعنى : أنها تتدافع فى مشيتها تدافع الحية التى يلذعها برد الندى ، فترفع ماتقدر عليه من أعطافها .

ولا شك أن للحية انسيابا ، رهواً ، مع السرعة الغريبة ، ولا سيما إذا كلب عليها برد المطر وغمز جلدها ، ولكننا مع ذلك لا نرضى للغيد الأماليد تلك المشية ، ولا يرضينها لأنفسهن وإن رضيها هذا الشاعر .

وبخاصة أن العرف جرى على تشبيه المرأة بالحية فى المكر والدهاء واللؤم والخبث والدس .

ومن ذلك أيضا : أنهم كانوا يسمون المرأة الجرباء !

والجرباء فى الأصل : السماء ، أو الناحية التى يدور فيها فلك الشمس والقمر .

وقد سميت السماء بذلك تشبيها لنجومها بآثار الجرب .

وسميت بهذا الاسم بنت قسامة الطائية لحسنها الفائق ، فقد كانت لا تقف إلى جنبها امرأة — وإن كانت جميلة — إلا استقبح منظرها لجمالها !

فكان النساء يتحامين أن يقفن إلى جنبها ، فشبهت بالناقة الجرباء ، التى تتوقاها الإبل مخافة أن تعديها .

ثم أطلق هذا الاسم على كل جارية حسناء[2] .

وآثار القدامى حافلة بالتشبيهات التى استمدوها مما أحاط بهم وأثّر فيهم

---

(١) الأيم بفتح وسكون وبكسر الهمزة أيضاً : الحية الأبيض اللطيف أو هو عام .
(٢) الأغانى — ١٨ — ٢٠٣ « ساسى » .

وقد حرصنا على إيراد صدر صالح منها فيما تقدم .

ونضيف إلى ذلك أن بعض الشعراء عرف بألوان من الأوصاف والتشبيهات ، كوصف الثور الوحشى ، وتشبيه النعامة للطِّرمَّاح .

ووصف مغارز ريش النعام — إذا تساقط — للشماخ

وتشبيه بيت العنكبوت بما يمتد من زبد الناقة تحت لحييها فى شعر الحطيئة

وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحى الغراب بالجلم لعنترة .

وأشباه ذلك مما انفردت به الأعراب فى البادية كعادتها ، مثل انفرادها بصفات النيران والفلوات الموحشة ، وورود مياهها الآجنة ، وتعسف طرقاتها المجهولة ، إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً إذ كان المحدث غير مأخوذ به ولا معول عليه .

على أن المحدثين قد شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضا ، إلا أن أولئك أولى به ، وأحق بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام وكثير مما لا يتسع له هذا الباب[١] .

ومن هذا ما يتعلق بالحيوان الذى شاهدوه وخبروا طباعه خبرة تنم عن ملاحظة واسعة دقيقة ، كقولهم : أجرأ من الليث ، وأجبن من الصافر[٢] ، وأسخى من لافظة[٣] ، وأصبر على الهوان من كلب ، وأحذر من عَقْعق[٤] وأزهى من غراب ، وأصنع من سُرفة[٥] ، وأظلم من حية ، وأغدر من ذئب ، وأخبث من ذئب خَمَر ، وأشد عداوة من عقرب ، وأروغ من ثعلب ، وأحمق من حُبارى ، وأهدى من قطاة[٦] ، وأكذب من فاختة[٧] ، والأم

(١) العمدة — ٢ — ١٨٦ — ١٧٧ .

(٢) الصافر : طير جبان أو ما لا يصيد منها .

(٣) من معانيها الرحى لأنها تجود بالدقيق .

(٤) العقعق : طائر أبلق بسواد وبياض يشبه صوته صوت العين والقاف .

(٥) السرفة : دويبة تتخذ بيتا من دقاق العيدان فتدخله وتموت فيه .

(٦) لأنها تصبح قطاقطا .

(٧) فاختة : طائر .

من كلب على جيفة ، وأجمع من ذَرَّة[1] ، وأعقّ من ضبّ ، وأبرّ من هرة ، وانفر من ظليم ، وأضل من حمار أهلى ، ومن ضب ، ومن حية .

فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس فى موضع الإحسان والإساءة ، حتى كأنهم من الملومين والمشكورين .

ثم يعبرون فى هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير ، ويجعلون خيرهم مقصوراً على مافى الخلقة من الغريزة والقوى ، فيقولون : أبصر من عقاب ، وأسمع من فرس ، وأطول ذَماء من ضب ، وأصح من ظليم[2] .

وكانوا يقولون : ماهو إلا تيس فى سفينة إذا أرادوا به الغباوة .

وما هو إلا تيس إذا أرادوا به نتن الريح .

ويقولون : حية الأرض ، للرجل المنيع الجانب ، كما يقولون : حية الوادى ؛ قال ذو الإصبع العدوانى :

عذير الأرض من عدوا ن كانوا حية الأرض

ويقولون : أسرق من ذبابة .

وهى فأرة صماء تضرب بها العرب المثل ، ويشبهون بها الجاهل .

قال ابن حلزة اليشكرى :

وهم ذُباب حائر لا تُسمع الآذانَ رعدا

وسميت النجوم بالعقرب تشبيها بها[3] .

ويشبهون البُرّ بقُراضة الذهب ، وبمناقير النُّغران[4] ، والرماح بالأشطان ، والأسنة بالشهبان .

---

(١) الذرة : النملة :

(٢) الذماء بالفتح : بقية النفس .

(٣) الحيوان — ١ — ١٠٤ .

(٤) أدب الكاتب — ١١٥ — ١١٦ .

(٥) النغران بالكسر : البلابل ، وأفراخ العصافير جمع نغر كصرد .

ويقولون للخطيب : كأن لسانه مبرد ، وللطويل : كأنه رمح ، وللمهتز كأنه غصن تحت بارح[1] .

ويُشبِّهون الرجال الساقطين بالنساء الحيَّض ؛ قال الشاعر :

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة ... وفى الحرب أمثال النساء العوارك[2]

شبَّههم فى السلم بحمر الوحش فى جفائهم وغلظهم على الأقارب لشعورهم بالأمن .

وشبَّههم فى الحرب بالنساء الحيَّض لما يبدو عليهم من الذلة والانزواء .

ويقولون : أسخى من حاتم ، وأجود من كعب بن مامة ومن هرِم ، وأقرى من مَطاعيم الريح ، وأشجع من ربيعة بن مكدَّم ، وأعزّ من كليب وائل ، وأسود[3] من قيس بن عاصم ، وأحلم من الأحنف بن قيس ، وأذكى من إياس بن معاوية ، وأفتك من البرَّاض بن قيس النَّمرِى ، وأوفى من الحارث بن عُباد ومن عوف بن مُحلِّم ، ومن هانىء بن قبيصة ، ومن السموءل ابن عاديا ، وأجمل من ذى العمامة[4] ، وأمضى من سُليك المقانب ، وأغلى فداء من حاجب بن زُرارة ، ومن بِسطام بن قيس ، ومن الأشعث ، وأعدى من الشنفرى ومن السُّليك بن السُّلَكَة ، وأبطأ من فِنْد ، وأنوم من عبُّود ومن خُرَيم الناعم ، وأبلغ من سحبان ، وأخطب من سحبان ، ومن قُسّ بن ساعدة ، وأعيا من باقل ، وأبرّ من العملَّس ومن فَلْحَس ، وأسأل من فَلْحَس ، وأبطش من دَوْسر[5] ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأفرغ حجَّام ساباط ، وأندم من الكُسَعى ، وأمنع من الحارث بن ظالم ،

---

(١) البارح : الريح الشديدة ، وريح الصيف الحارة .

(٢) الأعيار : جمع عير وهو حمار الوحش ، والعوارك : الحوائض جمع عارك .

(٣) أكثر سؤددا .

(٤) هو سعيد بن العاص الأموى .

(٥) كتيبة للنعمان .

وأخيب صفقة من شيخ مَهْو ، وأخسر صفقة من أبي غَبْشان ، وأحمق من راعي ضأن ثمانين ، ومن ربيعة البكاء ، وأتيه من أحمق ثقيف ، وألصُّ من شَظاظ ، وأزنى من قرد ، وأمكر من قيس بن زهير ، وأبخل من مادر ، وأضل من سنان ، وأكذب من مسيلمة الحنفي ، ومن المهلب ، وأحمق من هبنّقة ، وأمطل من عرقوب ، وأشأم من خوتعة ، ومن قُدار ومن أحمر ثمود ، ومن طُوَيس ، ومن البسوس ، وأنجب من مارية ، ومن بنت الخُرشب ، ومن أم البنين ، ومن عاتكة ، وأبصر من زرقاء اليمامة ، وأمنع من أم قِرفة ، وأسرع من نكاح أم خارجة(١) .

وقد جمع زيد بن جندب الإيادي عدة تشبيهات مأثورة عنهم في رثاء داود بن جرير الإيادي حيث يقول :

نعى ابن جرير جاهل بعصابة فعمَّ نزارا بالبكا والتّحوُّب

نعاه لنا كالليث يحمي عرينه وكالبدر يغشى ضوءُه كل كوكب

وأصبر من عَوْد وأهدى إذا سرى من النجم في داج من الليل غيهب

وأذرب من حدّ السنان لسانُه وأمضى من السيف الحسام المُشطب

وإنك لتستطيع أن تتعرف من الأبيات الآتية على العصر الذي قيلت فيه ، وعلى حظ أصحابها من الثقافة والمدنية دون أن تقف على أسمائهم .

قال شاعر :

عهدي بهم تستنير الأرضُ إن نزلوا فيها وتجتمع الدنيا إذ اجتمعوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك وشرحه في نهاية الأرب — ٢ — ١٨٠ إلى ١١٤ .

(٢) البيان والتبيين — ١ — ٥١ .

(٣) التحوب . التوجع ، والعود بفتح فسكون : الجمل المسن .

(٤) المشطب : ما فيه طرائق .

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة كأن أيامهم من أنسها جُمَع

فكلمة الجمع تدل على أن الشعر متأثر بالشعائر الإسلامية ، وأنه محال أن يكون من آثار الجاهلية .

والشعر لأبي تمام الطائى .

وقال شاعر :

كأنه وهو فى البرج المُنيف به شمس البرية لا نار على علم

والبيت تبدو عليه شارة الحضارة ، وبخاصة إذا قسته إلى قول الخنساء :

أغر أبلج تأتمّ الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فالأول : شمس فى برج عال ، والثانى : جبل فى ذروته نار .

فالاختلاف بين النظرة البدوية والحضرية واضح كل الوضوح .

والبيت الأول لابن الرومي يمدح به أبا الصقر الشيبانى .

وقال شاعر :

كأن خضرة نقش فى معاصمها شُباك مسك على كفٍّ من البرد

فمن ملا مقلتيه من محاسنها كان الأمانَ لعينيه من الرمد

وقائل الشعر غير معروف ، ولكنك تحكم مطمئناً بأنه قيل فى حسناء من حسان العصور القديمة ، أو حسناء قروية من حسان العصر الحاضر ، ولكنها لن تكون على كل حال من حسان المدن المثقفات الأرستقراطيات لأنهن يستنكفن من الوشم .

وقال شاعر :

وأنت أنذر من لا شىء فى العدد

وهذا شعر عليه طابع الثقافة اليونانية ؛ فلا بد أن يكون عباسياً .

والبيت لأبي تمام .

وقال شاعر :

وكأن عقرب صدغه وقفت ... لما دنت من نار وجنته

والشعر ينفح بأريج الزينة والتجمل الذى نشرته الجوارى فى العصر العباسى ، فقد كن يجعلن شعر أصداغهن على صورة الواو أو النون أو العقرب .

والشاعر : ابن المعتز .

وقال شاعر :

أضحى ليوسف فى الجمال خليفة ... يخشاه كل العالمين إذا بدا
عرّج معى وانظر إليه لكى ترى ... فى خده علَم الخلافة أسودا

يريد بعلم الخلافة : الخال .

وعلم الخلافة الأسود دليل على أن الشعر عباسى لا أموى ؛ لأن شعار بنى العباس كان السواد .

وقال الصولى — يصف الرمد فى العيون الجميلة — :

يكسر لى طَرفا به حمرة ... قد خُلط النرجس فى ورده
ما احمرت العين ولكنه ... يكحُلها من وردتى خده

وقال آخر :

قالوا بدت فى عينه حمرة ... قد حازها من وردة الخد
فقلت لم يرمَد ولكنه ... يصافح النرجس بالورد

فهذه العين الرمداء فى كلا الشعرين لايشك أحد فى أنها عين تنسب إلى الشرق لا الغرب .

ولو كان لونها يخالف تلك الألوان الشرقية المألوفة ، لألقى الشاعر إليها باله ، ولما فاته أن يشير إليها .

ولكننا حينما نقرأ هذا البيت :

والورد فى شط الخليج كأنه   رمـد ألم بمقـلة زرقاء

يغلب على ظننا أنه نتاج بيئة غربية ، وأن هذا الشاعر عاش فى بلاد تكثر فيها العيون الزرق ، فارتسمت صورتها فى خياله .

وهذا هو الواقع ، فإن الشاعر أندلسى البيئة ، وهو صفوان بن إدريس الأندلسى .

ثم تأمل فيما يلى قول الشاعر :

أحببته كالغصن كم شاعر   له عليـه نـوح ورقاء

وثغره الصادئ من حسنه   يحـار فى تشبيهه الرائى

الصادى : نسبه إلى حرف الصاد ، والفم يشبه بها .

وقول آخر :

ووجنة قد غدت كالورد حمرتها   وأشبه الآسَ ذاك العارضُ النضر

كأن موسى كليم الله أقبسها   ناراً وجرَّ عليها ذيله الخضر

وقول آخر :

قبّلتها ورشفت خمرة ريقها   فوجدت نار صبابة فى كوثر

ودخلت جنة وجهها فأباحنى   رضوانُها المرجوّ شربَ المسكر

فهذا الشعر المثقل بالحلى البديعية ، لا يمارى قارئه أنه أنشئ فى العصور التركية التى انحط فيها الشعر ، وولع فيها الشعراء بتصيّد المحسنات ستراً لقصورهم .

والشعر الأول للصلاح الصفدى ، والثانى لابن قرناص ، والثالث لابن الساعاتى .

وقول شاعر :

والشعر مقصوص يرف كأنه   فوق السوالف خالصُ العقيان

فذكر قص الشعر دليل على أن البيت لشاعرى عصرى[1] ، لأن هذا اللون من التجميل ظهر أخيراً ، وقد كان النموذج العربى أن يكون الشعر طويلا كثيفا كما قال امرؤ القيس :

أثيث كقنو النخلة المتعثكل .

وكما قال النابغة :

كالكرم مال على الدعام المسنَد

ووصفه بصفرة الذهب، دليل آخر على أنه شعر غادة غربية لا شرقية ، لأن شعر الشرقيات — وبخاصة العربيات — صوره لنا المتنبي فى قوله :

ذات فرع كأنما ضُرب العنبر م   فيه بماء ورد وعود

حالك كالغُداف جَثْل دجوجيّ م   أثيث جعد بلا تجعيد

وقول شاعر : — يصف الشمس ببعض البلاد — :

شمسهم غادة عليها حجاب   فهى شرقية حوتها الخدور

شمسنا غادة ابت أن تَوارى   فهى غربية جلاها السفور

وقوله :

وتخِذتم موج الأثير بريداً   حين خانتم أن البروق كُسالى

وقوله :

وليل كمطل القوم كابدت طوله   وأيقنت أنى لا محالة صاحبه

فالشعر الأول يفصح عن أن هذه الشمس تطلع فى بلاد يقنّع جوها

---

(١) من نظم المؤلف .

(٢) الغداف : بالضم : الغراب ، والجثل : الكثير الملتف ، والدجوجى : المظلم ، الأثيث الكثيف .

الغيم والضباب ، فلا ترى الشمس سافرة ضاحكة كما هى فى بلادنا إلا فى أوقات خاصة .

وهذه حقيقة أعرب عنها الشاعر حافظ إبراهيم ، والبلاد هى إيطاليا وقد كان رحل إليها فى بعض السنين .

والبيت الثانى لا يمترى إنسان أنه من نتاج العصر الحديث ، فقد عرض فيه لذكر الآلات اللاسلكية ، ولم تكن معروفة فى غير هذا العصر .

والبيت لحافظ يخاطب به الأمريكان من قصيدة له .

والبيت الثالث من الشعر السياسى ، والقوم الذين يريدهم هم الإنجليز والذين عانوا مطلهم هم المصريون بخاصة .

وإذن لابد أن يكون هذا الشاعر مصريا .

والشاعر هو حافظ إبراهيم أيضا .

وهكذا يستطيع الشاعر الصادق الأداء ، المنتزع معانيه من البيئة والعصر انتزاعا أمينا ، أن يمثل الجيل الذى يعيش فيه أصدق تمثيل .

الفصل السابع

جمال الجسد فى التشبيه

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الموضوع ، نرى من المناسب أن نبيّن معنى الجمال فى نظر القدامى ، لما له من الصلة الوثيقة بالموضوع الذى نحن بسبيله .

لا تكاد اللغة تفرق فى المعنى بين الجمال والحسن والملاحة وما إليها ، ففى المعجمات اللغوية : الجمال : الحسن فى الخَلق والخُلق .

والحسن : الجمال .

والملاحة : الحسن .

وملح الشىء بالضم ملاحة : بَهُج ، وحسن منظَره .

ولكن علماء الجمال يعرفون كلا منها تعريفاً يميّزه من الآخر ، وإن بقى عليه ظل من الغموض .

فقالوا فى الحسن[1] : إنه تناسب الخِلقة ، واعتدال البشرة ، وصفاء المادة .

وقيل : إنه مركب من الوضاءة ، والتناسب ، والصباحة .

وقيل : إنه بياض اللون ، وسواد الشعر ، وكل منهما شطره .

ومن ذلك قول سيدنا عمر – ض – : إذا تمّ بياض المرأة ، وحسُن شعرها ، فقد تم حسنها .

وقول السيدة عائشة : البياض : شطر الحسن .

---

(١) تزين الأسواق — ١٨٦ — ديوان الصبابة — ٣٤ — ٣٥ .

وقالوا فى الجمال : إنه ما أخذ البصر : أى ما استرعى النظر وجذبه إليه .

وقالوا : إنه السِّمن ، لأن اشتقاق الجمال من الجميل — على وزن كريم — وهو الشحم المذاب .

يقال : أجتمل الرجل : إذا أذاب الشحم وأكله .

والجميل : الودك بعينه[١] ، ووصف الرجل به : معناه : أن ماء السمن يجرى فى وجهه[٢] ؛ فالجميلة إذن : هى السمينة .

ومما أثر عن أفلاطون قوله : الجمال هو الانسجام بين مختلف أعضاء الجسم .

وقد فرقوا بين الجمال والملاحة فقالوا فى الجارية : جميلة من بعيد، مليحة من قريب .

فالجميلة : هى التى تأخذ بصرك جملة على بعد ، فإذا دنت لم تكن كذلك .

والمليحة : هى التى إذا كررت فيها بصرك زادتك حسنا :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وقالوا أيضاً المليحة : هى البيضاء ؛ لأنها مشتقة من الملحة بالضم وهى : البياض .

ومثلها الصبيحة ؛ تشبيهاً لها بالصبح فى بياضه .

ويقول خالد بن صفوان لامرأته — وقد قالت له : — ما أجملك ! أتقولين ذلك وما لى عمود الجمال ، ولا علىّ رداؤه ، ولا بُرْنسه ؟

قالت : ما عمود الجمال ، وما رداؤه ، وما برنسه ؟

قال : أما عمود الجمال : فطول القوام وفىّ قصر .

وأما رداؤه : فالبياض ولست بأبيض .

---

(١) الودك بالفتح : الدسم .

(٢) أدب الكاتب — ٤٩ .

وأما برنسه : فسواد الشعر وأنا أصلع .

ولكن لو قلت : ما أحلاك وأملحك لكان أولى[١] .

وهو بذلك لا يفرق بين الجمال والحسن ، ولكن يفرق بينهما وبين الملاحة .

ومن حقائق الصوفية : الجمال رياش ، والحسن صورة . والملاحة روح ، فذلك ستره عليك ، وهذا سره فيك ، « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي[٢] » .

وصفوة أقوال الأقدمين : أن الجمال عندهم : ما يدرك بالنظرة الأولى ، ويتعلق بالشكل العام ؛ كبسطة الجسم ، واعتدال القوام ، وجهارة المنظر ، وحسن السمت

وأن الحسن يتناول كل الأجزاء بالتفصيل ويعرف بترديد النظر ، وفضل التأمل .

وأن الملاحة هي : ما يسمونها بعذوبة النفس ، وخفة الظل والدم والروح ، وبراعة الظرف ، وقوة الجاذبية ؛ وهي تستغني عن الجمال ، ولا يستغني الجمال عنها .

وقد تكون المرأة جميلة ، غير أنها ليست جذابة ؛ إن بعض النساء كمناظر الشتاء ، فخمات إلا أنهن باردات ، ينقصهن الكثير من سحر الأنوثة وجاذبيتها ، ورب امرأة جميلة بينها وبين الفتنة هوة سحيقة[٣] .

ومن قول ابن المقفع : لا يصلح الجمال بغير حلاوة[٤] .

ومن مأثور أقوالهم : على وجه فلان غِسْله : إذا كان حسنا ولا مِلْح عليه .

---

(١) عيون الأخبار ٤ — ٢٣ .
(٢) نفح الطيب — ٣ — ١٤٦ .
(٣) حكيم البيت — ٦٣ .
(٤) رسائل البلغاء — ٤٥ .

ويقال فى ضده : على وجهه حِفلة[1] .

والذى تطمئن إليه النفس : أن الجمال ، والحسن ، والملاحة ، والصباحة والقسامة ، والوسامة إلى آخر هذه الألفاظ : أسماء لمعنى واحد لا يمكن تعريفه ؛ لأن مقاييسه تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ فلكل عصر جمال ، ولكل أمة جمال ، ولكل ذوق جمال ، ولعل هذا هو السر فى أن الشارع الحكيم أباح للخاطب أن يرى من مخطوبته وجهها وكفيها وقدميها ؛ فالوجه : عنوان الجمال ، والكفان والقدمان : مرآة البدانة والنحافة ، وبرؤيتها جميعاً ، يتحقق للإنسان الشكل الذى يصبو إليه .

وفى الأقوال المأثورة ما يؤيد مذهبنا : من أن الجمال أو الحسن لا يحد بحدود .

قالوا : الحسن الصريح : ما استنطق الأفواه بالتسبيح .

وفى ذلك يقول بشار :

تُلْقَى بتسبيحة من حسن ما خُلقت ... وتستفزّ حشا الرائى بإرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة ... فكل جارحة وجه بمرصاد

ويقول الوداعى :

بدر إذا ما بدا محياه ... أقول ربى وربك الله

ويقول ابن المعذّل :

نظرت إلى من زيّن الله وجهه ... فيا نظرة كادت على عاشق تقضى
وكبّرت عشراً ثم قلت لصاحبى ... متى نزل البدر المنير إلى الأرض

ويقول البهاء زهير :

بهرت محاسنه العقول فما بدا ... إلا وسبّح من رآه وكبّرا

---

(١) الأساس مادة غسل :

وقالوا : الحسن : معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف .

وقالوا :

شىء به فُتن الورى غير الذى   يدعى الجمالَ ولست أدرى ما هو

ويقول « جاريت » : لفظة جميل ، نستعملها كلنا بمعنى غير محدود شأننا فى معظم الألفاظ .

ويقول : ليس أمامنا فيما أرى إلا القول بأن تفسير الجمال لمّا يكتشف بعد ، أو نسلّم بأنه لا تفسير للجمال على الإطلاق ، وأن الأشياء الجميلة ليست لها صفة مشتركة خاصة تجعلها جميلة ، وأن الجمال إنما هو حقيقة مطلقة لا يُسبر غورها .

ويقول : والآن لنأخذ صورة مألوفة جداً ، صورة « العذراء » وطفلها فنجد قبل كل شىء أن من الواضح جداً أن تأثير هذه الصورة فى المسيحيين يختلف عن تأثيرها فى المسلمين ، أو البوذيين الذين لم يسمعوا بالمسيحية قط ، أو سمعوا بها كما يسمعون بدين أجنبى عجيب .

ونجد ثانياً : أنها إذا كانت صورة إيطالية قديمة ، اختلف تأثيرها فى المبتدئ عنه فى شخص ألف رؤية مثل هذه الصورة ، فلا تزعجه تقاليد عصرها وبساطته .

وقد يرى بعض الناس فى هذه الصورة إمتاعاً وفتنة ، لمجرد أنها قديمة وخيالية ، ومنتمية إلى بلاد يحبونها ، وتهفو نفوسهم إليها[1] .

ولم يفت الأقدمين أن يخُصُّوا كل عضو بصفة .

قال ابن الأعرابى : تقول العرب : الحلاوة فى العينين ، والجمال فى الأنف والملاحة فى الفم .

وزاد آخر : والظرف فى اللسان .

---

(١) فلسفة الجمال — ١٧ — ٢٣ — ١١٧ .

وقال بعضهم : الظرف فى القد ، والبراعة فى الجيد ، والرقة فى الأطراف والخصر ، والشأن كله فى الكلام ، وأحسن الحسن ما لم يجلب بتزيين .

وفى المعنى الأخير يقول بعض الشعراء .

إن المليحة مَن تزيَّن حليَها　　لا من غدت بحليِّها تتزيَّن

وقال غيره :

منعمة لم تلبَس الوشى زينة　　ولكن أحبَّت أن تزان الملابس

وقال المتنبي :

لبسن الوشى لا متجملات　　ولكن كى يصنَّ به الجمالا

وضفَّرن الغدائر لا لحسن　　ولكن خِفن فى الشعر الضلالا

وأخذه الصاحب بن عباد فقال :

لبسن ثياب الوشى لا لتجمل　　ولكن لصون الحسن بين برود

وذهب بعضهم[1] إلى أن الصباحة فى الوجه ، والوضاءة فى البشَرة ، والرشاقة فى القد ، واللباقة فى الشمائل ، وكمال الحسن فى الشعر .

وهو يتفق مع الآخرين فى أن الحلاوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحة فى الفم ، والظرف فى اللسان .

ومن البديهيات المسلَّمة : أن للمرأة هذا المخلوق الضعيف سحراً أخاذا وفتنة خالبة ، جعلت لها سلطانا على الرجال لا يغالب وتأثيراً لا يقاوم ، لا نستثنى من ذلك الأباطرة أهل الدولة والصولة ، والملوك ذوى النفوذ والسيطرة ، وجبابرة الحرب الذين دوَّخوا البلاد وقهروا العباد .

---

(١) فقه اللغة للثعالبي — ٦٢ — ٦٣ .

وحسبنا أن نعرف أن الحجاج الطاغية المتجبر لم يستح أن يصرح : بأنه يقبل باطن أقدام نسائه ! والبهاء زهير يقبل أقدام إحدى زائراته :

فقبّلت أقداما لغيرىَ مامشت ووجهاً مصوناًعن سواى مُحجّبا

والطغرانى يقبل الأرض :

وزائرة وافت فأجللت خدها وقبّلت إكراماًلموردها الأرضا

وكلا الشاعرين كانِ وزيراً خطيراً .

وهذه منحة من الطبيعة للمرأة تقابل بها قوة الرجل وشوكته ليتعادلا فى ميزان الحياة ، ويدوم بينهما الوفاق والوئام ، وتقوى الألفة والانسجام مصداقا لقوله — تعالى — : « ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكُنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وليس من همنا أن نفصّل القول فى هذا الشأن ، وإنما نريد أن نقرر أن الرجل لا يتصور الحياة بدون المرأة، غير صحراء جرداء موحشة لا أنس فيها ولا بهجة ولا صفاء !

وأنه لا عار عليه فى الميـــل إليها ، والانجذاب نحوها، والكلف بها ، والحرص على أن ينعم فى ظلها الرطب ، ويتملّى سعادة الحيـاة بجانبها ، ويتذوق رحيق المتعة من مفاتنها الجسدية فى ظل الحلال المباح !

ولقد صدق من قال : إن أصدق بيت قيل فى هذا الصدد :

ونحن بنو الدنيا وهنّ بناتها وعيشُ بنى الدنيا لقاء بناتها

وليس فى هذا نشوز على السنن الكونية ، ولا خروج على نواميس الفطرة المركوزة فى نفوسنا ، بل غير هذا هو الشذوذ، أو الضعف، أو المرض والانسلاخ من الطبيعة القويمة !

إن أرواحنا فى هذا العالم لا تتخلل المادة فقط ، بل تجد ما يعبر عن رغائبها وعواطفها ومشيئاتها بواسطة المادة نفسها ، والمادة وحدها هى وسيلة هذا التعبير ، فى هذه الدنيا .

وما دمنا بشريين فلابد أن تكون لنا أبدان ، والأبدان خاضعة للسنن الكيمية والفسيولوجية ، كما هى خاضعة للسنن الروحية أيضاً .

فمن جسم المرأة المحبوب المحمى البسيط المستلذ الذى ، تحرجنا سليقتنا البشرية الأزلية إلى أن نبتغيه ونتوق إليه ، لا ينشأ عجب الحياة الجسمانية الجديدة فقط ، بل يتسع أفق العاطفة الإنسانية الروحانية ، ويستطع نور التفاهم الروحانى الذى لا تستطيع الروح المنعزلة وحدها أن تبلغ إليه[1] .

والحق أن هذا الجسم الذى نحته الله بيده القادرة المبدعة ، كان مثار الفتنة للرجل منذ أن تفتحت عينه عليه ، ولم يستطع حتى الشعراء العُذريون أن يُصموا آذانهم عن ندائه المغرى المعسول !

فنسمع المجنون — والحسرة تنهش فؤاده — يقول لزوج ليلاه :

بربك هل ضممت إليك ليلى ... قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفّت عليك قرونُ ليلى ... رفيف الأقحوانة فى نداها

ويقول زعيم المدرسة العذرية جميل بثينة :

ذكرت مقامى ليلة البان قابضاً ... على كف حوراء المدامع كالبدر
تجود علينا بالحــديث وتارة ... تجود علينا بالرضاب من الثغر

ويقول :

سبتنى بعينىْ جؤذر وسط ربرب ... وصدر حكى لون اللجين وجيد

(١) أسرار الحياة الزوجية — ٢٦ — ٢٨ .

كما أن هذا الجسم البديع ، كان — ولم يزل — أكبر مصدر لإلهام الفنانين من جميع الألوان والمشارب ، وإلهاب عبقرياتهم — وإذكاء عواطفهم .

ومما نلاحظه أن الرسامين التقليديين يفضلون رسم جسوم البشر ووجوههم ، وهي مادة — إذا كانت قد فقدت بالألفة بعض جدتها ولذتها — فإنها لا تزال تمثل في دقة وتفصيل حياتنا وحياة من نراهم من بني الإنسان[١]

وإذا كانت المرأة فتنة للناس جميعا ، فقد كان حظ العربي من هذه الفتنة أعظم وأشد !

فالعربي بطبعه رقيق الحس، مرهف الشعور ، متوقد العاطفة ، يُصبيه الجمال ، ويتيّمه الحسن ، وتميل به الملاحة كل مَميل ، حتى ليتدله لبه ، ويجن جنونه حينا ، وتتلف نفسه حينا آخر ! وحتى رأينا من قومه قبيلة كاملة تتخصص في الحب ، وفي أشعار الحب ، وفي الموت في الحب ، وتعده استشهاداً كالموت في سبيل الله ، وهي بنو عذره .

يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأيّ جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد

والعربي إنسان قوي البنية ، سليم الأعضاء ، جمّ الحيوية ، مكتمل الرجولة ، وكل ذلك يهيج رغبته في المرأة ، ويذكي حنينه إليها !

والعربي قد كان يحيا حياة فطرية ، بعيدة عن شوائب الحضارة ، وآفات المدنية ، ومزالق الترف والنعيم ، فسلمت نفسه من الانحراف الجنسيّ ، والتواء المزاج ، فاتجه بنوازع الجِبِلّة القاهرة ، ودوافع البيئة النقية إلى بنات حواء يلتمس المتعة عندهن ، ويقصر الميل عليهن .

هذا إلى أن الطبيعة قست عليه بجدب الموطن ، وشظف العيش ، وضيق الرزق ، فكانت المرأة راحه وريحانه ، وعزاءه وسلوانه ، وأنسه وبشره

---

(١) فلسفة الجمال — ٣١ .

وزهره وعطره : فانطلق وراءها مشبوب اللوعة يتغنى بها ، ويغنى لها هذه الأناشيد العذبة الشاجية ، ويفتن فى وصفها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وصفا كاشفا ، يسنده الواقع ، ويجسمه الحب ، ويرقشه الخيال ؟

شبهها بالشمس ، والقمر ، والكوكب ، والهلال ، والغزال ، والظبي ، والرئم والخشف ، والمهاة ، والجؤذر ، والزهرة ، والريحانة ، والبيضة ، والدرة ، واللؤلؤة ، والصنم ، والتمثال ، والدمية ، والبردية ، والرمح ، والسحاب ، والغمام ، والطفل ، والقطاة .

وقد يأتى التشبيه جامعا لعدة معان[1] ، كالجمال والبركة والحسن والصفاء والبياض فى نحو قولهم : ماء السماء .

وبه سميت أم المنذر اللخمى ملك الحيرة ؛ تشبيها به فى الحسن والصفاء والطهارة .

وقد فاز الوجه وأعضاؤه البسيطة والمركبة ، بالنصيب الأوفى من التشبيهات ، لأنه أشرف وأبهج وأعلى وألطف من غيره .

وأما ماعداه فنادر أن تيسر لشاعر بيت أو بيتان أو أكثر فى عضو بعينه . أما فى ضمن غيره فكثير[2] .

وما زال الوجه كما يقول جويو : أجمل ما فى الإنسان بالنسبة إلى ابناء هذا العصر[3] .

ولا شك أن الوجه خليق بذلك ، فهو عنوان الجمال ، ومظهر الصباحة ، وموطن الجاذبية ، ومجلى الصحة والشباب .

وفيه جملة من الأعضاء النفيسة يتركز فيها السحر ، ويتبلور الفتون !

فيه ما قاله بعض العذريين لرجل من بنى فزارة — لامه فى الحب — :

---

(١) الحيوان — ٥ — ٤٧ — ثمار القلوب — ٦٤٦ .
(٢) تزيين الأسواق — ٢٢٨ .
(٣) تعليقات الدروبى على مسائل فى فلسفة الفن المعاصرة — ٨١ .

أما والله لو رأيتم المحاجر البُلْج ، ترشق بالعيون الدُّعج ، من تحت الحواجب الزُّج ، والشفاه السمر ، تبسم عن الثنايا الغر كأنها شذر الدر ، لجعلتموها اللات والعزّى ، وتركتم الإسلام وراء ظهوركم !

ثم الوجه إلى ذلك سمة الوراثة النقية الراقية، و المواهب الناضجة المكتملة.

فهناك تقابل وثيق بين ملامح الوجه والدماغ ، والعلامات الفسيولوجية للدمامة تبدو مرتبطة حتما بانحطاط عقلى ونفسى للجنس ، فتجدها أبرز ما تكون عند المتوحشين ، ونراها تزول متى انتقلنا من الهمجية إلى الحضارة ، وحين تظهر فجاة على بعض الأفراد تبدو نوعا من الرجوع الوراثى « At avisme » فمن الممكن إذاً أن نأمل أنها ستزول شيئا فشيئا فى الأجناس العليا بتأثير التقدم العقلى .

وأهم الخصائص التى تميز الوجه القبيح فى رأى علماء الجمال والفسيولوجيا: بروز الفكين، ونتوء الوجنتين ، وفطس الأنف أو قنَسه، وتباعد العينين وسعة الفم ، وغلظ الشفتين[1] .

وقد شبهو الوجه جملة بكل منير وضاح بهيج ؛ كالقمرين والكواكب والصباح والمنارة والمصباح والسراج والصحيفة والمرآة ومرآة الغريبة والدينار .

وبكل صاف رقيق كالدر والبرَد والياسمين .

وشبهوه تفصيلا بأشياء كثيرة مناسبة .

فشبهوا الجبهة بالصبح والمرآة .

وشبهوا الحاجب بالقوس ، والنون .

وشبهوا العين بعين الغزال والمهاة ، وبالنرجس .

وشبهو نظراتها بالسيف والسهم والنبْل والسحر والخمر .

وشبهوا أهدابها بريش السهام وقوادم الطير .

وشبهوا الخد بالورد ، والشقائق ، والأرجوان ، والجُلّنار ، والعندم ،

---

(١) مسائل فى فلسفة الفن المعاصرة ٨٠ .

والتفاح ، والخمر والجمر ، والماء والنار معاً .

وشبهوا الأنف بحد السيف ، وقصبة الدر .

وشبهوا الفم بالخاتم فى صغره وضيقه .

ولكن يجب أن يلاحظ أن ضيق الفم كان مستملحا فى النساء فقط لا الرجال ؛ فالجاحظ يقول[1] : ومدحوا سعة الفم وذموا صغره ؛ قيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق وبعد الصوت .

ومن وصف أبى المخَشّ لابنه : كان والله أشدق خُرْطمانيا : أى واسع الشدق ، واسع الخرطوم ، وهو ماضم عليه الحنكان .

ويقول ويدل على تفضيلهم سعة الأشداق ، وهجائهم ضيق الأفواه قول الشاعر :

لحا الله أفواه الدَّبىَ من قبيلة إذا ذكرت فى النائبات أمورها

وإنما شبه أفواههم بأفواه الدبى — وهى صغار الجراد — لصغرها وضيقها .

وشبهوا الأسنان بالأقاحى واللؤلؤ والبرَد والطلع والحبب والبلور والسيال[2] والشعاع .

وشبهوا الريق بالخمرة الصرف ، أو الممزوجة بالماء البارد ، وبالشهد والعسل والقَنْد[3] ، وبالماء الفرات ، وماء السحاب ، أو الماء الممزوج بالمسك أو الزنجبيل .

وشبهوا حديثها ونغمتها بوسواس الحلى ، وزجل الحمام ، وبُغام الظباء وقطع الرياض ، والدر المنثور ، والوشى ، والعسل ، والسحر الحلال .

وشبهوا ابتسامها بوميض البرق .

---

(١) البيان والتبيين — ١ — ١١٣ — ١١٥ .

(٢) السيال بالفتح : نبات له شوك أبيض طويل .

(٣) القند بالفتح : عسل قصب السكر الجامد .

وشبهوا نكهتها بالمسك ، والعنبر ، ونشر الرياض ، وريح الخزامى ، وعَرف العود .

وشبهوا شعرها بالليل والفحم ، وأذناب الخيل ، والحيات ، والكرم ، وعناقيد الكرم ، وأعذاق النخل [١] والحبال ، وبالغدير تصفقه الرياح فى حال الجعودة .

وشبهوا شعر أصداغها بالغوالى والعقارب والصوالج والمسك والسَّبَج [٢] وجناح الغراب

وشبهوا فرق الرأس بالصبح .

وشبهوا جيدها بجيد الظبى والغزال وإبريق الفضة .

وشبهوا الصدر والترائب ، بالعاج والمرآة ، وصدر الدمية .

وشبهوا ثديها بحقاق العاج والكافور والرمان وأنف الظبى وقلب الظبى .

وشبهوا قدها بغصن البان ، وقضيت الرند والآس ، والخيزران والرمح .

وشبهوا بطنها بالقباطى [٣] المطوية المدمجة ، وعُكَنها بالقراطيس المُدرجة ، والسُّرة بمُدْهُن العاج .

وشبهوا ظهرها بالجدول .

وشبهوا ردفها بالكثيب ، وبالكثيب المهيل ، وأمواج البحر فى حال المشى .

وشبهوا خصرها بالعَنان المجدول ، وبخصور المها والزنابير ، وحلقة الخاتم .

وشبهوا أوراكها بأنقاء الرمل ، وسوارى العاج والرخام .

---

(١) الأعذاق جمع عذق بالكسر وهو القنو ، والعذق بالفتح النخلة نفسها .

(٢) السبج محركة : الخرز الأسود .

(٣) القباطى : ثياب بيضاء اللون ، كانت تنسج فى مصر فنسبت للقبط .

وشبهوا ساقها بأنبوب البَردىّ والجمّار والبَرد .

وشبهوا القدم باللسان مطلقاً ، وبلسان الحية خاصة .

وشبهوا أصابع يديها بالأساريع[1] والمساويك والعنم والعُنّاب والبلح.

وشبهوا كعبها بأصل أذن الجؤذر — وهو الصغير من أولاد بقر الوحش — .

وشبهوا مشيتها بمشية القطاة والمهاة والحية والوجى الوحِل ، والظافر فى الحرب ، والمزوف[2] والراسف فى القيد ، والسائر على البَيض وقطع الزجاج ، والرمح المهتز ، والغصن المروح ، والفنن الممطور .

وشبهوا رائحتها بالأُترُجة ، والمسك ، وفأرة المسك[3] والعنبر والقرنفُل والغالية والملاب والزعفران والرّند والنّد .

هذا بعض ما قالوه فى المرأة ، وقد عرضنا فقط لما يتصل بما نحن بسبيله من التشبيه ، ويبدو من هذا مبلغ عاطفتهم الجمالية ، ومقدار تعلقهم بالمرأة وقوة انفعالهم بصفاتها البدنية ، ولا يضيرهم هذا النزاع إلى الحسن المادى كما لا يضيرهم أن تنبض أوصافهم بالاشتهاء الجنسى ، فغير هذا نفاق ورياء ومغالبة للطبيعة الغلابة .

وجمال المرأة أرفع أنواع الجمال — مهما يقل ، كانت ، - والصفات التى تعجبنا فى المرأة أكثر من غيرها، هى بعينها الصفات التى تتصل بالشهوة أكثر من غيرها ، وتمت إلى غريزة الجنس بأسباب وثيقة .

إن المرأة الجميلة فى نظر ابن الشعب هى المرأة الفارعة البضة الزاهية ألوانها ، العريضة أردافها ، وهذه هى المرأة التى تروّى شهوة الجنس إلى أبعد حد .

---

(٢) الأساريع : دود أحمر يشبه الأصابع المخضوبة .

(٣) المزوف : السكران .

(٤) فارة المسك : وعاؤه .

ولئن كانت صورة الجمال فى الطبقات الاجتماعية العليا ، لا تقابل اليوم على هذا النحو الدقيق الحاجاتِ الأُوَل التى تسيطر على الجنس والفرد ، فذلك لأن هذه الحاجات نفسها قد تطورت بصورة عامة ، فضعفت على مر الأيام ، وراقت شيئاً بعد شىء ، فأجمل النساء اليوم هى التى تناسب صبوات حياتنا الفردية ، وتتفق مع هذه العواطف والميول التى تشاركنا فيها أبناء العصر[1] .

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ٣٢ — ٣٣ .

الفصل الثامن

الخطأ فى التشبيه

الخطأ فى التشبيه نوعان :

١ — خطأ فى اللفظ ؛ وهو مخالفة قواعد النحو والصرف ، أو استعمال الألفاظ العامية ، أو الأجنبية بدل الألفاظ العربية الصحيحة .

٢ — خطأ فى المعنى ؛ كأن يكون فاسدا ، أو محالا ، أو متناقضاً ، أو مخالفاً للعادة أو الواقع ، إلى غير ذلك .

وفى التنبيه على خطأ المعانى وصوابها يقول العسكرى : إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى، كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعدُ على إصابة المعنى، ولأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة .

ثم يقول : والمعانى بعد ذلك على وجوه :

١ — منها ماهو مستقيم حسن نحو قولك : قد رأيت زيداً .

٢ — ومنها ماهو مستقيم قبيح نحو قولك : قد زيدا رأيت .

وإنما قبح ؛ لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير

٣ — ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب ، مثل قولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر .

٤ — ومنها ماهو محال كقولك : آتيك أمس ، وأتيتك غدا .

والفرق عنده بين المحال والفاسد : أن كل محال فاسد ، وليس كل فاسد

محالا ، ألا ترى أن قولك : قام زيد بالكسر فاسد وليس بمحال .

والمحال : مالا يجوز كونه « وجوده » ألبتة ، كقولك : الدنيا فى بيضة.

وأما قولك : حملت الجبل وأشباهه فكذب وليس بمحال ؛ لجواز أن يزيد الله فى قدرتك فتحمله !

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو فى قولك : رأيت قائما قاعدا ، ومررت بيقظان نائم ؛ فتصل كذبا بمحال ، فصار الذى هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله . وذلك لمّا عُقد بعضهما ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط ، وهو أن تقول : ضربنى زيد ، وأنت تريد ضربت زيدا فغلطت ، فإن تعمدت ذلك كان كذبا[1] .

ويرجع الخطأ فى اللفظ إلى الجهل بمفردات اللغة ، وعدم الإحاطة بالعرف اللغوى فى قواعد الإعراب والبناء والأقيسة .

ويرجع الخطأ فى المعنى إلى أسباب كثيرة .

١ — منها وصف شىء لم يره الواصف أصلا ، أو رآه رؤية عابرة ، أو سمع بوصفه ، كقول أبى نواس فى وصف الأسد :

كأنما عينه إذا نظرت ... بارزةَ الجفن عينُ مخنوق

ألا تراه — وهو مقدَّم فى المحدَثين — لمّا وصف الأسد وليس من معارفه ، ولعله ماشاهده قط إلا مرة فى العمران إن كان شاهده ، دخل عليه الوهم فجعل عينيه بارزتين ، وشبههما بعيون المخنوق ، وقام عنده أن هذا أشنع وأشبه بشتامة[2] وجه الأسد ، وذهب عنه من صفة أبى زُبيد[3] وغيره لغئور عينيه ، لما هو أعلم به ممن أخذه عنه .

---

(١) الصناعتين — ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ .

(٢) الشتامة : كراهة الوجه وعبوسه .

(٣) شاعر معروف بوصف الأسد .

وأكبر ظنى – والله أعلم – أن أبا نواس إنما رجع بالصفة إلى الرجل المشبه بالأسد، وجعل ازورار عينيه وبروز جفنيه، من علامات الغيظ والحنق على أقرانه فى الحرب[١].

والصواب ما وصفه به ابن عبد ربه فى قوله:

ليث تطير له القلوب مخافة من بين همهمة له وزئير
وكأنه يومى إليك بطرفه عن جمرتين بجلمد منقور

وكما وصفه أبو زبيد الطائى من قبل:

كأن عينيه فى وَقبَيْن من حجر قِيضا اقتياضا بأطراف المناقير[٢]

وقوله:

وعينان كالوقبيْن فى قلب صخرة يُرى فيهما كالجمرَتين تَسعَّر

وكقول الراجز:

كأنما ينظر من خَرق حجر.

٢ – ومنها أن يكون الواصف رأى الشىء عيانا غير مرة، ولكنه لم يمعن النظر، ولم يدقق الملاحظة فى رؤية الأجزاء، فيقع فى الخطأ حينما يعرض للوصف التفصيلى، وقد وقع فى ذلك كثير من الشعراء كالنابغة فى قوله:

كأنَّ حِجاج مقلتها قليب من الشَّيقين حَلّق مستقاها

الشيقين: موضع، وحلق: غار، ومستقاها: ماؤها.

شبه حجاج مقلتها بقليب فى هذا الموضع المذكور، الذى نضب ماؤه ليكون أبعد غورا.

---

(١) العمدة – ٢ – ١٨٧.

(٢) الوقب: النقرة فى الحجر، وقيضا: نقرا، والمناقير: آلات النقر.

والحجاج لايغور ؛ لأنه العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب[١] .

٣ — ومنها الوصف بالظن دون اليقين كقول أبي جبلة الأعرابي[٢] :

بَرِّيَة لم تأكل المرقّقا ولم تذق من البقول الفستقا

تعاطى مالا يعرف — يقول ابن رشيق — لجعل الفستق بقلا على ما فى نفسه من لعاع[٣] البقل .

وأراد بقوله : برية ؛ أنها من سكان البادية لم تأكل مطاعم الحضر ؛ كالمرقق والفستق الذى ظنه بقلا .

وقول رؤبة :

هل يعصمنّى حالف سِختيت أو فضة أو ذهب كبريت[٤]

قال ابن الأعرابى والأصمعى وغيرهما : ظن رؤبة أن الكبريت ذهب .

وفى العقد الفريد : سمع بالكبريت أنه أحمر ، فظن أنه ذهب .

وفى شفاء الغليل : وذكره رؤبة فى شعره بمعنى الذهب وخطىء فيه ، لأن العرب القدماء يخطئون فى المعانى دون الألفاظ .

وقال ابن دريد فى الجمهرة : وهذا مما غلط فيه رؤبة ، لجعل الكبريت ذهبا[٥] .

وقد قال العلامة تيمور « باشا » معلقا على ذلك : قلنا : ولا يخرج مافى اللسان عن ذلك ، ولكنه ذكر تفسير الكبريت بالذهب فى قول لبعضهم ، وهو كما لايخفى يناقض ما اعترض به هؤلاء الأئمة ، فلعله حدث

---

(١) الوشح — ٨٧ .

(٢) رواية العقد الفريد — ٣ — ٣٤٤ : أنه أبو نخيلة الراجز .

(٣) اللعاع كغراب : النبت الناعم ، أو أول ما يبدو منه .

(٤) السختيت بكسر فسكون : الشديد .

(٥) المزهر — ٢ — ٣١٣ .

بعد نظم البيت ، وبنى على ما فيه وثوقا من قائله بالشاعر ، وليحقق[١] .

وقول شاعر :

كأنه سِبْط من الأسباط .

ظن السبط رجلا ، وإنما السبط : واحد الأسباط من بنى يعقوب[٢] .

٤ — ومنها قياس شىء على شىء من غير تثبت ولا تبيُّن ، كوصف العرب لمنازل النجوم دون أن يفطنوا إلى أنها فى تغير مستمر .

وفى ذلك يقول ابن رشيق[٣] : ولما رأيت العرب — وهم أعلم الناس بهذه المنازل وأنوائها ، لأنها سقف بيوتهم ، وسبب معايشهم وانتجاعهم — غلطوا فيها فقال أحدهم :

من الأنجم العُزْل والرامحة .

وقال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصّل

فأتى بتعرض الجوزاء .

ورأيت كل من عنى بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع المنازل ، مخطئا لا شك فى خلافه ؛ لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها لا تظهر فى ليلة واحدة ؛ لذلك قلت أنا احتياطا فى ذلك الليل من نسيب قصيدة مدحت بها السيد الحسن :

قد طـال حتى خلتـه   من كل ناحيـة وسط

وتـكررت فيه المنـا   زل منه لامنى الغلط

---

(١) أوهام الشعراء — ١١ .

(٢) المزهر — ٢ — ٣١٢ .

(٣) العمدة — ٢ — ١٩٦ .

على أن المبرد يقول فى بيت امرئ القيس المتقدم : وقد أكثر الناس فى الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ.

وقد عيب عليه فقيل : الثريا لا تتعرض فى السماء ، وقال من يعذره : إنه أراد الجوزاء وهى التى تمر متعرضة فى جنب غير مستقيمة ، فلما لم يستقم له الوزن وضع الثريا موضعها ، كأحمر عاد فى شعر زهير ، وضعه موضع أحمر ثمود[1] .

ويعنى بشعر زهير قوله :

فَتُنتِجْ لكم غِلمانَ أشأمَ كلُّهم كأحمر عاد ثم تُرضع فتَفطِم

ويقول السيوطى : قالوا : أراد بالثريا : الجوزاء فغلط ، وتأوله آخرون على أن معنى تعرضت : أعرضت قال : ويقال : إنها تعترض فى آخر الليل .

ويقال : إنها إذا طلعت طلعت على استقامة ، فإذا انتقلت تعرضت[2] .

وقال بعضهم ممن يعذره : أراد الجوزاء لأنها تتلوها .[3]

وقال بعضهم فى تصحيحه : الثريا تعرض أول ما تطلع ، كما أن الوشاح يلقاك بعُرضه وهو ناحيته .

وقال أبو عمرو : يعنى إذا أخذت الثريا فى وسط السماء كما يأخذ الوشاح فى وسط المرأة .

وقال الباقلانى : والأشبه عندنا : أن البيت غير معيب من حيث عابوه به ، وأنه من محاسن هذه القصيدة .. ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ، ويستولى على الأمد[4] .

---

(١) الكامل « شرح المرصفى » — ٦ — ١٤٥ .
(٢) المزهر — ٢ — ٣١٤ .
(٣) الموشح — ٣٦ .
(٤) اعجاز القرآن — ١٤٠ .

هذه أقوالهم فى بيت امرئ القيس ، ونفهم منها أنهم غير مجمعين على خطئه فيه .

وكذلك يقال : فى « أحمر عاد » .

فالزوزنى يقول : أراد بأحمر عاد : أحمر ثمود وهو عاقر الناقة ، واسمه قُدار بن سالف[1] .

ويقول ابن قتيبة : وإنما أحمر ثمود عاقر الناقة[2] .

ويقول المرزُبانى : قال أبو سعيد الضرير : سمعت الأصمعى يقول : لا أحب قول زهير « البيت » .

إن ثمود لا يقال لها : عاد ، لأن الله — عز وجل — إنما نسب قداراً عاقر الناقة إلى ثمود .

قيل : فقد قال : « وأنه أهلك عاداً الأولى » .

فقال معناه : التى كانت قبل ثمود لا أن ههنا عادين[3] .

ويرد ابن رشيق على الأصمعى بقوله : ولا أدرى لما خطاه . وقد سمع قول الله — عز وجل — : « وأنه أهلك عاداً الأولى » !

فهل قال هذا إلا وثَمَّ عاد أخرى كما قال قيس بن سعد بن عبادة :

سراويل عادىّ نمته ثمود

وكان يقال لثمود : عاد الصغرى[4] .

٥ — ومنها الغلو فى الوصف زيادة فى المدح أو التحسين إلى غير ذلك فينقلب الأمر إلى ضده كقول امرئ القيس :

---

(١) شرح المعلقات — ٨٧ .

(٢) الشعر والشعراء — ٤١ .

(٣) الموشح — ٤٥ .

(٤) العمدة — ٢ — ١٩١ .

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهَها سعف منتشِر[1]

أراد المبالغة في وصف ناصية الفرس بالطول، فشبهها بسعف النخلة، وإذا غطى الشعر العين لم يكن كريما[2].

وقول الحكم الخُضرى يمدح :

كانت بنو غالب لأمتها كالغيث في كل ساعة يكفِ

وليس في المعهود أن يكون الغيث واكفا في كل ساعة[3].

وإن كان البيت يحتمل من التأويل أن يكون معناه : كان هؤلاء القوم كالغيث ؛ إلا أنه غيث يكف كل ساعة ، وإن لم يدل لفظه على هذا المعنى دلالة واضحة[4].

٦ — ومنها قصد تقويم البيت فيضطر الشاعر إلى الكذب ، كهذا الشعر الذى أنشده الكميتُ نُصَيبا من قصيدة له ؛ مطلعها :

أبت هذه النفس إلا ادكارا

فلما بلغ إلى قوله :

إذا ما الهجارس غنّينها يجاوبن بالفلَوات الوبارا

قال له نصيب : الفلوات لا تسكنها الوبار .

فلما بلغ إلى قوله :

كأن الغُطامط في غليها أراجيز أسلم تهجو غِفارا

قال له نصيب : ما هجت أسلم غِفارا قط .

---

(١) الخيفانة . التى لها عين زرقاء وأخرى سوداء .

(٢) الصناعتين — ٩١ .

(٣) الموشح — ٢٣٢ .

(٤) سر الفصاحة — ٢٤٠ .

(٥) الصناعتين — ٩٤ — الموشح — ١٩٣ مع اختلاف يسير .

فانكسر الكميت وأمسك[1] .

الوبار بالكسر : جمع وبرة بإسكان الباء : حيوان أصغر من السنور مغبر اللون ، لا ذنب له ، يحبس فى البيوت ويعلف فيها .

والخطامط بضم الغين : صوت غليان موج البحر ؛ والمراد هنا : صوت غليان القدر .

شبه صوت غليان القدر فى شدته واحتدامه، بار تجاز قبيلة أسلم فى هجوها قبيلة غفار .

وفى هذا يقول الخفاجى : ومما يحتاج إليه التشبيه : أن يكون الأمر المشبه به واقعا مشاهداً معروفاً غير مستنكر ؛ ليوافق ذلك المقصود بالتشبيه والتمثيل من الإيضاح والبيان .

وقد أراد نصيب من الكميت : أن يكون شبه بشىء واقع معروف وهذا كما قال : كأن مناقضة فلان وفلان مناقضة جرير والفرزدق ، فيكون هذا الكلام صحيحا .

ولو قيل : كأن مناقضتهما مناقضة الأحوص وعمر بن أبى ربيعة ، لم يكن التشبيه صحيحا إذ كان المشبه به لم يقع[2] .

ويتصل بذلك أن يضطر الشاعر إلى التعميم فى موضع التخصيص كقول ذى الرمة فى وصف الوتر :

كأنه فى نياط القوس حلقوم

وقد أنكر عليه الأصمعى ذلك وقال : حلقوم ماذا ؟

إذ كان يجب عليه أن يقول : حلقوم طائر ، أو حلقوم قطاة أو غيرهما

---

(١) سر الفصاحة — ٢٤٠ .

(٢) الموازنة بين الطائيين — ١٧٤ :

عما يشبه الوتر ، وإلا فقد يكون الحلقوم حلقوم فيل ، أو حلقوم بعير !

وهذا من الأصمعى إنكار صحيح ، وإن كان الخطب يسيراً ؛ لأن العرب لا تشبه الوتر إلا بحلقوم الطائر .

أو يضطر إلى القلب كقول النابغة الجعدى :

كانت فريضة ما تقول كما　　كان الزِّناء فريضة الرجم

والأصل : كان الرجم فريضة الزناء .

وكقول الشَّماخ فى أبيه :

منه وُلدت ولم يؤشَّب به حسبى　　ليًّا كما عُصب العلباء بالعود

العلباء بالكسر : عصب العنق ، ويؤشب به : يخلط .

والوجه : كما عصب العود بالعلباء .

أو يضطر إلى حذف ما ينعكس به المعنى كقول جميل :

لا حسنها حسن ولا كدلالها　　دَلٌّ ولا كوقارها توقير

فحذف كاف التشبيه ؛ فصار المعنى : كأنه ليس حسنها حسنا(١) .

أو يضطر إلى حذف بعض حروف الكلمة ، كقول امرىء القيس فى وصف فرسه :

لها متنتان خَظاتا ، كما　　أكبَّ على ساعديه النَّمِر

الأصل خظاتان فحذف النون .

والخظاة : المكتنزة ؛ أراد : لها متنان ممتلئان لحما ، كساعدى النمر البارك على الأرض فى الضخامة .

---

(١) العمدة — ٢ — ١٠٧ .

وليس هذا من صفات الجياد الجيدة ، فالمستحسن فيها قلة اللحم فى المتن والوجه كقول الشاعر :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى
جرداء معروقة اللحيين سُرحوب[1]

وقول طُفيل الغنوى :

معرّقة الألحى تلوح متونها .

وقد وقع فى هذا الخطأ أبو ذؤيب الهذلى حيث يقول :

قُصِرَ الصَّبوح : لها فشُرِّج لحمها بالنَّىّ فهى تثوخ فيها الإصبع

قصر الصبوح لها : اقتصر لها على اللبن عوضاً عن الماء ، وشرج لحمها : علِّى بعضه فوق بعض ، والنى : الشحم .

قال الأصمعى : هذه الفرس لا تساوى درهمين ؛ لأنه جعلها كثيرة اللحم ، رخوة تدخل فيها الإصبع[2] !

أو يضطر إلى وضع كلمة مكان أخرى كقول عدى :

ولقد عدّيت دوسرة كعَلاة القين مِذكارا

الدوسرة : الناقة الضخمة ، والعلاة بالفتح : السَّندان .

جعلها مذكاراً ، والمئناث عندهم أحمد ، وأراد مذكرة فلم يتفق له[3] .

٧ — ومنها ذهول الشاعر عن صواب المعنى ، لانغماره فى لجة الشعر وسبحه فى آفاق الخيال ، فيقع فى الزلل والخطأ ؛ لأن عقله الباطن يكون مسيطراً على إدراكه ، وعقله الواعى يصبح فى شبه شلل ، والشعراء

---

(١) السرحوب بالضم : الطويلة .

(٢) الصناعتين — ٨٥ .

(٣) الموشح — ٨٨ .

يعرفون ذلك بالتجربة ، ويعجبون كيف يقعون فى هذه الأخطاء حينما يثوبون إلى وعيهم .

وفى ذلك يقول ابن رشيق : ولا بدّ أن يُؤتى على الشاعر المفلق، والعالم المتفنن ؛ لما بنى عليه الإنسان من النقص والتقصير ، وخير ما فى ذلك أن يرجع المرء إلى الحق إذ سمعه، ولا يتمادى على الباطل لجاجة وأنفة من الخطأ ، فإن تماديه ، زيادة فى الخطأ الذى أنف منه[1] .

وهذه الحال التى تعترى الشعراء تسبب وقوعهم فى أشياء معيبة كالتناقض فى قول المسيَّب بن علس :

فتسل حاجتها إذا هى أعرضت   بخميصة سُرح اليدين وَساع[2]
وكأن قنطرة بموضع كُورها   ملساء بين غوامض الأنساع[3]
وإذا أطفت بها أطفت بكلكل   نبِض الفرائص مُجفَر الأضلاع[4]

فكيف تكون خميصة، وقد شبهها بالقنطرة ، والقنطرة لا تكون إلا عظيمة .

ثم قال : مجفَر الأضلاع : أى عظيمها وواسعها — وكل هذا ينقض ما ذكره[5] .

أو الإحالة كقول عبد الرحمن بن حسان :

وإن مال الضجيع بها فدعص   من الكُثبان مُلتبد مَهيل

قالوا : وكيف يكون ملتبداً مهيلا !

هذا مستحيل متناقض !

---

(١) العمدة — ٢ — ٢٠٧ .
(٢) سرح بضمتين : سريع
(٣) الأنساع : سيور عريضة جم نسع بالكسر .
(٤) المجفر : العظيم الجنبين من كل شىء .
(٥) الموشح — ٩٠ .

غير أن ابن رشيق يقول : والذى عندى فيه أنه صواب ؛ لأنه إنما أراد بالتباده : صلابة ملمس العجزة، وأنها غير مسترخية ، وجعله مهيلا لارتعاده واضطرابه من العظَم كما قال ابن مقبل :

يمشين هَيْل النَّقا مالت جوانبه ينهال طوراً وينهاه الثرى حيناً

فقد جعله مرة ينهال ، ومرة ينهاه الثرى عن التثنى الذى فيه [١] .

أو الفساد كقول أبي تمام [٢] :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوُسعه لم يضق عن أهله بلد

وذلك أن البلد التى تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض .

ومن اختط البلدان لم يختطها على قدر ضيق الأرض وسعتها ، وإنما اختطت على حسب الاتفاق ، ولعل المسكون منها لايكون جزءا من ألف جزء ؛ فلأى معنى تصييره ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض .

والصواب أن يقول : ورحب صدر لو الأرض واسعة كوسعه لم يسعها الفلك ، أو لضاقت عنها السماء ، أو يقول : لو أن سعة كل بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلد .

والجيد فى هذا المعنى قول البحترى :

مفازة صدر لو تُطرّق لم يكن ليسلكها فرداً سُليك المقانب [٣]

أى لم يكن يسلكه إلا بدليل لسعته ، وأيضاً فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه الحيوان والنبات ، وإنما مقداره على ما يقول أهل الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع ، والمسكون من جملة ذلك ؛ لعله لايكون

---

(١) العمدة — ٢ — ٢٠٧ .

(٢) الصناعتين — ١٢٠ — الموازنة — ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) المقانب : جمع مقنب كمنبر : جماعة الخيل والفرسان ، وسليك : أحد العدائين المشهورين .

جزءا من ألف جزء من ذلك ، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة ، إنما هو من أجل ضيق الأرض .

فإن قيل لايدل قوله : « الأرض » — وهو لفظ عموم — على البلدان التي هي مخصوصة .

قيل : لايكون الخطأ إلا هكذا ، أن يريد القائل لفظة تدل على معنى فيأتي بأخرى ليست فيها على ذلك المعنى دلالة .

أو وضع الشيء في غير موضعه كقول جرير — يصف بقر الوحش — :

يمشي بها كلّ موشيّ أكارعه   مشي الهرابذ حجّوا بيعة الزُّون

الأكارع : قوائم الدابة ، والهرابذ : سدنة بيت النار للهند ، أو عظماء الهند أو علماؤهم أو خدم نار المجوس ، والبيعة معبد النصارى ، والزون : الصنم .

وعلى هذا فالغلط في ثلاثة مواضع : أحدها أن الهرابذ : المجوس لا النصارى ، والثاني : أن البيعة للنصارى لا المجوس ، والثالث ، أن النصارى لا يعبدون الأصنام ولا المجوس (١) .

---

(١) الصناعتين — ٩٢ .

الفصل التاسع

أخطاء الشعراء فى التشبيه

يذهب الجمهور : إلى أن العربى الصريح لايجوز عليه الخطأ ، بل إنه لايستطيع ذلك لو أراد (١) .

ويصرح ابن جى : أن العربى لايخطىء وأنه يصيب ولا يفهم (٢) . ويرون فى هذا : أنه قيل لعمر بن لَجَأ : قل إنا من المجرمون منتقمون ، فقال : إنا من المجرمين منتقمون (٣) .

ويقول الجاحظ : روى أصحابنا : أن رجلا من البلديين قال لأعرابى : كيف أهلك بكسر اللام ؟ قال : صَلْبًا !

لأنه أجاب على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله (٤) .

ومن أشد اللغويين المحدثين تعصبا لهـذا الرأى : المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ؛ يقول فى بيت زهير :

ومن يعص أطراف الزِّجاج فإنه يطيع العوالى رُكِّبت كل لَهذم

بسكون الياء فى «العوالى» ، ونحوه إهمال أن الناصبة والجزم بها ، وتأكيد الماضى ، وإثبات حرف العلة ، أو نون الرفع مع الجازم ، إلى غير ذلك مما حقيقة الحال فيه أنه مبنى على لغات أخرى ، أو ضرورات سائغة ؛ لأن الحق أن

---

(١) ذيل الأمالى للقالى — ٤٠ .
(٢) الخصائص — ١ — ٢٤٣ — ٢٥١ .
(٣) البيان والتبيين — ١ — ١٤٧ .
(٤) المصدر السابق — ١ — ١٤٦ — ١٤٧ .

العرب معصومون من الخطأ واللحن فى الألفاظ ، حتى قيل : إن البدوى لا يطاوعه لسانه فى ذلك .

ثم يقول . ولا التفات لما نقل فى المزهر عن ابن فارس ، ولا إلى ما ذكره الزمخشرى فى المفصل : من أن تحريك هاء السكت فى قوله : وارحمتاه لحن ، ولا لما أطال به فارس أفندى صاحب الجوائب فى مقدمه ديوانه وجاسوسه [١] .

ولكن يعارض ذلك أن اللحن وقع من بعض العرب الخلص .

فقد ذكروا : أنه قيل لأعرابى أتهمز الرمح ؟

قال : نعم .

فقيل له : قلها مهموزة ، فقالها مهموزة .

فقيل : أتهمز الترس ؟

قال : نعم .

فلم يدع سيفا ولا ترسا إلا همزه !

فقال أخوه .. وهو يهزأ به - : دعوا أخى فإنه يهمز السلاح جملة ! [٢]

وكان عيسى بن عمر يقول : أساء النابغة فى قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ويقول : موضعها ناقعا [٣] .

وذكر أبو زيد أنه سمع أعرابيا يقول : نُسَيَاء بالمد .

فقال : والواحد إذا أتى بشاذ نادر ، لم يكن قوله حجة مع مخالفة الجميع [٤] .

---

(١) المواهب الفتحية ٢ — ٨٠ .

(٢) البيان والتبيين — ٢ — ١٧٥ .

(٣) طبقات الشعراء — ١٢ — الموشح — ٤١ .

(٤) المزهر ١ — ١٥٢ .

وكان ذو الرمة يخطىء رؤبة فى اللغة ، ويقبل رؤبة منه ذلك (١) .

وكان عبد الله بن إسحاق الحضرمى يكثر الرد على الفرزدق فهجاه (٢) .

وفى شرح الفصيح لابن خالويه : كان الفراء يجيز كسر النون فى «شتان» تشبيها بسِيَّان وهو خطأ بالإجماع .

فإن قيل : إن الفراء ثقة ولعله سمعه ، فالجواب : إن كان الفراء قاله قياسا فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربى فإن الغلط على ذلك العربى لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة غير مرغوب فيها (٣) .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد تسليما للعرب ، وكان ابن إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم (٤) .

وقد لحَّن الأصمعى ابن قيس الرقيات فى بيت من قصيدته فى الندبة :

تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه

وقال : كان ينبغى أن يقول : وارزيتاه كما تقول : واعماه وأخيَّاه (٥) .

وكان يقول : الكميت تعلم النحو وليس بحجة ، وكذلك الطرِمَّاح ، وكانا يقولان ماقد سمعاه ولا يفهمانه .

وقال رؤبة عنهما : كانا يسألانى عن غريب شعرهما (٦) .

وقال الأصمعى : أنشدنى عقبة بن رؤبة :

ودَغبة من خطِل مُغدودن .

وإنما هى دغوة ، يقال : فلان ذو دغوات ، أى سقطات (٧) .

---

(١) الأغانى ١٦ س ١٧ « الساسى » .
(٢) الشعر والشعراء — ٢٥ .
(٣) المزهر ٢ — ٣١ .
(٤) الموشح — ٤١ .
(٥) المصدر السابق — ١٨٧ .
(٦) المصدر السابق — ٢٠٩ .
(٧) المصدر السابق والرقم .

والدغوة أيضا : الخلق الردىء ، والخطِل كفرِح : الكثير الكلام الفاسد ، والمغدودون : الشاب الناعم .

وقال : أخطأ أبو النجم فى قوله :

كالشمس لم تعدُ سوى ذُرورها

أى لم تتجاوز ذرورها ، فأدخل سوى لأجل الإعراب .

والعِداء : الظلم وتجاوز الحق[1] .

وقد نسبوا الخطأ إلى رؤبة فى أشياء كقوله فى وصف الخمر :

وشقها اللوح بمأزول ضَيَق

ففتح الياء ، والصواب ضيْق أو ضيِّق .

وقوله

صوادق العَقْب مهاذيب الوَلَق

ففتح اللام ، وإنما هو الوَلْق ، وهو سير سريع .

وقوله — يصف الرامى — :

لا يلتوى من عاطس ولا نغَق

وإنما هو النَّغيق والنُّغاق ، وجاء بشىء بينهما .

وقوله فى وصف القوس .

نبعية ساورها بين النِّيَق

قال النيق : جمع نيقة ، ولا يقال : نيقة وإنما هو النَّيق ، وهو رأس الجبل .

وقوله :

---

(١) المصدر السابق — ٢١٥ .

إذا دنا منهن أنقاض النُّقَق

يعنى الضفادع .

وكان ينبغى أن يقول : نُقُق جمع نَقوق .

وقوله :

أقفرت الوعساء والعثاعث من بعدهم والبُرَق البرارث

الوعساء والعثاعث : موضعان ، والبُرَق : جمع برقة ، موضع فيه حجارة سود وبيض ، ومنه يقال : جبل أبرق

قال : البرارث ، وإنما هى البراث جمع بَرْث ، وهى الأرض اللينة[1].

ومما تجب ملاحظته أن بعض ما خطئوا فيه رؤبة ، وهو : فتح الياء من « ضيق » وفتح اللام من « الولق » لا يعد خطأ ، بل جاء على القاعدة المعروفة وهى إتباع الحرف الثانى للأول فى الحركة ، أو نقل الكلمة إلى صيغة « فعل » بكسر العين .

وهذا الخطأ مرجعه إلى الاختلاط بالأعاجم ، لا إلى تقدم الزمان وتأخره وفى ذلك يقول الخفاجى : فلعل من يجدنا نستدل بكلام العرب المتقدمين على لغتهم ، ولا نستدل بكلام المتأخرين ، من يتخيل أن هذا شىء يرجع إلى الزمان وليس الأمر كذلك ، وإنما العرب الأول لما كثر الإسلام واتصلت الدعوة وانتشرت ، حضّر أكثرهم ، وسكنوا الأرياف ، وفارقوا البدو وخالطهم الباقى ، فامتزج كلامهم بمن جاوروه من الأنباط ، وعاشروه من الأعاجم ، وعدم منهم الطبع السليم الذى كانوا عليه قبل هذه المخالطة ، فهم الآن لا يحتج بكلامهم لهذه العلة ، لا لأن القدم والحدوث سيان فى الصواب والخطأ ، ولهذا كان الأصمعى ينكر أن يقال فى لغة العرب :

---

(١) الشعر والشعراء ٣٧٨ — ٣٧٩ .

ماح ، فلما أنشد فى ذلك شعر ذى الرمة ، قال : إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين فى البصرة زمانا .

أراد بذلك أنه بمخالطتهم سمعهم يقولون : ماح فقاله ، فلم يجز أن يحتج بكلامه لهذا السبب .

ولو فرضنا اليوم أنه فى بعض الصحارى النائية عن العمارة قوما على عادة المتقدمين فى البدو ، وترك الإلمام بأهل المدر ، متمسكين بطبعهم وجارين على سجيتهم ، كان على هذا الفرض قولهم حجة واتباعهم واجبا(١) .

ومهما يكن من شأن اختلافهم فى جواز الخطأ اللفظى على العربى الصريح ، فهم متفقون على جواز الخطأ عليه فى المعنى .

يقول الجاحظ : وليس الأعرابى بقدوة إلا فى الجر والنصب والرفع وفى الأسماء ، وأما غير ذلك فقد يخطىء فيه ويصيب(٢) .

ويقول ابن جنى : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ(٣) .

ويقول الشهاب الخفاجى : إن العرب القدماء يخطئون فى المعانى دون الألفاظ(٤) .

ويقول الحموى : إذا نظرت فى الكلام العربى إما أن تبحث عن المعنى الذى وضع له اللفظ وهو علم اللغة ، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه وهو علم التصريف ، وإما أن تبحث عن المعنى الذى يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم ، وهو علم العربية «النحو»

---

(١) سر الفصاحة — ١٢٢ .
(٢) الحيوان ٢ — ٠ .
(٣) العمدة ٢ — ١٨٣ .
(٤) شفاء الغليل — ١٦٩ .

وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوى وهو علم المعانى ، وإما أن تبحث عن طريق دلالة الكلام إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية وهو علم البيان ، وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع .

فالعلوم الثلاثة الأولى يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثراً ، لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم .

والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم ، لأنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق فى ذلك بين العرب وغيرهم إذ كان الرجوع فيها إلى العقل[1] .

أخطاء العرب والمولدين :

وسنورد فيما يلى جملة من أخطاء العرب والمولدين فى التشبيه وحده لأنه غايتنا من هذا الفصل ، معقبين عليها بالشرح والإيضاح والنقد بقدر ما يتسع له المقام .

قال امرؤ القيس — يصف الفرس — :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسدُّ به فرجها من دُبُر

قالوا : ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذيل الفرس طويلا مجروراً ولا قصيراً .

ولم قال : من دبر ؟

ومن أين تسد بذنبها فرجها من قُبُل !

فليس هذا من كلام الحذاق ، والصواب قوله :

---

(١) خزانة الأدب ص ٥ — ٦ .

ضليع إذا استدبرته سد فرجه   بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

الفرج : الفضاء الذى بين الرجلين ، والأعزل : الذى يميل عَظم ذنبه إلى أحد الشقين .

وشرط كونه فويق الأرض ؛ لأنه إذا بلغ الأرض وطئه برجليه وذلك عيب ؛ لأنه ربما عثر به ، واستواء عظم ذنبه من دلائل العتق والكرم كسبوغ ذنبه .

وقد رد ذلك المرتضى ، بقوله : وما أرى العيب يلحق امرأ القيس ؛ لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض عيبا ، فليس بمنكر أن يشبه به الذنب وإن لم يبلغ إلى أن يمس الأرض ، لأن الشىء إنما يشبه الشىء إذا قاربه أو دنا من معناه ، فإذا أشبهه فى أكثر أحواله فقد صح التشبيه ولاق به ؛ وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبّه طول الذنب بطول ذيل العروس فقط ؛ وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة ألا ترى أنه قال :

تسد به فرجها من دبر

وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ، ولا يكون كثيفا ولا يسد فرج الفرس ؛ فلما قال : تسد به فرجها علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فإذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان فى الطول قريبا منه فالتشبيه صحيح وليس ذلك بموجب للعيب[1] .

ومثل قول امرئ القيس قول خداش بن زهير :

لها ذنب مثل ذيل الَهدِىّ   إلى جؤجؤ أيد الزافـــر

---

(١) للوشح — ٣٦ .
(٢) أمالى المرتضى — ٤ — ١٢ .

الهدى : العروس التى تهدى إلى زوجها ، وأيد : شديد ، وزافر : صفة لجؤجؤ وهو الصدر لأنها تزفر منه .

أراد بذيل العروس طوله وسبوغه ، فشبه الذنب السابغ به ؛ وإن لم يبلغ فى الطول إلى أن يمس الأرض[1] .

* * *

وقال طرفة — يصف الناقة — :

كأن جناحىْ مَضرحىّ تكنَّفا ... حِفافيه شُكّا فى العسيب بمسرَد

المضرحى : الأبيض من النسور أو العظيم ، والحفاف ككتاب : الجانب ، والشك : الغرز ، والعسيب : عَظم الذنب ، والمسرد كمبرد : الإشفَى « المثقب » .

يقول : كأن جناحى نسر أبيض غرزا بإشفى فى عظم ذنبها فصارا فى ناحية .

شبه شعر ذنبها بجناحى نسر أبيض ، والنجائب توصف برقة شعر الذنب وخفته ، وجعله طرفة كثيفا طويلا عريضاً[1] .

* * *

وقال — يصف عنق الناقة — :

وأتلع نهاض إذا صعَّدت به ... كسُكان بُوصىّ بدجلة مُصعِد

الأتلع الطويل ، والبوصى : ضرب من السفن ، والسكان : ذنب السفينة .

يقول : هى طويلة العنق ، سريعة النهوض به ، فإذا رفعته ونصبته أشبه ذنب سفينة من هذا النوع المسمى بالبوصى حين يصعد فى نهر دجلة .

---

(١) الموازنة — ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٢) الموشح — ٨٩ .

هذا تفسير الزوزنى للبيت[1] .

وذهب القاضى الجرجانى : إلى أنه أراد الدَّقَل ، الصارى ، وهو الخشبة التى تحمل الشراع ؛ فأخطأ وذكر بدله السكان .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة — :

تحيد عن أستَنٍ سود أسافله ... مثل الإماء الغوادى تحمل الحُزَما

الأستن : شجر إذا نظر الناظر إليه من بعيد ، شبهه بشخوص الناس ، وهو بشع المنظر تسميه العرب : رءوس الشياطين .

قال الأصمعى : إنما توصف الإماء فى مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو ، لأنهن يجئن بالحطب إذا رحن .

وقال العسكرى : وإنما تحمل الإماء حزم الحطب عند رواحهن ، فأما فى غدوهن إلى الصحراء فإنهن مُخفَّات ، وفى ذلك يقول الأخنس بن شهاب التغلبى :

تظل بها رُبد النعام كأنها ... إماء تُزجى بالعشىّ حواطب[2]

وإنما شبه النعام بالإماء الحواطب ؛ لأن النعامة إذا خفضت عنقها ومشت ، كانت أشبه شىء بماش وعلى ظهره حمل[3] .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة أيضاً — :

مقذوفة بدخيس النَّحض بازلُها ... له صريف صريف القَعْو بالمسد

---

(١) شرح المعلقات — ٥٦ .

(٢) فى العقد الفريد — ٣ — ٤٣٠ . إماء يرحن بالعشى حواطب .

(٣) الصناعتين — ٨٢ — الموشح ٤٤ .

الدخيس : ما دخس بعضه فى بعض ، والنحض : اللحم ، والبازل : الناب ، والقعو : البكرة .

شبه صوت نابها بصوت البكرة بالحبل .

قال الأصمعى[1] : قرأت على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانى ، فلما بلغت قوله :

مقذوفة . . . . .

قال لى : ما أضرَّ عليه فى ناقته ما وصف !

قلت : وكيف ؟

قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذا تكلمت العرب .

قال : فرآنى بسكوتى مستزيداً فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن مقروم الضبى :

كِناز البضيع جُمالية إذا ما بغَمن تراها كتوما

كناز البضيع : كثيرة اللحم صلبة ، وجمالية : تشبه الجمل فى خلقتها ، والبغام بالضم : الصوت .

يعنى إذا صوتت النوق من الأين والتعب لم تصوت لقوتها وجَلدها .

• • •

وقال ساعدة بن جؤية — يصف السهام — :

كساها رطيب الريش فاعتدلت له قِداح كأعناق الظباء الفوارق

الفوارق : التى أخذها المخاض فندت فى الأرض .

---

(١) المصدر السابق ٤٢ .

شبه السهام بأعناق هذه الظباء — فى هذه الحال — وليس بينها شبه ، ولو وصفها بالدقة لكان أولى[1] .

* * *

وقال قيس بن الخطيم :

كأنها عود بانة قصِف .

والمرأة إنما تشبه بالعود المتثنى لا المتقصف[2] .

وقد أخذه ابن أبي فنن فقال فى « وصيف » الخادم الصغير :

أيها الظبى المليح القد م بجدول مُهفهَف
أنا من ميلك فى مشيك م مرعوب مخوف
لا تميلنَّ فإنى خائف أن تتقصَّف

ويقول ابن الرومى فى بيت ابن أبي فنن هذا : إنما أراد أنه يميل من لينه ونَعمة أعضائه ، فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف ، وإنما كان ينبغى أن يقول : لو عقد لانعقد من لينه ، فضلا عن أنه يميل وهو سليم من التقصف ، وأنشد لنفسه يعارض ذلك :

أيها القائل إنى خائف أن تتقصف
ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفّف

* * *

وقول أوس بن حجر :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت من ماء أدكن فى الحانوت نضّاح
ومن مشعشَعة كالمسك تشربها أو من أنابيب رمان وتفاح

---

(١) الصناعتين — ٢١٧ — الموشح — ٨٧

(٢) المصدر السابق — ٣٤٧ — ٣٤٨ .

ظن أن الرمان والتفاح فى أنابيب .

وقيل : إن الأنابيب : الطرائق التى فى الرمان ، وإذا حمل على هذا الوجه صح المعنى[1] .

* * *

وقول بَشامة بن الغدير — يصف راحلته — :

وصدر لها مهيع كالخَـليف تخال بأنَّ عليـــه شليلا

المهيع : الواسع ، والخليف : الطريق فى الجبل ، والشليل : المِسح من الصوف أو الشعر .

شبه صدرها فى اتساعه بالطريق فى الجبل ، ولكثرة ما عليه من الوبر يظن أن عليه مسحاً من صوف أو شعر .

وقد خطأه الأصمعى فى ذلك لأن من صفة النجائب قلة الوبر[2] .

وقال المسيَّب بن علَس :

وكأن غاربها رَباوة مَخـرِم وتمدّ ثِنى جديلهـــا بشراع

الرباوة : الرابية ، والمخرم : طريق الجبل ، والجديل : الزمام المجدول .

أراد تشبيه العنق بالدَّقَل « الصارى » فشبهه بالشراع .

والجيد منه قول ذى الرمة :

وهاد كجذع الساج سامٍ يقوده معرَّق أحناء الصبيَّين أشدق

الهادى : العنق ، والمعرق : ما عرى من اللحم ، والأحناء : الجوانب ، والصبيان على وزن فعيلان : طرفا اللحية ، والأشدق : الواسع

---

(١) الصناعتين — ٧٠ .

(٢) العمدة — ٢ — ١٩ .

وقال أبو حاتم : الشراع : العنق ، ويقال للعنق : شراع وتليل ، فإذا صحت هذه الرواية فالمعنى صحيح[1] .

• • •

وقال بشر بن أبي خازم — يصف سفينة — :

ونحن على جوانبها قُعود   نغض الطرف كالإبل القِماح

أجالد صفهم ولقد أرانى   على زوراء تسجد للرياح

إذا ركبت بصاحبها خليجا   تذكَّر ما لديه من جُناح

غض طرفه : كسره وأطرق ولم يفتح عينيه ، والقماح : الرافعات الرءوس من قمح البعير قموحا : رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب كتقمَّح وانقمح فهو قامح .

فكيف يشبه المطرِق بالرافع رأسه ؟!

• • •

وقال الشماخ — يصف ناقته — :

فنعم المعتزَى رحلت إليـه   رحَى حيزومها كرحى الطحين

المعتزى : المنسوب إليه ، والحيزوم : الصدر ، ورحى الحيزوم : ما يمس الأرض من صدر البعير إذا برك ، ويسمى : الكِركِرة .

وفى المخصص واللسان :

فنعم المعتزى ركدت إليه .

شبه رحى حيزومها برحى الطحين فى عظمها وكبرها .

وإنما توصف النجائب بصغر الكركرة ولطف الخُف[2] .

---

(١) شفاء الغليل — ١١٨ .

(٢) الشعر والشعراء — ١٤٦ .

وقال العسكرى : السَّمدانة ، الكركرة ، توصف بالصغر .

وقال من احتج للشماخ : إنما شبهها بالرحى لصلابتها كما قال :

قلائص يطحنَّ الحصى بالكراكر[1] .

ويقول ابن رشيق : وخطأه الأصمعى ، فقد ظنه يصفها بالكبر وهو عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير[2] .

° ° °

وقال النابغة الجعدى — يصف المطى — :

كأن تواليَها بالضحى نواعم جَعْل من الأثأب

توالى الخيل والإبل : مآخيرها ، والأثأب : شجر ينبت فى بطون الأودية فى البادية ، واحدتها : اثأبة ، والجعل : صغار النخل .

شبه مآخير المطى بصغار النخل ، والصواب وصفها بالعظم .

فى البيت مأخذان : أولهما تشبيه المطى بالجعل ، وثانيهما جعل الجعل — وهو صغار النخل — من الأثأب .

ويقول القاضى الجرجانى : وإنما المراد الكبار ، وبه يصح الوصف كما زعموا[1] .

ويقول ابن قتيبة : أخذوا عليه أن الجعل صغار النخل ، فكيف جعله من الأثأب !

ثم يقول . ولا أراه إلا صحيحا على التشبيه ؛ كأنه أراد نواعم أثاب كالجعل .

---

(١) الوساطة — ١٧ .

(٢) الصناعتين — ١١١ .

(٣) العمدة — ٢ — ١٩١ .

وقد تسمى العرب باسم الشيء إذا كان له مشبها ، ولعل الأثاب أن يكون أفناؤه تسمى جعلا كما تسمى أفناء النخل وقصاره جعلا [1] .

• • •

وقال حُميد بن ثور :

لما تخايلت الحُمول حسبتها دَوْما بأيلة ناعما مكموما [2]

الدوم : شجر المقل وهو لايكم ، والمكموم لايكون إلا النخل ؛ فظن أن الدوم النخل [3] .

شبه الحمول بالدوم المكموم فى هذا الموضع ، قياساً له على النخل وهو قياس خطأ ؛ لأن الدوم لايحتاج إلى التكميم كما تحتاج أعذاق النخل خشية تساقط ثمرها .

• • •

وقال خُفاف ابن نُدبة :

كنواح ريش حمامة نجديّة ومسحت باللثتين عصف الإثمد

يريد : كنواحى فنقص من الكلمة .

وهذا النوع يسمى : التثليم .

وهو أن يأتى الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض ؛ فيضطر إلى ثلمها والنقص فيها .

ومثله قول علقمة بن عَبْدة :

كأن إبريقهم ظبى على شرَف مفدّم بسبا الكتّان مرثوم

---

(١) الشعر والشعراء — ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٢) أيلة بالفتح : جبل قرب ينبع ، وبلد بين ينبع والشام على ساحل البحر الأحمر .
(٣) المزهر — ٢ — ٣١٣ .

أراد بسبائب الكتان فحذف للعروض

والسبائب : الشقق الرقيقة ، والمرثوم : الذى فى أنفه بياض .

أو يجتزئ بالضمة عن الواو فى مثل كأنه وله وبيناه كقول الشاعر .

له زجـــل كأنه صوت حاد   إذا طلب الوسيقة أو زميرُ

أورد الإعراب إلى أصله كقول الشاعر :

ما إن رأيت ولا أرى فى مدتى   كجوارٍ يلعبن فى الصحراء

وقد صرح ابن الاثير بقبح هذا النوع وعدم جواز استعماله لنا ، وإن كانت العرب قد استعملته [١] .

* * *

وقول آخر :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة   نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

يريد : الدراهم والصيارف فزاد فى الكلمة [٢] .

* * *

وقال الحطيئة :

صفوف وماذئ الحديد عليهم   وبيض كأولاد النعام كثيف

الماذى : الحديد كله : الدرع والمغفر والسلاح أجمع .

شبه البيض الذى يلبس على الرؤوس بأولاد النعام ، وأراد به بيضه [٣] .

وقال متمم بن نويرة :

وكأنه فوق الحبائل جانبا   رِبم تضايقه كلاب أخضع

---

(١) المثل سائر — ١٢ .

(٢) شر الفصاحة ٧٥ .

(٣) الصناعتين ١٠٧ - الموشح — ٧٩ .

وصف ذكر الظباء بالخضوع ، وإنما يجب الاستشراف كما يقول القاضى الجرجانى .

• • •

وقال المرار بن منقذ العدوى — يصف النخل — :

كأن فروعها فى كل ريح   عذارى بالذوائب ينتصينا [١]

وقد خطأه الأصمعى وقال : لم يكن له علم بالنخل ، وإذا تباعد النخل كان أجود له وأصلح لثمره .

ومما كانت تقوله العرب عن الأشياء : قالت نخلة لأخرى : أبعدى ظلى عن ظلك أحمل حملى وحملك [٢] .

ويؤخذ من تحقيق العلامة « تيمور » باشا ، [٣] : أن المذموم تقارب ما بين الأصول ، فأما أن يمتد جريده ، ويكثر خوصه ، ويتصل بعضه ببعض حتى لا ترى منه الشمس ، ويمنع الطير من أن تشقه ، فهو من نعته الجيد ، وأن رواية أبى حاتم عن الأصمعى : أنه قال : فى مثل للفرس والنبط : تقول النخلة لأختها : تباعدى عنى وأنا أحمل حملى وحملك ، ولم يذكر فيه تباعد الظل . ثم صوب قول المرار وقال : لاشىء أحسن من هذا الوصف للنخل واستشهد على صحة كلامه بقول ذكوان العجلى :

نواضرَ غُلْباً قد تدانت رؤوسها   من النبت حتى ما يطير غرابها

ترى الباسقات العُمَّ منها كأنها   ظعائن مضروب عليها قبابها [٤]

• • •

---

(١) الانتصاء : الأخذ بالناصية فى الخصومة .

(٢) الشعر والشعراء — ٤٤٠ .

(٣) أوهام الشعراء — ٣٣ .

(٤) العم من النخل : التامة فى طولها والتفافها .

بعيدة بين الزرع لاذات حُشوة   قصار ولا صُعل سريع ذهابها [١]

وقال أيضا — يصف الخال — [٢]

وخال على خديك يبدو كأنه   سنا البدر فى دهماء باد دجونها

وهو من مخالفة العرف، وذكر ما ليس فى العادة.

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر، والخدود الحسان إنما هى البيض فأتى الشاعر بقلب المعنى.

وكذا قول الشاعر الآخر:

كأنما الخِيلان فى وجهه   كواكب أحدقن بالبدر

ويمكن أن يحتج لهذا الشاعر بأن يقال: شبه الخيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون.

والجيد فيه قول العباس بن الأحنف:

لخال بذاك الخد أحسن عندنا   من النكتة السوداء فى وَضح البدر

وقبله قال مسلم:

وخال كخال البدر فى وجه مثله   لقينا المنى فيه فحاجزنا البذلُ

وقال الطرِمّاح — يصف ناقته —:

. . .

تُمسّح الأرض بمُعْنَوْنس   كمثل مِئلاة النياح القِيام

المعنونس: الذنب الطويل، والمئلاة: واحدة المآلى، وهى خرق تمسكها النساء بأيديهن إذا قمن للنياحة.

فأفصح: بأن الذنب يمس الأرض، وأساء فى التشبيه أيضا [٣]

---

(١) الحشوة بالضم والكسر: دغل الأرض، والصعل: الدقيقة الرأس وما فيها عوج جمع صعلاء.

(٢) الصناعتين ٩٣ — ٩٤.

(٣) الموشح — ٢٠٩.

فى البيت عيبان : وصف ذنب الناقة بالطول حتى تمسح به الأرض وهو عيب فاحش مع مخالفته للواقع .

ثم تشبيهه إياه بخرقة النائحة ، وهى ليست طويلة حتى تصل إلى الأرض وصاحبتها قائمة ، ولا تعدو أن تكون منديلا كما نشاهده فى المآتم .

فى التشبيه مخالفتان صريحتان للواقع .

* * *

وقال رجل – يرثى عمر بن عبد العزيز – .

ردّت صنائعُه إليه حيـــاته فكأنه من نشرها منشور

والصحيح أن يقول : منشر ؛ لأنه يقال : أنشر الله الموتى فنَشروا هم[1].

والحق : أن « منشور » صحيحة فليس فى البيت مايعاب ، وفى المعجمات.
نشره فنَشر ، وأنشره : أحياه .

* * *

وقال عبد الله بن عبد الرحمن القَسّ :

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصُرا ملامكما فالقتل أعفى وأيسر

قال قدامة : هذا الشعر من التناقض ، فإن هذا الشاعر أوجب للهجر والقتل أنهما مثلان ، ثم سلبهما ذلك بقوله : إن القتل أعفى وأيسر ،فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس مثله[2] .

وقال العسكرى : إن الهجر والقتل مثلان ، ثم سلبهما ذلك فقال : إن القتل أعفى وأيسر .

فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله ، وذلك متناقض .

ولو كان استوى له أن يقول : بل القتل أعفى وأيسر لكان الشعر

---

(١) ديوان المعانى — ٢ — ١٧٤ .
(٢) نقد الشعر — ٨٢ .

مستفهما ، لأن لفظة « بل » تنفى الماضى وتثبت المستأنف كما قال زهير :

حىٍّ الديار التى لم يعفُها القِدم بَلَى وغيرها الأرواح والدِّيم

على أنهم عابوا هذا البيت على زهير ، ولكنه بمجىء بلى فيه لم يكن عندى فاسدا .[1]

. . .

وقال زياد الأعجم ليزيد بن المهلب :

هل لك فى حاجتى حاجة أم انت لها تارك طارح

أمِتْها لك الخير أم أحْيِها م كما يفعل الرجل الصالح

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غاد ولا رائح

وكان ينبغى أن يقول : غاديا ولا رائحا .

وزياد كثير اللحن فى شعره ، ولهذا قيل له : الأعجم ، ولفساد لسانه بفارس[2] .

. . .

وقال أيمن بن خريم — يمدح بشر بن مروان —[3] .

وإنا قد رأينـــا أم بشر كأم الأسد مذكارا ولودا

فأتى فى البيت بما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح ؛ لأن الناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقلّ كما قال الأول[4] :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مِقلات نَزور

المقلات : الناقة تضع واحداً ، والمرأة لا يعيش لها ولد .

(١) سر الفصاحة — ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء — ٢٥٩ .

(٣) الصناعتين — ٠٩٧ .

(٤) هو كثير عزة .

ورواية قدامة :

وإنا قد وجدنا أم بشر .

* * *

وقال أبو النجم العِجلى :

أخنس فى مثل الكِظام مِخطَمه

الأخنس : القصير المشافر ، والكظام ككتاب : سداد الشىء ، والمخطم : الأنف .

وصف مشافره بالخَنَس ، وإنما توصف المشافر بالسبوطة .

ومن وصف أعرابى للإبل : . . عظام الحناجر ، سِباط المشافر [1]

* * *

وقال أيضاً فى وصف الفرس :

كأنها مِيجَنة القصَّار

القصار : محوِّر الثياب ، والميجنة : أداة من الحجر يدق عليها الأدم « الجلد » .

والميجنة لصاحب الأدم وغيره [2] .

والحق أنه لا معنى للاعتراض عليه ، فإن الميجنة — كما فى كتب اللغة — مدقة القصار ، وصانع الجلد .

* * *

وقال عدىّ بن الرِّقاع العاملى :

لهم راية تَهدى الجموع كأنها إذا خطرت فى ثعلب الرمح طائر

---

(١) الصناعتين — ٨٨ — ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ٩٠ — الشعر والشعراء — ٣٨٦ .

الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جُبَّة السنان .

والراية لا تخطِر ، وإنما الخطَران للرمح[1] .

* * *

وقال عمر بن لَجأ من أرجوزة وصف فيها إبله فجعلها كالجبال فى عظم الخلق ، ثم قال فى فحلها .

كالظَّرِب الأسود من ورائها

الظرب : الجبل الصغير أو الغليظ من الأرض ، ولا يوصف الفحل بأنه أصغر من إناثه فى الخلقة .

ثم قال :

جر العروس الثِّنْى من ردائها

وقد عابه جرير : بأنه وصف إبله حتى جعلها كالجبال ، ثم جعل فحلها كالظرب .

ثم قال فى الجزء الثانى ، والله ما شعره من نمط واحد وإنه لمختلف العيون

وبلغ عمر قول جرير فقال : أيعيب قولى .

جر العروس . . . . . .

وإنما أردت لينه ولم أرد أثره .

وكان ذلك هو سبب وقوع الشر بينهما[2] .

* * *

وقال رؤبة :

---

(١) الصناعتين — ٩٣ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى — ٢٦٢ .

كنتم كمن أدخل فى جُحر يداً فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

جعل الأسود دون الأفعى فى المضرة وهى فوقهفيها[١] ، لأن الأسود: الحية العظيمة.

* * *

وقال العمانى الراجز منشدا « الرشيد » فى وصف فرس :

كأنّ أذنيه إذا تشوّفا قادمـــة أو قلما محرّفا

فقال الرشيد : دع كأن ، وقل : تخال حتى يستوىَ شعرك ، وكان قد لحن ولم يعرف ، ولم يفطن له أهل المجلس حتى قال الرشيد ذلك فتعجبوا من علمه وفضله[٢] .

قال المبرد : والراجز — وإن كان لحن - فقد أحسن التشبيه[٣]

ونسب الشنقيطى البيت إلى أبى نخيلة الراجز ، وذكر : أنه قد أجيب عنه بأجوبة.

١ — أن الشاعر قد لحن .

٢ — أن خبر كان محذوفة وقادمة مفعول ، والتقدير : تحكيان قادمة .

٣ — أن الرواية : قادمتا أو قلما بألفان من غير تنوين ، على أن الأصل قادمتان أو قلمان محرفان ، فحذفت النون لضرورة الشعر .

٤ — أن الرواية : تخال أذنيه[٤].

* * *

وقال أبو نواس — يصف الناقة — :

---

(١) الصناعتين — ٨٨ — الشعر والشعراء — ٣٨٦ .

(٢) ديوان المعانى ص — ٣٦ — ٣٧

(٣) الكامل « شرح المرصفى » — ٧ — ٤٧ — ٤٨ .

(٤) الدرر اللوامع — ١ — ١١٢ .

كأنما رجلهـا قفا يدهـا   رجل وليد يلهو بدُبوق

الدّبوق : لعبة .

وإذا كانت كذلك كان بها عُقّال ، وهو من أسوأ العيوب[١] .

* * *

وقال فى وصف الكلب :

كأنما الأظفور من قِنابه   موسى صَناعٍ رُدّ فى نصابه

القناب ككتاب : المخلب .

شبهه بموسى الحلاق الحاذق حين يدخله فى قرابه ، لأنه ظن أن مخلب الكلب كمخلب الأسد والسنور الذى ينستر إذا أرادا حتى لا يتبيّن ، وعند حاجتهما تخرج المخالب حُجنا محددة يفترسان بها ، والكلب مبسوط اليدين أبدا غير منقبض[٢] .

* * *

وقال يصف الحباب — وهو أبدع ماقيل فيه —[٣] .

قامت تريني وأمر الليل مجتمع   صبحا تولّد بين الماء واللهب

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وقد أخذه ابن المعتز فقال :

ياخليليّ سقّيانى فقد لا   ح صباح وأذّن الناقوس

من كُمَيت كأنها أرض تبر   فى نواحيه لؤلؤ مغروس

وقد خطأ النحاة أبا نواس فى قوله المتقدم ، وفى ذلك يقول ابن الأثير:

---

(١) العقال كرمان : داء فى رجل الدابة .

(٢) الموشح — ٢٧٣ .

(٣) ديوان المعانى — ٣٠٨ .

ولا شك أن قلة المبالاة بالأمر واستشعار القدرة عليه ، توقع صاحبه فيما لايشعر أنه وقع فيه فيجهل مايكون عالما به ، ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا فى طبقات العلماء مع تقدمه فى طبقات الشعراء ، وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه ، فقال فى صفة الخمر :

كأن صغرى . . . . .

وهذا لايخفى على مثل أبى نواس ؛ فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه فى شىء ، لأنه أمر نقلى يحمل ناقله فيه على النقل من غير التصرف وقول أبى نواس : صغرى وكبرى غير جائز ؛ فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفهما من فعلى التى لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة ، وههنا قد عريت عن الإضافة ومن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس فى مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته[1] .

والصحيح : أن أبا نواس لم يخطىء ؛ لأنه أراد هنا ثبوت الوصف لمحله من غير نظر إلى تفضيل ؛ كقولهم : نصيب أشعر الحبشة : أى شاعرهم إذ لا شاعر غيره فيهم .

والأمر هنا كذلك : أى كأن صغيرة وكبيرة . . .

وذكر محمد بن سلام الجمحى عن يونس بن حبيب ؛ قال : جاء رجل إلى رؤبة بن العجاج فسأله عن قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمـــه أعزّ وأطول

فقال له : أقعد .

فلما أذن المؤذن وقال : الله أكبر ، قال : مايقول هذا ؟

قال : الله أكبر من كل شىء .

قال : وكذا ذاك أطول من كل شىء .

---

(١) المثل السائر — ٧ .

ويقول ابن سنان الخفاجى : تأولوا قول الفرزدق على وجهين .

أحدهما : أن يكون أعز وأطول بمعنى عزيزة طويلة .

والثانى : أعز وأطول من بيتك ياجرير .

ثم يعقب على هذا : بأن ذلك من التعسف فى التأويل ، ومراد الشاعر أوضح من أن يخفى ، وأشهر من أن يجهل ، وهو أعز وأطول من السماء التى ذكرها فى أول البيت .

وإنما جاء بها لهذا الغرض ، وهذه مبالغة فى الشعر معروفة مستعملة ، وليست بالمكروهة ولا الغريبة[1] .

* * *

وقال أبو الشِّيص الُخزاعى :

وجناح مقصوص تحيَّف ريشَه   ريبُ الزمان تحيف المقراض

قالوا : ليس المقراض من كلام العرب .

وتبعه البحترى فقال :

وأبت تركىَ الغديَّات والآ   صال حتى خضبت بالمقراض

فعابوه عليهما جميعا .

قال الخفاجى : وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة[2] .

وفى اللغة قرضت الشىء قرضا من باب ضرب : قطعته بالمقراضين .

والمقراض أيضا بكسر الميم ، والجمع مقاريض .

ولا يقال : إذا جمعت بينهما مقراض كما تقول العامة ، وإنما يقال عند

---

(١) سر الفصاحة — ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه — ٧٢ — ٧٧ .

أجتماعهما : قرضته بالمقراضين ، وفى الواحد قرضته بالمقراض ، وقرض الثوب بالمقراض .

فالكلمة من كلام العرب كما ترى ، ولا نرى وجها لتخطئة استعمالها .

. . .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات — يصف ناقته فى قصيدة مدح بها الحسن بن سهل — مطلعها :

كأنها حين تناءى خطوها أخنس مطوىُّ الشوى يرعى القُلل

الأخنس : ذكر البقر الوحشى ، والشوى : الأطراف .

والعيب الأول فى البيت : مخالفته العادة فى بدء القصيدة بالتشبيه ، فلم يجر الشعراء على هذا الرسم الغريب !

والعيب الآخر : أنه خالف جميع الشعراء فى وصف الناقة ، لأنهم إنما يصفون الناقة بالظليم والحمار والثور بعد الكلال ، غلوا فى الوصف ومبالغة .

هذا هو الجيد ، فإن لم يفعلوا لم يذكروا : أنها بذلت جهدها واستفرغت جميع ما عندها بل يدعون التأويل محتملا للزيادة .

ثم قال : يرعى القلل ، والثور لا يرعى قلل الجبال ، وإنما ذلك الوعل فإنه لا يُسهل ، والثور فى السهول والدماث ومواضع الرمال ، إلا أن يريد بقلل النبات أعاليه .

وربما أن تكون القلل نبتا بعينه أو مكانا فقد يمكن وما سمعت بهما[1] .

وهذا الخطأ وقع فيه ابن الزيات على علمه وفضله لتعاطيه ما لا يحسن ، فمثله وهو الحضرى المترف ليس من ركاب النوق وليس له عهد بمزاولة شئونها حتى يخبر أحوالها كالأعراب أو بعض الشعراء الذين اعتادوا

---

(١) العمدة — ١ — ١٤٧ — ١٤٨ .

الرحله فى الفيافى ، كالمتنبي الذى يقول فى مدح عبد الله بن يحي البحترى :

إليك ابن يحي بن الوليد تجاوزت ... بى البيدَ عِيس لحمُها والدم الشَّعر [(١)]

نضحت بذكراكم حرارة قلبها ... فسارت وطول الأرض فى عينها شبر

لجاء بضد ما جاء به ابن الزيات من وصفها بالقوة والنشاط والمرح على ما تكابده من الجهد والمشقة فى قطع المفاوز كلفا ببلوغ الممدوح وشوقا إلى لقائه !

. . .

وقال أبو تمام :

بيوم كطول الدهر فى عَرض مثله ... ووجدىَ من هذا وذلك أطول

لجعل للدهر — وهو الزمان — عرضا ، وذلك محض المحال .

وعلى أنه ما كانت إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : كطول الدهر ، فأتى على الغرض فى المبالغة [(٢)] .

. . .

وقال :

كالأرحيِّ المُذكىّ سيرُه المرَطى ... والوخد والملع والتقريب والخبب

الأرحي من الإبل : منسوب إلى أرحب : حى من همدان تنسب إليهم الإبل .

والمذكى : الذى قد انتهى فى سنه ، والمرطى من عدو الخيل فوق

---

(١) يروى الشعر بفتح الشين : أى يرى السير جسدها فلم يبق فيها غير الوبر على الجلد ، وهى رواية الخوارزمى ، ويروى الشعر بكسر الشين : يعنى أن أتباعها على السير مستمد من الشعر الذى كان يحدوها به فيوفر لها لحمها ودمها ويغنيها عن استهلاكه ، والبيت الثانى يؤيد هذا المعنى .

(٢) الموازنة — ١٧٥ .

التقريب ودون الإهذاب ، والوخد : الاهتزاز فى السير مثل وخد النعام والملع : من سير الإبل السريع ، والتقريب : من عدو الخيل معروف ، والخبب دونه .

جمع هذا البيت أنواعا من العدو ، ووفّق فى ذلك مع البعد عن التكلف ولكن عيبه أنه خلط بين ما يخص الإبل وما يخص الخيل .

فليس التقريب من عدو الإبل ، وهو فى هذا الوصف مخطئ .

وقد يكون التقريب لأجناس من الحيوان ولا يكون للإبل ، وإنما ما رأينا بعيراً قط يقرّب تقريب الفرس .

والمرطى أيضا من عدو الخيل لم أره فى أوصاف الإبل ولا سيرها [١] .

. . .

وقال – يصف الفرس – :

وبشُعلة نَبَــذ كأن قليلها فى صهوتيه بدء شيب المفرق

الشعلة بالضم : البياض فى ذنب الفرس والناصية والقذال ، والقليل : ماتفرق منها بصهوتيه ، والصهوة موضع اللبد ، وهو مقعد الفارس من الفرس .

وذلك الموضع أبداً ينحتّ شعره لغمز السرج إياه فينبت أبيض لأن الجلد هنا يرق ، وأنت تراه فى الخيــل كلها على اختلاف شياتها ، وليس بالبياض المحمود ولا الحسن ولا الجميل .

فهذا خطأ من هذا الوجه ، وهو خطأ من وجه آخر ؛ وهو أن جعله شعلة ، والشعلة لاتكون إلا فى الناصية أو الذنب ، وهو أن يبيض عرضها وناحية منها فيقال : فرس أشعل وشعلاء ، وذلك عيب من عيوب الخيل

---

(١) الموازنة — ٢١١ .

فإن كان ظهر الفرس أبيض خلقة فهو أرجل ولا يقال أشعل .

وقد أخذ البحترى قوله : بدء شيب المفرق ، فجاء به حسنا جدا ثم سلم من العيب فقال :

وبشعلة كالشيب مرَّ بمفرقٍ غزِل لها عن شيبه بغرامه

فقال « بشعلة » ولم ينص على موضعها ، ومعلوم أنه أراد بياضا فى الناصية ،

وقال : « مر بمفرق غزل » فأوضح أنه ذلك الموضع أراد .

وقال : « لها عن شيبه بغرامه » فأتى بشىء يفوق كل حسن ؛ إلا أن البياض فى الناصية من عيوب الخيل ، وكذلك البياض فى الذنب ؛ ليس بين الناس فى ذلك اختلاف[1] .

* * *

وقال فى الفرس أيضا :

مسودّ شطر مثلما اسود الدجى مبيض شطر كابيضاض المُهرَقِ

شطر الشىء : جانبه وناحيته ، قال الله — عز وجل — : « فول وجهَك شطرَ المسجد الحرام » : أى ناحيته .

وقد يراد بالشطر : نصف الشىء ؛ يقال قد شاطرتك مالى : أى ناصفتك فهذا هو الأكثر الأعم فيما يستعملونه ، وذلك من أقبح شيات الأبلق على ظاهر هذا المعنى ، ولم يرده أبو تمام ، وإنما أراد بالشطر ههنا : البعض أو الجزء : أى مسود جزء مبيض جزء ، فجاء بالشطر لأنها لفظة أحسن من الجزء ومن البعض فى هذا الموضوع[2] .

---

(١) الموازنة — ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق — ٢٢٥ .

وقال — يصف فرساً أيضاً — :

هاديه من جذع الأراك وما تحت الصَّلا منه صخرة جَلَس

الهادى : العنق ، والصلا : وسط الظهر ، والجلس : العظيمة .

أنكر عليه أبو العباس أحمد بن عبيد الله : أن يشبه عنق الفرس بالجذع ، وأن يكون الجذع جذع أراك .

فمتى كان للأراك جذوع ؟ لأن عيدان الأراك لا تغلظ حتى تصير كالجذوع ، ولا تقاربها .

وقد سلم الآمدى بجواز تشبيه عنق الفرس بالجذع استدلالا من كلام العرب ، ووافق أبا العباس فى إنكاره أن تكون عيدان الأراك جذوعا[1] .

• • •

وقال :

شهِدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحّت كما محّت وشائع من بُرد

محت : بليت .

جعل الوشائع : حواشى البرد أو شيئاً منها وليس الأمر كذلك ، إنما الوشائع : غزل من اللحمة ملفوف ، يجره الناسج بين طاقات السَّدى عند النِّساجة ، قال ذو الرمة :

به ملعب من مُعصفات نسجنه كنسج اليمانى برده بالوشائع

فأما قول كثير عزة :

ديار عفت من عزّة الصيفَ بعدما تُجد عليهن الوشيعَ المُنمنَمَا

إنما أراد بالوشيع هنا : ما تسد به الخصاصة بين الشيئين ، وهذه وشائع الغزل .

---

(١) الموازنة — ١٢٥ .

والمنمنم : مأخوذ من النمّام ، وهو نبت طيب الريح[1] .

أى بعد ما كانت هذه الديار تجد بالوشيع : أى بخصص جنابها .

ومثل أبي تمام لا يسوغ له الغلط فى مثل هذا لأنه حضرى ، وإنما يساح فى ذلك البدوى الذى يريد الشىء ولم يعاينه ، فيذكر غيره لقلة خبره بالأشياء التى تكون بالأمصار .

وأما أبو تمام فليست هذه حاله ، بل ما جهل هذا ولكنه سامح نفسه فيه ، ألا ترى إلى قوله فى موضع آخر — يصف قصيدة — :

الجِدُّ والهـــزل فى توشيع لحُمتها
والنبل والسُّخف والأشجان والطرب

فقال : فى توشيع لحمتها[2] .

* * *

وقال :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه   بكفيك ما ماريت فى أنه بُرد

أنكر عليه أبو العباس أحمد ذلك ، وقال : هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت .

ولم يرد على هذا شيئاً .

وقال الآمدى : والخطأ ظاهر ، لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ؛ وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل ونحو ذلك[3] .

وأورد على قوله أمثلة من كلام الشعراء .

---

(١) هذا رأى الآمدى ، وأرى أنها مأخوذة من التنمنة ، وهى : الزخرفة والنقش .
(٢) الموازنة — ١٧ — ١٧١ .
(٣) المصدر السابق — ١٢٦ — ١١٧ .

ويرى الأستاذ الدكتور طه حسين : أن وصف الحلم بالرقة فى شعر أبى تمام وقع موقعه ؛ لأن الشاعر متأثر برقة العيش ولين الحياة فى عصره ، فالحلم فى العصر العباسى رقيق رقة هذا العصر ، بخلاف الحلم فى العصر الجاهلى .

وأقول : إن وصف الحلم بالرقة جاء فى شعر الأعراب البُداة أيضا .

يقول بعضهم فى وصف إسماعيل بن صبيح الكاتب — وكان من أحسن الناس خطا — :

رقيق حواشى الحلم حين تَبُوره ... يريك الهوينى والأمور تطير[1]

تبوره : تختبره .

فليس بصحيح ما قاله الآمدى : من أن وصف أبى تمام للحلم بالرقة لم يأت فى جاهلية ولا إسلام !

وقد أنكر العسكرى هذا الوصف على الأعرابى كما أنكره الآمدى على أبى تمام فقال : إنه ردىء لأن الحلم يوصف بالرجحان والرزانة لا بالرقة .

وعقب على ذلك بقوله : لا ، بل أحسبنى سمعت بيتا لبعض المحدثين يصف فيه الحلم بالرقة ليس بالمختار[2] .

ثم قال : واستعمل أبو تمام هذا اللفظ فعيب عليه[3] .

فالأمر كما ترى لا يعدو اختلاف وجهات النظر .

* * *

وقال فى رثاء محمد بن حُميد الطوسى :

كأن بنى نبهـــان يوم وفاته ... نجوم سماء خرَّ من بينها البدر

---

(١) زهر الآداب ٢ — ١٠٩ .

(٢) الصناعتين — ١١٧ .

(٣) ديوان المعانى ٢ — ٧٧ .

وقد قال له أحمد بن عبيد بن ناصح : أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟

فقال أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم ، لأن قمرهم قد ذهب .

فقال : والله ماتكون الكواكب أحسن ماتكون ، إلا إذا لم يكن معها قمر !

ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي :

بقية أقمار من العز لو خبت — لظلت معدٌّ فى الدجى تتسكع

إذا قمر منها تغوّر أو خبا — بدا قمر من جانب الأفق يلمع

قال : فوجم وسكت[١] !

والحق أن هذه مغالطة صارخة ؛ فإن أبا تمام لم يرد وصف حالهم الحسية من إشراق وبهجة ورفعة حتى يقال : إن سناهم وسناءهم يتضاعف إذا غاب القمر ، ولكنه وصف حالهم المعنوية ، فشبه فقيدهم بالقمر فى سيادته الكواكب ، وشبههم بالكواكب بالنسبة إليه ، فكأنه قال : غاب قمرهم الذى هو موضع زهوهم ، وواسطة عقدهم ، ومجلى زينتهم ، فأصبحوا بعده كواكب مجردة من غير قمر ، وما حسن كواكب لاتحَفّ بأقمار ؟

ولا شك أن هذا معنى جميل مستقيم ، ولا يعيبه إلا جاهل أو متعصب!

وقد سُبق أبو تمام بهذا المعنى فى قول صفية الباهلية كما يقول العسكرى:[٢]

أخنى على مالك ريبُ الزمان ولا — يُبقى الزمان على شىء ولا يذَر

كنا كأنجم ليل بيننا قمر — يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

• • •

وقال — يصف الصلة — :

---

(١) الموشح — ٣٠٧ .
(٢) ديوان المعانى — ١٧ .

حلت محل البكر من مُعطى وقد زُفّت من المعطِى زِفاف الأيِّم

فوضع الأيم مكان الثيب وليس الأمر كذلك ، فليس الأيم : الثيب في كلام العرب ، إنما الأيم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيبا ، قال الله — عز وجل — : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » .

وليس مراده — تعالى — نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار ، وإنما يريد النساء اللاتي لا أزواج لهن .

وقد قال الشماخ :

يُقِرُّ بعيني أنْ أُحدَّثَ أنها وإن لم أنلها أيِّمٌ لم تَزوّجِ

وليس يسره أن تكون ثيبا .

وقد وقع البحتري في هذا الخطأ نفسه فقال :

تشُقُّ عليه الريح كلَّ عشية جيوب الغمام بين بكر وأيِّم

وقد حكى أن بعض كبار الفقهاء وهو محمد إدريس الشافعي غلط في ذلك ، والصحيح ما ذكرناه[1] .

• • •

وقال البحتري — يصف الفرس — :

ذنَبٌ كما سُحب الرداء يذُبُّ عن عُرْفٍ وعرفٌ كالقناع المسبَل

قال الآمدي : هذا خطأ في الوصف ، لأن ذنب الفرس إذا مس الأرض كان عيبا فكيف إذا سحبه ؟

وإنما الممدوح من الأذناب ما قرب من الأرض ولم يمسها[2] .

---

(١) سر الفصاحة — ٧٣ .

(٢) الموازنة — ٣٤٨ .

وقد اعتذر له المرتضى بكلام طويل . زبدته : أن الشاعر لا يصح أن يؤخذ عليه فى كلامه التحقيق والتحديد ، لأنه مبنى على التجوز والتوسع والإشارات الخفية ، والإيماء إلى المعانى ، وإلا بطل الشعر جميعه ، لأن المخاطب به يعرف أوضاعه ويفهم أغراضه ، لا الفلاسفة وأهل المنطق .

والبحترى لم يرد بقوله غير المبالغة فى وصف الذنب بالطول والسبوغ وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض ، ومن شأن العرب أن تجرى على الشىء الوصفَ الذى كان قد يستحقه ، وقد قرب منه القرب الشديد ، ويأتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقا بل لتفهم منها الغاية المحمودة ، والنهاية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك ، فلا تنكر على البحترى أن يريد أنه فى غاية الطول الممدوح المحمود ؛ لا أنه ينجرّ فى الأرض على الحقيقة(١) .

* * *

وقال البحترى أيضا :

بدت صفرة فى لونه إن حمدهم	من الدر ما أصفرت نواحيه فى العقد
وحرّت على الأيدى مجسّة جسمه	كذلك موج البحر ملتهب الوقد
ولست ترى شوك الأراكة خائفا	سموم رياح القادحات من الزّند

وصف فى البيت الأول الدر بالصفرة ، وإنما يوصف بشدة البياض ، وإذا أريد المبالغة فى وصفه وصف بالنصوع ، ومن أعيب عيوبه الصفرة وقالوا : كوكب درى لبياضه ، وإذا أصفر احتيل فى إزالة صفرته ليتوضأ .

واستعمال الحواشى فى الدر أيضاً خطأ ، ولو قال : نواحيه لكان أجود ، والحاشية للبرد والثوب فأمّا حاشية الدر فغير معروفة .

---

(١) أمالى المرتضى — ٤ — ١٣ .

وفى البيت الثانى وصف موج البحر بالالتهاب وهذا غلط ، لأن البحر غير ملتهب الموج ولا متقد الماء ، ولو كان متقدا أو ملتهبا لما أمكن ركوبه وإنما أراد أن يعظم أمر الممدوح لجاء بما لا يعرف .

والخطأ فى البيت الثالث : أنه شبه العليـــل بشوك القتاد ، لصلابته على شدة العلة .

وزعم أن شوك القتاد لا يخاف النار التى تقدح الزناد ، وقد علمنا أن النار تفلق الصخر وتلين الحديد ، فكيف يسلم منها شوك القتاد !

وليس لذكر السموم والرياح أيضاً فائدة[1] .

* * *

وقال أبو المعتصم — يصف جرى الفرس — .

كأنمـــا أربَعُـه إذا تناهبن الثرى

ريح القَبول والدبو ر والشَّمال والصَّبا

قال الأصمعى : والقبول والصبا واحد .

وفى كتب اللغة : القبول كصبور : ريح الصبا ، لأنها تقابل الدبور ، ريح الغرب ، أو لأنها تقابل باب الكعبة ، أو لأن النفس تقبلها .

لجاء بتكرار لا فائدة فيه .

* * *

وقال المتنبى — يصف الحمى — :

إذا ما فارقتنى غسّلتنى كأنا عاكفان على حرام

وليس الحرام أخص بالاغتسال من الحلال[2] .

---

(١) الصناعتين — ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) اليتيمة — ١ — ١٤١ .

يعنى أن الحرام والحلال يغتسل منهما على السواء ، لأن الغسل من مطلق الجنابة ، بغض النظر عن الحل والحرمة .

...

وقال :

قالت وقد رأت اصفرارى مَن به   وتنهـــدت فأجبتها المتنهِّد
فمضت وقد صبغ الحياء بياضها   لونى كما صبغ اللجينَ العسجد

ذكر أن الحياء يصفِّر اللون ، وهو لا يصفره بل يحمره ، وهو جهل بطبائع الأشياء .

وقد اعتذر له الواحدى : بأن هذا الحياء كان مختلطا بالخوف من الفضيحة ، أو الخوف من أن يسمع الرقيب هذا الكلام ، فغلب الخوف على الحياء فأكسبها صفرة[1] .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهافت .

...

وقال السرى الرفاء :

قم يا غـــلام فهاتها فى كأسها   كالجلَّنارة فى جنى نِسرين
أو ما رأيت هلال شهرك قد بدا   فى الأفق مثل شعيرة السكين

جعل الزجاج كأسا ، ولا يقال : كأس إلا إذا كانت مملوءة[2] .

...

وقال المعرى :

ولقد سلوت عن الشباب كما سلا   غيرى ولكن للحزين تذكر

---

(١) العرف الطيب ١ — ٤١ .
(٢) ديوان المعانى ١ — ١٤٣ .

فيقال : كيف يجوز أن يسلو وهو حزين يتذكر .

ويقول ابن سنان الخفاجى : وقد قرأت عليه هذا البيت فى جملة شعره ولم أسأل عنه .

والذى يحتمل عندى من التأويل : أنه أراد بالسلو ههنا اليأس ورفض الطمع ، فكأنه قال : قد يئست من الطمع فى الشباب يأس غيرى ، ولكنى حزين أتذكر ، وهذا وجه قريب[1] .

° ° °

ولا يخلو شعر العصريين من الأخطاء بالرغم من ثقافتهم الرفيعة ، وما أمدتهم به العلوم من المعارف الوثيقة ، فمن ذلك على سبيل التمثيل قول أميرهم « شوقى » يصف تصعيد الطائرات فى الجو :

ذهبتْ تسمو فكانت أعقُبا ... فنسورا فصقورا فحماما

بعضها فى طلب البعض كما ... طارد النسر على الجو القطاما

وكان الترتيب الواقعى فى البيت الأول أن يقول : فكانت نسورا فأعقبا ، فصقورا ، فحماما .

لأن النسور أضخم من العقبان أجساما ، وإن كانت أقل منها قوة وبطشا ، والعادة أن الطيارة تصغر حين تصعد فى الجو شيئا فشيئا ؛ فمن المعقول أن تبدو باديءْ ذى بدء فى نظر العين نسرا ثم عقابا لا العكس ، ولكنه هنا يقول : إنها بدأت صغيرة ثم صارت كبيرة وهذا محال !

وفى البيت الثانى : ذكر أن النسر يطارد القطام بالضم والفتح وهو الصقر ، وذلك جهل فاضح بطبيعة كل منهما .

---

(١) سر الفصاحة — ٢٣١ .

فالنسر من الطيور التى تأكل من صيـــد غيرها ، وتقع على الجيف المطروحة كالحِدَأة .

والصقر من عِتاق الطير وأحرارها كالعقاب والشاهين والباز ، وهى بمثابة الأسود من الحيوان المفترس ، تصيد وتترك بقايا فرائسها للنسور وغيرها من كلاب الطيور .

فالنسر لا يفكر فى مطاردة الصقر ! وهو أعجز وأجبن وأضعف من أن يطارده .

وكان يصح البيت لو قال :

بعضها فى طلب البعض كما   طارد الصقر على الجو الحماما

الفصل العاشر

أ — أدوات الكتابة وحروف الهجاء في التشبيه :

ب — تشبيه أعضاء الجسم بهما :

هذه ألوان طريفة من التشبيه ، بل لعلها أطرف ألوان التشبيه جميعاً !

وبديهى أن هذه الضروب من صور التشبيه لاتروج إلا فى العصور التى ترتقى فيها الحضارة المادية ، وتنتشر الكتابة والثقافة حتى يمكن انتزاع هذه الصورة منها .

وحين نتصفح آثار الجاهليين والمخضرمين تطالعنا بعض هذه الألوان على قلة ، وفى إطار محدود ؛ تجرى بها ألسنة شعراء بعضهم كان ملما بالكتابة أو خالط الحضر ، وبعضهم كان أميا بدوياً ولكن لم يعيه التشبيه اعتماداً على الرؤية .

يقول مرقّش الأكبر :

الدار قفر والرسـوم كما رقّش فى ظهر الأديم قلمْ [1]

وكان مرقش يكتب ؛ فقد دفعه أبوه هو وأخاه حَرملة إلى نصرانى من أهل الحيرة فعلمهما الخط [2] .

وقد عظم اتصاله بالحارث بن أبى شَمِر الغسّانى ؛ حتى رُوى أنه اشتغل كاتباً له [3] .

---

(١) الترقيش: التزيين والتحسين أو الكتابة ، والأديم : الجلد .

(١) معاهد التنصيص — ١ — ١٦٣ .

(٣) شعراء النصرانية — ١ — ٢٩٢ .

ويقول طرفة فى وصف الناقة :

وخد كقرطاس الشآمى ومِشفَر كسِبْت اليمانى قدُّه لم يجرَّد

السبت بالكسر : جلود البقر المدبوغة بالقرظ ، والتجريد : اضطراب القطع وتفاوته .

شبه خدها فى ملاسته بقرطاس الرجل الشامى ، وشبه مشفرها فى لينه واستقامة قطعه بسبت الرجل اليمانى .

ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى :

ولابنة حِطّان بن عوف منازل كما رَقش العنوانَ فى الرَّق كاتب[1]

ولم يكن طرفة ولا الأخنس يعرفان الكتابة .

ونجد ذلك أيضاً فى قولِ ثعلبة بن عمرو :

لمــن دمن كأنهن صحائف قِفار خلامنها الكثيب فواحف[2]

وقول الحارث بن حِلِّزة اليشكُرى :

لمن الديار عفَوْن بالحبْس آياتها كمهارق الفُرس[3]

وقول المرّار بن منقذ الحنظلى العدوى :

وترى منها رسوما قد عفت مثل خط اللام فى وحى الزُّبُر[4]

وقول معاوية بن مالك :

من الأجزاع أسفل من نُمَيْل كما رجَّعت بالقلم الكتابا[5]

---

(١) الرق بالكسر والفتح : جلد رقيق جداً ، أو الصحيفة البيضاء .

(٢) الكثيب وواحف : موضعان .

(٣) الحبس مثلث الحاء : موضع ، والمهارق : الصحف جمع مهرق بضم فسكون ففتح .

(٤) الوحى : نقش الكتاب ، والزبر : الكتب جمع زبور .

(٥) الأجزاع : منعطفات الوديان جمع جزع بالكسر .

وقول عبد الله بن عنمة الضبى :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل ... كما رُدَّ فى خط الدواة مدادها

وقول حاتم الطائى :

أتعرف أطلالا ونُؤْيا مهدَّما ... كخطك فى رق كتابا منمنما (١)

وقول كعب بن زهير :

أتعرف رسما بين دهمان والرَّقْمِ ... إلى ذى مراهيط كما خُط بالقلم

وفى العصر الأموى نعثر لها على أمثال لاتوصف بالكثرة فى كلام بعض الأعراب والرُّجاز والشعراء .

فمن ذلك ما أنشده ابن سلام لأبى النجم العجلى الراجز ، يصف صديقا كان يسقيه الشراب فينصرف من عنده ثملا :

أخرج من عند زياد كالخَرِف ... تخط رجلاى بخط مختلِف (٢)

كأنما تكتِّبان لام الِفْ

وقول ذى الرمة — يصف عين ناقته — :

كأنما عينها شِنْها وقد ضمُرت ... وضمها السيرُ فى الأضاء ميم (٣)

يريد : كأن عينها فى هذه الحال ميم لتدويرها وغئورها .

ومن الغريب أنه أخذ على أبى النجم وذى الرمة أنهما يعرفان الكتابة ، قال الصولى : وقد عيب أبو النجم بهذا فقيل : لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف وعناقها لها ، كما عيب ذو الرمة فقيل : لولا أنه يكتب ما عرف الميم (٤) .

---

(١) النؤى كقفل : الحاجز من التراب يقام لمنع السيل عن البيوت والمنمنمة : الزخرف والنقش .

(٢) الخرف : ككتف : فاسد العقل .

(٣) الأضا : كقطا : الغدران جمع أضاة .

(٤) الموشح — ١٧٧ .

وذكر الأصمعى[١] : أنه قيل لذى الرمة : من أين عرفت الميم؟ لولا صدق من نسبك إلى تعليم أولاد الأعراب فى أكتاف الإبل!

فقال والله ماعرفت الميم إلا لأنى قدمت من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان وهم يجوزون بالفِجَرِم[٢] فى الأُوَق[٣] ، فوقفت حيالهم أنظر إليهم ، فقال غلام من الغِلمة قد أزَّقتم[٤] هذه الأوقة فجعلتموها كالميم .

فقام غلام من الغلمة فوضع مِنْجَمه[٥] فى الأوقة ؛ فنجنجه[٦] فأفهقها[٧] .

فعلمت أن الميم شىء ضيق فشبهت عين ناقتى به وقد اسلهمَّت[٨] وأعيت .

وحكوا : أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابى : انظر كم على هذا الميل من عدد الأميال؟

ولم يكن الأعرابى يحسن القراءة فمضى ينظر ، ثم عاد فقال : رأيت شيئاً كرأس المِحجَن[٩] متصلا بحلقة صغيرة تتبعها ثلاث كأطباء[١٠] الكلبة ، تُفضى إلى هَنة[١١] كأنها قطاة بلا منقار .

ففهم هشام بالصفة أنها خمسة[١٢] .

---

(١) أمالى القالى — ٢ — ٦ .

(٢) الفجرم بكسر الفاء والراء : الجوز .

(٣) الأوق : الحفر وزنا ومعنى ، مفردها أوقة بالضم .

(٤) أزق بتشديد الزاى : ضيق .

(٥) المنجم كمنبر : العقب والكعب .

(٦) نجنجه : حركه .

(٧) أفهقها : ملأها .

(٨) اسلهم : تغير .

(٩) المحجن كمنبر ومكنسة : العصا المعوجة .

(١٠) الأطباء : حلمات الضرع جمع طبى بالكسر والضم .

(١١) الهنة : الشىء اليسير .

(١٢) ديوان المعانى — ٢ — ٧٢ .

وقد كانت مكتوبة بالحروف «خمسة».

فرأس المحجن: الخاء، والحلقة الصغيرة: الميم، وأطباء الكلبة الثلاث: أسنان السين، والهنة: التاء المربوطة.

وهو من البراهين الناصعة على حدة ذكاء الأعراب.

ولما جاء العصر العباسي وعم الترف ولان جانب العيش، وفشت القراءة وانتشر العلم والثقافة، كثر هذا اللون في آثار المحدثين قولا وكتابة وشعراً.

فمن ذلك قول أبي نواس — يصف البط —:

كأنما يصفِرن من ملاعق ... صرصرة الأقلام في المهارق

وقوله في المنسر:

ومنسر أكلف فيه شَغَنَا ... كأنه عَقـد ثمانينا[١]

ألبسه التطريز من حوله ... وشياً على الجؤجؤ موضونا

له جراب فوق قفـازه ... بجمـع تأنيقا وتسنينا

كل سِنان عيج عن متنه ... تخـال محنَى عطفه نونا

وقوله يهجو الرَّقاشيين:

رأيت الرقاشيين سوداً من الصَّلى ... وقدْر الرقاشيين بيضاء كالبدر[٢]

يبيِّنها للمعتـفى بفنـائهم ... ثلاث كخط الثاء من نقَط الحبر

إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها ... أمامهم الحوليُّ من ولد الذر[٣]

وقول ابن المعتز في قيام السقاة بين الندامى — وهو أجود ما قيل في ذلك —:

---

(١) المنسر كمجلس ومنبر: المنقار، والشغا: زيادة المنقار الأعلى.
(٢) الصلى بفتح الصاد: النار.
(٣) الذر: صغار النمل، والحولى: ما أتى عليه حول، والمراد: الصغير جدا.

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه الكلام
وكأن السُّقاة بين الندامى أَلِفات بين السطور قيام

شبه اصطفاف الشَّرب جلوساً بالسطور ، والسقاة بينهم بالألفات فأحسن .

وقوله فى وصف الحَباب المؤلف من المزاج :

تكتب فيه أيدى المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق[1]
لا شىء يُسلى همى سوى قدح تَدمَى عليه أوداج إبريق

ولعله مما ساعد على ذلك أن كثيراً من غلمان الموالى كانوا من كتاب الدواوين ، وأن الجوارى الحسان على اختلاف عناصرهن كن يمارسن الكتابة ، ويشاركن فى الشئون الثقافية بنصيب ملحوظ ، فكان ذلك من منابع الإلهام الشعرى .

وإنك لواجد أثر ذلك فيما يذكرونه[2] : من أن المأمون نظر إلى جارية من جواريه اسمها ، مُنْصف ، تخط خطاً حسناً ، وكان ذا شغف بها فقال :

أرانى منحت الود من ليس يعرف فما أنصفتنى فى المحبة « منصف »
وزادت لدينا حُظوة حين أطرقت وفى إصبعيها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جَسيمات المنى وهو أعجف

وقوله :

كأنما قابل القرطاسَ إذ مشقَت منها ثلاثة أقلام على قلم[3]

---

(١) التعريق : عدم فى المبالغة فى المزج .

(٢) ديوان المعانى — ٢ — ٨٤ — العقد الفريد ٢ — ٢٨٣ .

(٣) المشق : مد أحرف الكتابة .

يريد بالأقلام الثلاثة : أصابعها المحيطة بالقلم ، وهى المعنيّة بقول أبى تمام فى وصف القلم :

وقد رفَدَته الخنصران وسدَّدت ... ثلاثَ نواحيه الثلاث الأنامل

ويقول القصَّار فى وصف جارية كاتبة ، اسمها « عَلَم » .

أفدى البنانَ وحسن الخط من علَم ... إذا تقمَّعن بالحناء والكتَم[١]

حتى إذا قابلت قرطاسَها يدُها ... ترى ثلاثة أقلام على قلم

وكتبت جارية لعلى بن الجهم فى رقعة بعثت بها إليه[٢] :

قلب يُمِلُّ على لسان ناطق ... ويد تخُط رسالة من عاشق

مزج المدادَ بعبرة شهِدت له ... من كل جارحة بقلب صادق

فيمينه تحت الوساد ، وخدُّه ... ويساره فوق الفؤاد الخافق

فكتب إليها :

ما رقعة جاءتك مَثْنيَّة ... كأنها خد على خد

نَثْر سوادٍ فى بياض كما ... ذُرَّ فتيت المسك فى الورد

ساهمة الأسطر مصروفة ... عن جهة الهزل إلى الجِد

يا كاتباً أسلمنى عَتبُه ... إليه حسبى منك ما عندى

ويصف أحمد بن أبى صالح « ابن شيرازاد » جارية كاتبة فيقول[٣] : كأن خطها أشكال صورتها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها غُنْج[٤] لحظها ، وكأن مدادها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها أديم

---

(١) التقميع : تخضيب أطراف الأصابع ، والكتم بفتح التاء : نبت يخلط بالحناء ويستعمل خضابا ، وإذا طبخ صار مدادا .

(٢) العقد الفريد — ٣ — ٢١ — ٤ — ٣٥٩ .

(٣) العمدة — ٢ — ٢٥ — زهر الآداب — ٣ — ٩٣ .

(٤) الغنج بالضم : الدلال والغزل وقيل ملاحة العينين .

وجهها ، وكأن قلبها بعض أناملها ، وكأن مِقـطَّها[1] قلب عاشقها .

ويحكى عن بعضهم[2] : أنه دخل دار الديوان ، فنظر إلى غلام بيده قلم كأنه قضيب عِقيان ، وعليه مكتوب :

وا بأبى وا بأبى من كف من يكتب بى

ويقول الصنوبرى فى كاتب جميل الصورة :

انظر إلى أثر المداد بخــده كبنفسج الروض المشوب بورده
ما أخطأت نوناته من صُدغه شيئا ولا ألفاته من قده[3]
ألقت أنامله على أقلامــه شبهًا أراك فِرِنْدها كفرنده
وكأنما أنقاســه من شَعره وكأنما قرطاسه من خده[4]

ويقول أحمد بن يوسف : ما عبرات الغوانى فى خدودهن ، بأحسن من عبرات الأقلام فى خدود الكتب !

ويقول العسكرى — يصف الصحيفة — :

بياض صحيفة تلتاح حسنا كمتن السيف فى كف المُليح[5]
كغيم رقَّ فى أطراف جو وماء ساح فى قاع فسيح
ونحكى أرض كافور صريح بها نَبذ من المسك الذبيح[6]
كمثل الليل فى صبح صديع ومثل الصُّدغ فى وجه صبيح[7]

---

(١) المقط بكسر الميم كما ضبطه الجوهرى إلا أنه قال : وفيه مقطة .

(٢) العقد الفريد ٣ — ٢٧ .

(٣) شبه شعر الأصداغ الملتوية بالنونات .

(٤) الأنقاس : جمع نقس كمسك وهو المداد .

(٥) تلتاح : تلوح ، والمليح بضم الميم : المحاذر والملوح بسيفه .

(٦) الذبيح : المفتوق .

(٧) الصديع : المشرق .

وبين سطوره مَعْجَم مصيب كمثل الخال فى الخد المليح[1]

ويقول فى القلم والقرطاس :

يبدو لناظره بلون أصفر ومدامع سود وجسم مُنحَل

فالدَّرج أبيض مثل خد واضح يَثْنيه أسود مثل طرف أكحل[2]

ويقول منصور بن إسماعيل فى الدواة :

وسوداءُ مقلتُها مثلهـا وأجفانها من لجين صقيل

إذا ذرفت عبرة خلتها كغالية فوق خد أسيل

فى هذه البيئة القارئة المثقفة ، أنفسح مجال جديد للشعراء يقايسون فيه بين الأعضاء الجميلة ، والحروف المكتوبة ، وأدوات الكتابة ذاتها .

ولم يكتفوا بذلك فوصفوا الرسائل نفسها — فى بهاء قراطيسها ، وصفاء مدادها ، وملاحة خطوطها ، وجمال حروفها — وصفا تشوبه نفحات ندية عطرة من الغزل والنسيب ، حتى كأنها أجسام حية تروق وتروع بحسن منظرها ودقة انسجامها ، ورقة بشرتها ، ولين مجستها !

وقد كثر ذلك بنوع خاص فى العصر العباسى الثانى وما تلاه من عصور وأوغل فيه الشعراء إيغالا شديداً ، واتكئوا عليه فى تشبيهاتهم الغزلية وصور بيانهم كما سنفصله فيما يلى :

١ — الشطبة ، وهى الخط الذى يضرب به على الخطأ فى الكلام .

ويشبه بها العذار كقول ابن عبد الظاهر :

بالصدغ أبدى شطبة من شكلها محوط

سألته عن أمرها فقال زاد اللغط

---

(١) المعجم بفتح فسكون : النقط .

(٢) الدرج بفتح الدال وإسكان الراء وفتحها : ما يكتب فيه « القرخ » .

قلتم بدالى عارض ‏ ‏ ‏ مُشكّل منقط[1]

جئت شطبت فوقه ‏ ‏ ‏ وقلت هذا غلط

٢ – الهمزة :

وتشبه بها عطفة الصدغ كقول ابن حجة الحموى :

ألف القد مدها لى بعزه ‏ ‏ ‏ وعليها من عطفة الصدغ همزه

وقول القاضى الفاضل – وهو من بدائعة – :

فى خده فخ لعطفة صدغه ‏ ‏ ‏ والخال حبته وقلبى الطائر

٣ – الألف :

ويشبه بها القد كقول الحموى المتقدم :

ألف القد مدها لى بعزه . . . .

وقول الخبز أرزى :

أهيف يحكى بقده الألفا ‏ ‏ ‏ يخسر من لم يكن به كلفا

أحسن من بهجة الخلافة والأمن م لمن ‏ ‏ ‏ قد يحاذر التلفا

لو أبصر الوجه منه منهزم ‏ ‏ ‏ يطلبه ألف فارس وقفا

وقول ابن الوردى :

قوامه أشبه شىء بالألف ‏ ‏ ‏ كمثلما تكتبه لا يختلف

وقول ابن الجبار :

رنت إلى بعين الظبى والتفتت ‏ ‏ ‏ بجيده وثنت من قدها ألفا

وقول ابن الدهان – يتحسر على ذهاب شبابه – :

وعهدى بالصبا زمنا وقدّى ‏ ‏ ‏ حكى ألف «ابن مقلة» فى الكتاب

---

(١) العارض : صفحة الخد ، والمراد هنا : العذار .

فصرت الآن منحنياً كأنى ‏ ‏ أفتش فى التراب على شبابى

ويشبه بالألف أيضاً العذار كقول ديك الجن الحمصى :

كأن لاما أديرت فوق وجنته ‏ ‏ واختط كاتبها من تحتها ألفا

شبه شعر الأصداغ باللام ، والعذار بالألف .

والشاهد فى الشطر الثانى .

وقول العسكرى :

وكأن دارة صدغه وعذاره ‏ ‏ ألف تُقوَّم تحت نون تُعطَف

شبه الألف بالعذار ، والصدغ بالنون .

وقوله :

قدالتوى صدغه واختط عارضه ‏ ‏ كأنه ألف من فوقها نون

٤ — اللام .

ويشبه بها شعر الأصداغ كما تقدم فى قول ديك الجن .

كأن لاما أديرت فوق وجنته ....

وقول بعضهم :

ذو حاجب ماإن رأيت كنونه ‏ ‏ أبدا وصدغا مارأيت كلامه

والشاهد فى الشطر الثانى .

وقول ابن الوردى :

قال من أهواه صف صدغى بما ‏ ‏ فيه توجيـــه وحبِّبه إلىّ

قلت إن الصدغ لام قد كوى ‏ ‏ نَصبُها قلبي فهذى لام كى

والتورية فى قوله : , لام كى ، غير خافية .

ويشبه باللام كذلك العذار على كثرة — وهو الشعر النابت على الخد — كقول الحصرى :

يروع مُناجيه بهاروت لحظه ... ويؤنسه منه بصورة آدم

ترى فيه لاما قُرْدة فوق خده ... وفصاً من الياقوت من فوق خاتم

وقول ابن نُباتة :

لام العذار أطالت فيك تسهيدى ... كأنها لغرامى لام توكيد

وقول ابن رشيق :

خطّ العذارُ لها لاما بصفحته ... من أجلها يستغيث الناس باللام

وقول الشاب الظريف :

بأبى أفدى حبيبـــا ... تيم القلب غراما

عذر العاذلُ فيـــه ... مذ رأى العارضَ لاما

وفى قوله : « لاما » تورية .

وقول سعيد الدين بن عربى :

لما تبدّى عارضا لى فى نمطْ ... قيل ضياء بظلام اختلط

وقيل نمل فوق عاج قد سقط ... وقال قوم إنها اللام فقط

وقال ابن وهبون الأندلسى :

وكان للحُسْن سرٌّ فيه مكتتمٌ ... وشى به ناظرى من طول ما بحثا

لام يدلُّ على بَلبال مبصره ... ما زال يبحث وجدى كلما انبعثا

وقول ابن عيشون الأندلسى :

وسنانُ ما إن يزال عارضه ... يَعطف قلبى بعَطفة اللام

وقول ابن الخباز :

ولى كاتب أضمرت فى القلب حبه ... مخافة حُسّادى عليه وعُذّالى

له صنعة فى خط لام عذاره ... ولكن سها إذ نقّط اللام بالخال

وقول بدر الدين الدماميني :

لاما عذاريك هما أوقعا ... قلب المحب الصب فى الحَين[1]

فجُد له بالوصل واسمح به ... ففيك قد هام بلامَين

وفى « لامين » تورية .

وقول بن حجلة المغربى :

ومستتر من سنا وجهه ... بشمس لها ذلك الصدغ فَى.[2]

كوى القلب منى بلام العذار ... فعرفنى أنها لام كى

وفى « لام كى » تورية .

وقد خالف الشاعر أبو غالب هذا النهج المسلوك فذم العذار ، محتجاً لذلك بأنه يشبه اللام فقال :

سأصنع فى ذم العذار بدائعاً ... فمن شاء فلْيقض الدليل كما أقضى

ألا إنه كاللام واللام شأنها ... إذا التصقت بالإسم صار إلى الخفض

٥ — الميم والألف .

وقع التشبيه بهما فى شعر أبى تمام فقال :[3]

يرمى الكتيبة بالكتاب إليهمُ ... ويرُوْن أحرفه الخميسَ كفاحا[4]

من نِقْسه دُهما ومن ميماته ... زرَداً ومن ألفاته أرماحا

النقس : الحبر ، وأراد بدهم النقس : الخيول السود .

وقد فسرها المرحوم الأستاذ محمود مصطفى بالقيود وهو جائز ، ولكن تفسيرها بالخيول هنا أنسب ، لأنه يصف عتاد جيش والخيول من

---

(١) الحين كبين : الهلاك .

(٢) الفى : الفئ . وهو ما كان شمسا فينسخه الظل .

(٣) هبة الأيام — ٣٦ .

(٤) الخميس : الجيش لأنه خمسة أقسام : الطليعة والساقة والميمنة والميسرة — وهما المجنبتان — والقلب .

أم معداته ، ويؤكد ذلك ذكره الورد والرماح .

والعلاقة بين الميمات، وحلقات الدروع، وبين الألفات، والرماح ظاهرة .

٦ — الواو .

وهى من أكثر الحروف دورانا فى شعر الغزل .

والسر فى ذلك أن الحسان فى العهود القديمة كن يلوين ذوائبهن المسترسلة على الخدود بشكل الواو ، ففتن الشعراء بهذه الصورة الأنيقة وأغرموا بوصفها .

وقد أشار أبو نواس إلى هذا الصنع بقوله :

ألوَى بصبرىَ أصداغ لُوِين له ... وغلٌّ صدرىَ ماتحوى غلائلُه

ومن ذلك قول محاسن الشوّاء :

أرسل فرعا ولوى هاجرى ... صدغا فأعيا بهما واصفهْ

فخلت هذا حيــة خلفَه ... تسعى وهذا عقربا واقفه

ذا ألف ليست لوصل وذا ... واو ولـكن ليست العاطفه

وقول العباسى :

تطمعنى فى الوصل أصداغه ... حين ترينى أحرف العطف

وهو ينظر إلى قول البهاء زهير — وفيه من الرشاقة واللطف مافيه — :

عسى عَطفة للوصل ياواو صدغه ... علىَّ فإنى أعهَد الواو تعطِف

وقول أمين الدولة التِّلمسانى :

نصبت على التمييز إنسان مقلتى ... أشاهد قدًّا منه نصبا على الظرف

أخشى فراقا بعدها وقساوة ... وقدجاءواو الصدغ للجمع والعطف

وقول برهان الدولة القيراطى :

ووردىٌّ خدى نرجسىٌّ لواحظ مشابخ علم السحر عن لحظه رووْا
و واوات صدغيه حكَيْن عقاربا من المسك فوق الجُلَّنار قدالتووْا

ومن النثر قول ابن حبيب الحلبي[1] : وصدغ معقرب ، لكنه لرُقية السليم[2] باب مجرب ، بعيد من القطف ، كأنه واو العطف ، أو جيم محكمة العِوج ، أو منجل صيغ من سبج[3] .

وبأتى ذكر لواوات الأصداغ فى البلاغة لدى التكلم على مواضع وصل الجملة ، وهو عطف بعضها على بعض بالواو أو إحدى أخواتها .

فمن ذلك أن يكون بين الجملتين «كمال الانقطاع» ، بأن تكون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية ، فإن هذا من مواضع الفصل وهو ترك العطف ، ولكن ترك العطف يوهم خلاف المراد فى مثل قولك : لا ، وشفاك الله ! لمن قال لك : إنه مريض .

فإن القصد الدعاء للمخاطب ، ولكنه لو ترك الوصل بعدم العطف لأوهم أنه دعاء عليه لا له ، فوصل بين الجملتين بالواو العاطفة لرفع التوهم ، مع أن الأصل فى ذلك الفصل لا الوصل .

ويسوق البلغاء فى ذلك مثالا طريفا يعد غاية فى أدب النفس والدرس والأنس[4] وسلامة الذوق ؛ وهو أن المأمون[5] قال يوما ليحيى بن أكثم : هل تغدَّيت اليوم ؟

فقال : لا ، وأيّد الله أمير المؤمنين !

فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها !

---

(١) نسيم الصبا — ٤١ .
(٢) السليم : الملسوع .
(٣) السبج كسبب : الخرز الأسود .
(٤) يقسم الأدب إلى هذه الأقسام الثلاثة .
(٥) فى زهر الربيع للأستاذ الحملاوى : أنه الرشيد — ٢٢ — ٦٨ .

وذلك أنه لو قال : لا ، أيد الله أمير المؤمنين ! لكان أشبه بالدعاء عليه لا له .

ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاجزة بين « لا » و « أيد الله أمير المؤمنين » حذراً من وقوع الشبهة[1] .

وفى رواية : أن المأمون سأل اليزيدى عن شىء فقال : لا ، وجعلنى الله فداك ياأمير المؤمنين !

فقال : لله درك ! ما وُضعت هذه الواو قط فى موضع أحسن من موضعها فى لفظك هذا !

ووصله وحمله[2] .

وكان الصاحب بن عباد يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود الملاح !

وكان الثعالبى يسمى مثل هذا : حشو اللَّوْزينج !

والحق : أن الإشادة بقيمة هذه الواو والحث على استعمالها فى مثل هذه المقامات ، يرجع إلى عهد بعيد ؛ فأول من نبه على ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — .

فقد رووا : أنه مر به رجل معه ثوب فقال له : أتبيعه ؟

فقال الرجل : لا ، رحمك الله !

وفى رواية : لا ، عافاك الله !

فقال الصديق : قد قوّمت ألسنتكم لو تستقيمون[3] ! ألا قلت : لا ، ورحمك الله[4] !

---

(١) ثمار القلوب — ٤٨٩ .

(٢) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٠٤ .

(٣) فى المستطرف ١ — ٤١ : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم .

(٤) ثمار القلوب — ٤٨٩ .

وفى الرواية الأخرى : قل : لا ، وعافاك الله[1] .

ومما يتصل بالواو : أن القدماء كانوا يطلقون على ما بعد العشرين من الشهر « الواوات » .

وكان أهل بغداد يقولون لرمضان بعد العشرين : وقع فى الأنين !

وبعضهم يقول : وقع فى الواوات .

وفى ذلك يقول ابن المعتز :

قد قرّب الله منه كل ما شسَعا ... كأننى بهلال الفطر قد لمعا

فخذ لشهرك قبل العيد أهبته ... فإن شهرك فى الواوات قد وقعا

٧ — واو عمرو .

يضرب بها المثل لما لايحتاج إليه .

وأول من ضرب بها المثل أبو نواس حيث قال لأشجع السُّلمى :

أيها المدعىُ سُلَيما سَفاها ... لست منها ولا قلامة ظُفر[2]

إنما أنت من سليم كواو ... ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

وفى بعض الروايات :

إنما أنت ملصَق مثل واو ... ألصقت فى الهجاء ظلما بعمرو

وتبعه الشعراء فى ذلك فقال ابن بسام :

ياطلوع الرقيب مابين إلف ... يا غريماً أتى على ميعاد

يا ركودا فى يوم صيف وغيم ... يا وجوه التجار يوم الكساد

خلِّ عنا فإنما أنت فينـا ... واو عمرو أو كالحدث المعاد

وأحسن ماسمع فى ذلك قول أبى سعيد الرستمى للصاحب بن عباد :

---

(١) البيان والتبيين — ١ — ٢١٦ .

(٢) يريد قبيلة سليم .

أفى الحق أن يعطى ثلاثون شاعراً ويُحرَم مادون الرضا شاعر مثلى[1]
كما ألحقت واو بعمرو زيادة وضويق «بسم الله» فى ألف الوصل

وقد جاءت فى وصف شوقى من قصيدة يصف بها البسفور :

فيا من يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيداً أو سميعا
رأيت محاسن الدنيا جميعا فهن الواو والبسفور عمرو

ومثل واو عمرو فى التمثيل بالزيادة التى لايحتاج إليها : بغلة الشطرنج .

٨ — النون .

ويشبه بها شعر الأصداغ كقول ابن المعتز :

غِلالة خــده ورد جنىٌّ ونون الصدغ منقوط بخال

وقوله :

له طُرّة كجناح الغُداف تلوح على غُرّة مقمِره[2]
وفى عَطفة الصدغ خال له كما استلب الصَّولجانُ الكره

والصولجان معقوف كالنون .

وقول العسكرى :

لا والذى دار من صدغيك وانعطفا وصار نوناً إذا صــيرته ألفا

وقوله :

إذا التوى الصدغ فوق وجنته رأيت تفاحه بها عضــهْ

وأثر العضة مقوس كالنون .

وقول نصر الحروى فى تفاحة معضوضة :

---

(١) هكذا ورد فى ثمار القلوب — ١٢٠ ، وفى طراز المجالس للخفاجى — ١٤٣ : من الناس من يعطى المزيد من الغنى .

(٢) الطرة : شعر الناصية ، والغداف : الغراب .

تفاحة قد عضها قمر عمداً ومسك موضع العضة
فكأنما نونان قد كُتبا بالمسك فى كرة من الفضه

شبه فى البيت الثانى أثر الأسنان العليا والسفلى بنونين بجامع التقويس .

وقول شيخ الشيوخ الحموى :

قلت وقد عقرَب صدغا له عن مَشقة الحاجب لم يُحجَب
قُدِّست يارب الجمال الذى ألّف بين النون والعقرب

وقوله أيضا :

وبدردجى لم ينتقل كسميّه ولكنه مازال فى القلب والطرف
يلوح لعينى ماشقا نون صدغه فأعبد خَلاّقى على ذلك الحرف

وفى الحرف تورية لطيفة .

أخذهما ابن الوردى بقافيتيهما وغالب ألفاظهما فقال :

يابدر تمّ نوره باهر منزله فى القلب والطرف
صدغك حرف النون فى مشقه من يعبد الله على حرف !

ولعمرى إنها سرقة فاحشة كما يقول الحموى ! [1] .

وقول ابن جابر الأندلسى :

سلب القلب غزال قدّه قد حكى البان لنا والعلما
نون صدغيه إذا أبصرها كاتب ألقى إليه القلما

ويشبه بالنون الحاجب أيضا ، وهو تشبيه فاش كثير كقول ابن حجلة المغربى :

يرنو إلى بعين نون حاجبها كالقوس تُصمى الرمايا وهى مِرنان

---

(١) خزانة الأدب — ٢١٥ .

والشطر الثانى مأخوذ من قول ابن الرومى :

تصمى المحب وتُلفَ الدهرَ شاكية ... كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

وقول ابن نباتة :

أغمــزه بناظــر ... ولم أفهُ بكلمهْ
يجيبنى بحــاجب ... لكن بنون العظمه

وسرقه الصفدى فقال : (١)

إن قلت زرنى قال لا ... بحاجب ما أظلمــهْ
فما ترى جــوابه ... إلا بنون العظمــه

ونون العظمة : هى نون المضارع التى للمتكلم مع الغير ، لأنه يتكلم بها المعظم نفسه .

وقول آخر :

لها حاجبان الحسنُ والغُنْج فيهما ... كأنهما نونان من خط ماشق

وقول أمين الدولة التلمسانى :

أضيف الدجى معنى إلى لون شَعره ... فطال ولولا ذاك ماخُص بالجر
وحاجبه نون الوقاية ماوقت ... على شرطها فعل الجفون من الكسر

٩ ـــ الحرف المشدَّد .

ويشبه به المتعانقان كقول ابن سناء الملك :

وليلة بتنا بعد سكرى وسكره ... نبذت وسادى ثم وسَّدته يدى
وبتنا كجسم واحد من عناقنا ... وإلا كحرف فى الكلام مشدَّد

وقد اعترض عليه : بأن العروضين يعدون الحرف المشدد بحرفين ، ولو قال : كحرف فى النظام لسلم من النقد ؛ لأن الحرف المشدد فى الخط

---

(١) شفاء الغليل — ٢٠٣ .

يعتبر حرفا واحداً ووزن البيت لايختل به (١) .

١٠ — لا .

وتستعمل فى القلة كقولهم : فلم يكن إلا كلا ولا حتى حدث كذا .

وكقول أبي نواس :

يا عاقر القلب منى هلا تذكرت خِلاً

تركت منى قليلا من القليل أقلا

يكاد لا يتجزا أقل فى اللفظ من لا

وقد تستعمل مهموزة أو غير مهموزة فى العناق كقول أبي جعفر الإلبيرى :

لقوامة الألف التى جاءت بحسن ما أَلِف (٢)

عانقته فكأننى لام معانقة ألف

وقول بعضهم — يخاطب المحبوب — :

إذا اجتمعت لامى مع الألف التى حكتك قواما ما يصير فقال لا

وقول نور الدين أبي الحسن المايرقى :

وذى هيف راق العيون انثناؤه بقد كريّان من البان مورق

كتبت إليه هل تجود بزورة فوقّع « لا » خوف الرقيب المصدق

فأيقنت من « لا » بالعناق تفاؤلا كما اعتنقت « لا » ثم لم تتفرق

ويقول المَقّرى (٣) : وهذا أحسن من قول ذى القرنين بن حمدان :

إنى لأحسد « لا » فى أحرف الصحف إذا رأيت اعتناق اللام والألف

---

(١) تزيين الأسواق — ١١٧ — ديوان الصبابة — ١٧٣ .

(٢) ما ألف : ما عهد من قبل .

(٣) نفح الطيب — ٢ — ٢٩ .

وما أظهمـــا طال اعتناقهمـــا   إلا لمـا لقيا من لوعة الأسف

وفى رواية :

إلا لمـا لقيا من شدة الشغف [١]

وهو عندى أفضل ، لأنه ليس من الضرورى أن يعتنق الأسيفان ، ولكن فرط الشغف يحمل على ذلك دائمًا .

وهو كذلك أحسن من قول القيسرانى :

أستشعر اليأس منهـــا ثم تطمعنى   إشارة فى اعتناق اللام والألف

ومن قول الحموى :

بالحب صيرت لاماً قامتى أترى   يوما تعانق من أعطافك الألفا

لأن التكلف فيهما ظاهر .

وأشهر ما قيل فى هذا المعنى قول أبى بكر بن خارجة :

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى   كما تعانق لام الكاتب الألفا

وقد قالوا : إنه من المقلوب ، لأن الألف هى التى تعانق اللام .

ويجوز أن يحتج له بأن يقال : الألف لا تعانق اللام إلا واللام معانقة لها[٢] .

١١ — الشكلتان .

وتأتيان فى وصف نحول العاشقين مع المعانقة كقول أبى الحسين التونسى :

ثم اعتنقنا فترا!! معـــا   فى ظلمة الليـل ونور العتاب

جسمين صارا فى الهوى واحداً   كشكلتين اختلطا فى كتاب

---

(١) ثمرات الأوراق — — ٢٧٤ .

(٢) ديوان المعانى — ١ — ٣٤٣ .

وقول آخر :

سقيا لعيش مضى والدهر يجمعنا　　ونحن نحكى عناقا شكل تنوين

وقول المتنبي :

كم وقفة سجَرتك شوقاً بعد ما　　غرِىَ الرقيب بنا ولجَّ العاذل[1]

دون التعانق ناحلين كشكلَىْ　　نَصْبٍ أدقَّهما وضمَّ الشاكل[2]

يقول : مع الشوق العارم الذى نحن فيه لم نقدر على المعانقة خشية الرقيب والعاذل ، ولكنا وقفنا فقط متقاربين ، فكنا من شدة نحولنا فى هذه الحال كأننا شكلتا نصب فى دقتهما وتقاربهما .

وهو من مبالغات المتنبي المذمومة .

والفرق بين قول المتنبي وقول من قال :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

أن الثانى قد أدّى إليك شكلا مخصوصاً ، لا يتصور فى كل واحد من المذكورين ، على الانفراد بوجه وصورة لا تكون مع التفريق .

وأما المتنبي فأراك الشيئين فى مكان واحد وشدد فى الفرق بينهما ، وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة فى فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا ، والأول لم يعن بحديث الدقة والنحول ، وإنما عنى بأمر الهيئة التى تحصل فى العناق خاصة : من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه ، والتفاف الحبيب بمحبه كما قال الآخر :

لف الصَّبا بقضيب قضيبا

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة ، لأن خطىْ اللام والألف فى

---

(١) سجرتك : ملأتك أو ألهبتك ، ويروى : شجرتك : بمعنى حبستك عن الكلام ، ويروى سحرتك .

(٢) الشاكل : الذى يرسم شكل الكتاب ، وهو فاعل أدق أو ضم على التنازع .

« لا » ترى رأسيهما فى جهتين ، وتراهما قد تماسًّا من الوسط ، وهذه هى حال المعتنقين على الأمر المعروف ، فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقة وإنما هو تضام وتلاصق ، وهو بنحو قوله :

ضممته ضمة عدنا بها أحدا   فلو رأتنا عيون ماخشيناها

وذهب القاضى الجرجانى فى بيت المتنبي : إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

ثم يقول : ولئن كان أخفاه كما يقولون فليس عليه من عتب ، لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه .

ويقول عبد القاهر : ولئن كان المتنبى قد زاد على الأول ، فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى وهى الإعراق فى الوصف بالنحول ، وجمع ذلك للخِلَّين معا ، ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك[1] .

١٢ — بقيت حروف أخرى يقع بها تشبيه الأعضاء على قلة ، وهى :

(١) عطفة الراء ، ويشبه بها الشارب .

(٢) السين ، وتشبه بها الثنايا ، والطرة .

(٣) الشين ، وتشبه بها الطرة المضفورة .

(٤) الصاد ، وتشبه بها العين ، والفم .

(٥) العين ، وتشبه بها العين ، والصدغ .

(٦) الميم ، ويشبه بها الفم .

(٧) النقطة ، ويشبه بها الخال .

وما تقدم من هذه التشبيهات تظهر فى بعضه المناسبة واضحة معقولة :

---

(١) أسرار البلاغة — ١٦٣ — ١٦٤ .

كتشبيه الحاجب بالنون : والعين بالعين : والفم بالميم : والقد بالألف : والصدغ بالواو : والخال بالنقطة : والثنايا بالسين .

وبعضها لا نكاد نتبين وجه الشبه فيه : كتشبيه العين بالصاد : والطرة المضفورة بالشين مثلا .

وفيما يلي أمثلة عامة تنتظم هذه التشبيهات الأخيرة وما سبقها : وبعضها يحتوى على ضربين أو أكثر .

قال ابن عبد ربه :

وأزهر كالعيُّوق من كف زهراء لنا منهما داء وبرء من الداء(١)

ألا بأبي صدغ حكى العين عَطفه وشارب مسك قد حكى عَطفة الراء

فما السحر ما يُعزى إلى أرض بابل ولكن فتور العين من طرف حوراء

وكف أدارت مُذهَب اللون أصفرا بمذهبة فى راحة الكف صفراء

وقال أبو جعفر الإلبيرى على لسان محبوب يعتذر عن ترك السلام :

لا تعتبنَّ على ترك السلام فقد جاءتك أحرفه خطا بلا قلم

فالسين من طرَّتى واللام مع ألف من عارضىَّ وتلك الميم ميم فمى

وقال بدر الدين بن لؤلؤ :

لك مبسِم عذب اللمى يفترُّ عن برَد وسَلسالُ الرضاب مرادى

وفم يحاكى الميم إلا أنه كم حوله عين تحوم كصاد

وقال ابن مطروح :

قالت لنا ألف العذار بخده فى ميم مبسمه شفاء الصادى

وقال آخر :

يا سين طرتها وصاد عيونها إنى أعوِّذها بسورة طه

---

(١) الأزهر : يريد به الكأس ، والعيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة .

وقال ابن نُباتة من أرجوزة :

لأحرف الحسن على خديه خطْ ... وقال قوم إنها اللام فقطْ
وإن رأيت قده العالى فصِف ... وقفْ على المنصوب منه والألف
والعارض النونىّ ما أنصفتَه ... وإن تكن باللام قد عرفتَه
واهاً له من حرف نون قد عُرِف ... كشَــل ما تكتبه لا يختلف
يأتى بنَقط الخال فى الإعجام ... وتارة يأتى بمعــنى اللام

وقال ابن نقادة :

صنم الجمال فصادُه من عينها ... والنون حاجبها بخال يُنقَط
والميم فوها فالحروف تألَّفت ... مكتوبة والصبر عنها يُكشَط

وقال ذو الوزارتين ابن الحكيم الرُّندى فى غرض كلَّفه سلطانه القول فيه[1] :

ألا واصل مواصلة العذار ... ودع عنك التخلُّق بالوقار
قضيب مائس من فوق دِعص ... تعمَّم بالدجى فوق النهار
ولاح بخـــده ألف ولام ... فصار معرَّفاً بين الدرارى[2]
رمانى قاسم والسين صاد ... بأشفار تنوب عن الشِّفار[3]
وقد قُسمت محاسن وجنتيه ... على ضدين من ماء ونار
فذاك الماء من دمعى عليه ... وتلك النار من فرط استعارى
ألِفت الحب حتى صار طبعاً ... فما أحتاج فيه إلى ادّكار

---

(١) نفح الطيب — ٣ ص ٥ — ٩ .

(٢) يعنى بالألف واللام : العذار .

(٣) الأشفار : الأهداب جمع شفر بالضم والفتح .

فـالى عن مذاهبـــه ذَهاب   وفى هذاك أشعارى شِعارى

وقال شمس الدين الضرير الأندلسى :

قد حقّق الحسن نون حاجبه   وخطٌّ فى الصدغ واوريحان

ومدٌّ من حسن قده ألفا   أوقف عينى وقوف حيْران

وقال أيضاً :

ألف ابن مقلة فى الكتاب كقده   والنون مثل الصدغ فى التحسين

والعين مثل العين لكن هذه   شُكِلت بحسن وقاحة ومجون

وعلى الجبين لشَعره سين بدت   حار ابن مقلة عند تلك السين

قل للذى قد خط تحت الصدغ من   خِيلانه نُقَطا لجلب فتون[1]

يا للرجال ويالها من فتنة   فى وضع ذاك النَّقط تحت النون

وقد أخذ عليه قوله :

شكلت بحسن وقاحة ومجون

فإن الوقاحة لا يصح وصفها بالحسن مهما بلغ صاحبها من الجمال ، ولو قال : خلاعة ومجون لخف نصيبه من الملام .

وقال بعضهم :

كأن عذاره فى الخد لام   ومبسمه الشهى العذب صاد

وطرة شعره ليـــل بهيم   فلا عجب إذا سُرِق الرقاد

وقد ولّد الشاعر من تشبيه العذار باللام ، وتشبيه الفم بالصاد : لفظة « لص » ، وولد من معناهما ، ومن معنى تشبيه الطرة بالليل : ذكر سرقة النوم ؛ وهذا أغرب توليد سمع[2] .

---

(١) الخيلان بالكسر : جمع خال .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ٧٧ .

وقول بعض الوعاظ — وقد رواه لسان الدين بن الخطيب[1] — وهو من البدائع :

عانقت لامَ صدغها صادُ لثمى ... فارتها المرآة فى الخد لصا[2]

فاسترابت لِما رأت ثم قالت ... أكتاباً أرى ولم أر شخصا[3]

قلت بالكشط يُمحى قالت اكشط ... بالثنايا وتابع الكشط مصّا

ثم لما ذهبت أكشط قالت ... كان لصا فصار والله فصّا

قلت إن الفصوص تُطبَع باللثم ... على خد كل من كان رخصا[4]

وقول شهاب الدين الخيمى :

إن صدغ الحبيب والفم والعا ... رض منه ، واو ، وصاد ، ولام[5]

هى وصل بين المحاسن لما ... تم حسنا وبالعذار التمام

غير أنى أراه وصل وداع ... فيه يُقضى افتراقنا والسلام

وقول ابن حجلة المغربى :

حبيب تغالى قدُّه حين سُمته ... وقال قوامى رمحه ما يُقوَّم

وخطُّ عذارى اعجم الخالُ لامَه ... ولم أدر أن اللام فى الخط يُعجَم

وقول ابن سناء الملك :

له فم يمنعه ضيقه ... أن يُخرج اللفظ بتقويم

ولفظه سكران من ريقه ... فهو لهذا غير مفهوم

ما فمه ميم ولكنه ... علامة الجزم على الميم

---

(١) نفح الطيب — ٣ — ٣٦٤ .

(٢) يريد باللام شعر الصدغ ، وبصادالاثم : الفم .

(٣) الكتاب : الكتابة .

(٤) الرخص : الطرى الغض .

(٥) الواو للصدغ ، والصاد للفم ، والعارض — وهو العذار — للام .

ومن أجمع ما قيل فى ذلك قصيدة طويلة لعلاء الدين الشاهينى :

كتب الجمال على صحيفة خده ... بيراع معناه البهيج ومثلا

فبدا بنونى حاجبيه معرفا ... من فوق صادى مقلتيه وأقفلا

ثم استمد فمد أسفل صدغه ... ألفاً ألِفت بها العذاب الأطولا

فأعجب له إذ همَّ ينقُط نقطة ... من فوق حاجبه فجاءت أسفلا

فتحققت فى حاء حمرة خده ... خالا فعم هواه قلبي المبتَلى

قسما بفاء فتور جيم جفونه ... لأخالفنَّ على هواه العذَّلا

وقد عد داود الأنطاكى هذه القصيدة من أبدع ما رأى[1] .

والحق أنها متكلفة غارقة فى التصنيع ، وقد تراكمت فيها الحلى والبهارج ، كما كثر توالى الإضافات فى قوله : « حاء حمرة خده » و « فتور جيم جفونه » فزادتها ثقلا .

وإن كان فيها شىء طريف ، فهو محاولة الشاعر أن يرسم صورة تسودها الوحدة والانسجام لوجه جميل قسيم وسيم ، تأنقت الطبيعة فى إبداعه فجاء تحفة من التحف !

وحسن منه أن يذكر : أن الجمال أراد أن ينقط نون الحاجب ، لأن من حق النون أن تكون لها نقطة ، ولكن النقطة وقعت على الخد فاستحالت خالا !

فهذا تعليل دقيق جميل لوجود الخال على الخد ، وإن شئت فقل مغالطة رائعة ؟

ولا شك أن هذه التشبيهات تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، بمقدار حظ قائليها من القدرة على النظم ، ومبلغ نصيبهم من مواتاة الطبع وتوهج الخيال ، ولكن قيمتها فى دلالاتها على مبلغ ثقافة الشعراء العلمية وفطنتهم إلى

---

(١) تزيين الأسواق — ١٨٨ .

خصائص الحروف فى استعمالها ، واستخدام صورها فى البيان ، وتطويع الشعر لذلك .

وقد وقع هذا النوع من التشبيه أيضاً فى الرسائل الإخوانية كثيراً ، ولا يقل طرافة عن سابقه .

فمن النثر : ما جاء فى تضاعيف رسالة بعث بها القاضى الفاضل إلى موفق الدين خالد القيروانى — وقد وقف له على رسالة كتبها بالذهب — ... فمن ألفاتها ألفت الهمزات غصونها حمائم ، ومن لامات بعدها يحسدها المحب على عناق قدودها النواعم ، ومن صادات نقعت غلة القلوب الصوادى ، والعيون الحوائم ، ومن واوات ذكرت ما فى واوات الأصداغ من العطفات ، ومن ميمات دنت الأفواه من ثغرها لتناول جنى الرشفات ، ومن سينات كأنها الثنايا فى تلك الثغور ، ومن دالات دلت على الطاعة لكاتبها بإحناء الظهور ، ومن جيمات كالمناسر[1] تصيد القلوب التى تخفق لروعات الاستحسان كالطيور ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، و « خالد » فيها خالد ، وتحيته المحامد ، ويده تضرب فى ذهب ذائب ، والناس تضرب فى حديد بارد[2] .

وقد جمعت هذه الرسالة خصائص القاضى الفاضل فى كتابته ، وكتابة عصره ، كما جمعت معظم التشبيهات المأثورة فى الحروف ، وتشبيه الهمزات بالحمائم تشبيه جيد صائب ، فالمشابهة بينهما على طرافتها وغرابتها ودقة التفطن إليها ، يشهد البصر بتمام المطابقة فيها ، فهو من التشبيه المنظور القريب البعيد .

ومما جاء من الشعر فى وصف كتاب قول المقّرى :

رأينا به روضاً تدبّج وشيه ... إذا جاد من تلك الأيادى غمائم

---

(١) المناسر : المناقير جمع منسر بالفتح والكسر .

(٢) ديوان الصبابة — ٤٢ — ٤٣ .

به ألفات كالغصون وقد علا   عليها من الهمز المطل حمائم

وقوله أيضاً فى وصف كتاب — وقد وقع فيه النظم خلال كلام نثرى — :

ولم تر عيناى من قبله   كتابا حوى بعض ماقد حوى

كأن المباسم ميماته   ولاماته الصدغ لما التوى

وأعينه كعيون الحسان   تغازلنا عند ذكرى الهوى

كتاب ذكرت بألفاظه   عهوداً زكت بالحمى واللوى

ويلاحظ أن التشبيهات قد وقعت مقلوبة بخلاف ما مر منها ، كما يلاحظ أن الشعر بعيد عن التكلف ، رقيق النسج ، سلس الحاشية .

وقول ابن حجلة المغربى فى تقريظ قصيدة مدح بها السلطان « الناصر حسن » :

فكم ألف بها أمسى   رشيق القامة النضره

وكم شين بحاشية الكتاب م تخالها طره

وعين أصبحت فى العين م مثل العين والنقره

وقوله أيضاً — يقرظ كتاباً ورد عليه من بعض أصحابه فى مفتتح رسالة — :

ووافانى كتاب منك عال   حكت ألفاظه السمر الطوالا

وكم شاهدت من خط ولكن   مثالك ما رأيت له مثالا

لئن أمست به ألفات قطع   فكم وصل به ضمن الوصالا

وكم ألف به للوصل لاحت   كغصن البان لينا واعتدالا

تعانق لامها طورا يمينا   وآونة تعانقها شمالا [1]

---

(١) الضمير فى تعانق للألف .

ظننت اللام فيـه عذار خد   وخلت النقط فوق الخد خالا
وأمسى طالع الطاءات فيه   يعلم لينـه الغصن الكمالا

والشاهد فى البيت السادس حيث شبه اللام بالعذار ، والنقط بالخال .

وقول أبى الصلت الأندلسى :

ورد الكتاب فكان عند وروده   عيـداً ولكن هيّج الأشواقا
نوناته قد عانقت صاداته   كعناق مشتـاق يخاف فراقا
فكأنما النونات فيه أهلّة   وكأنما صاداته أحداقا

والشاهد فى البيت الأخير :

ومن الإخوانيات الطريفة : أن جمال الدين بن مطروح كتب إلى بهاء الدين زهير ، يطلب منه دَرْج ، فرخ ، ورق وكانت قد ضاقت به الحال :

أفلست يا سيدى من الورق   فجد بدَرْج كعرضك اليَقَق[2]
وإن أتى بالمداد مقترنا   فرحبا بالخـدود والحدَق

فكتب إليه البهاء :

مولاى سيَّرت ما رسمت به   وهو يسير المداد والورق
وعزَّ عندى تسيير ذاك وقد   شبهته بالخدود والحدق

وقد ذكر ابن خلكان : أنهما كانا بالمشرق .[3]

وهذا النمط من التشبيهات يكاد يكون معدوما فى شعر المصريين .

وقد وقع منه التشبيه بالحروف فى شعر شوقى كقوله فى الهمزية النبوية :

---

(١) ديوان البهاء زهير — ١٤١ .
(٢) اليقق بفتحتين : الشديد البياض .
(٣) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٤٣ .

نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة ... فى اللوح واسم محمد طُغراء
اسم الجلالة فى بديع حروفه ... ألف هناك واسم طه الباء

وقوله :

فى كل مِنطقة حواشى نورها ... نون وأنت النقطة الزهراء

وقوله من أندلسية :

مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فَتَرْسى
وسَوار كأنها فى استواء ... ألفات الوزير فى عرض طرس(١)

وشبه البارودى بالحروف إجمالا فى قوله :

غادِ الندى بالجزة الفيحاء ... واخذ الصبوح بنغمة الورقاء
والمح بطرفك ما وحته يد الصَّبا ... فوق الغدير تجد حروف هجاء(٢)
من كل حرف فيه معنى صبوة ... تتلو به الورقاء لحن غناء

ومن قول المؤلف (٣) فى وصف رسالة لصديق جاء فيها تشبيه أدوات الكتابة ببعض سمات الحسن :

أتحفَ الخلُّ خِله بكتاب ... نهِل القلبُ من لماه وعلَّ
قد حكى طِرسه محيا وضيئا ... وحكى خطه عذارا تدلى
وحكى نقسه سواد عيون ... لسواد القلوب سدَّدن نبلا(٤)

---

(١) السوارى : العمد : والوزير : ابن مقلة .
(٢) الوحى : الكتابة .
(٣) ألحان الأصيل — ٥٠ .
(٤) النقس بالكسر : الحبر .

الفصل الحادي عشر

التشبيهات العقم

الأصل فى العقم بضم فسكون : عدم قبول الحمل .

تقول : امرأة عقيم ، ورجل عقيم : لايولد لهما .

ومن المستعار : ريح عقيم : غير لاقح ، والدنيا عقيم : لاترد على صاحبها خيراً ، والملك عقيم : لاينفع فيه نسب ، لانه يقتل فى طلبه الأب والولد والأخ والعم ، وعقل عقيم : لاينفع صاحبه ؛ وفى الحديث المرفوع العقل : عقلان ، فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم ، وأما عقل صاحب الآخرة فثمر [1] » .

ومن التشبيهات الممتازة نوع يسمى : التشبيهات العقم جمع عقيم .

وقد وصفها ابن رشيق بأنها : التى لم يسبق إليها ، ولاتعدى أحد بعدهم عليها [2] .

وقد جعلوا اشتقاقها من الريح العقيم خاصة ، وهى التى لا تـُلقح شجرة ولاتنتج ثمرة [3] .

وكان الأولى أن يكون اشتقاقهـــا من الرحم العقيم ؛ لأنها الحقيقة والأصل ، وعقم الريح مستعار منها .

ومهما يكن فالمناسبة واضحة ، فهذه التشبيهات لاتعقب ولداً ولا تؤتى

---

(١) الأساس والقاموس مادة عقم .

(٢) العمدة — ١ — ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق — ١ — ٢٠٢ — خزانة الأدب للبغدادى — ١ — ١٢٤

ثمرة ؛ لعدم استطاعة محاكاتها ، فكأنها بتراء لا خلف لها ولا عقب ، فلما كانت كذلك ، وصفت بالعقم على التشبيه بالريح العقيم كما شاءوا ، أو الرحم العقيم أو المرأة العقيم ، أو الرجل العقيم إذا شئت .

ولا غرو فى هذه التسمية ، فكثير من التشبيهات يصح وصفه بأنه : ولود ؛ كتشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والجميل بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد ، والسخى بالغيث والبحر والريح ، والعزيمة بالسيف والسيل ؛ ونحو ذلك ، لأن الناس كلهم الفصيح والأعجم والعالم والجاهل فيه سواء ؛ لأنا نجده فى مغارس الطباع ، ومنابت الأفكار ، فهو مولود من عدة بطون ؛ وموصول النسب بكثير من الأرحام .

بل وجد أن بعض الكلمات كالأسد واليد ، تكثر فيهما الاستعارة فى جميع اللغات [١] .

وهناك ضرب آخر كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخرا عن أول ؛ نحو قولهم فى صفة الخد كالورد ، وفى القد كالغصن ، وفى العين كعين المهاة من الوحش ، وفى العنـــق كعنق الظبى وكإبريق الفضة أو الذهب .

فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعا ثم تساوى الناس فيـه ، إلا أن يولـّد أحـد منهم فيه زيادة ، أو يخص بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم .

ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح ، والذكاء بشواظ النار [٢] .

فأمثال هذه التشبيهات لا توصف بالعقم ، لأنه يمكن الإتيان بأمثالها والحذو على منوالها .

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٩٩ .

(٢) العمدة — ١ — ٧٩ — ٨٠ .

ومن أوائل التشبيهات العقم قول امرئ القيس :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سِرحان وتقريب تتفُل

شبه خاصرتي فرسه : بخاصرتي الظبي في الضمور ، وساقيه بساق النعامة في الانتصاب والطول ، وعَدْوه بإرخاء الذئب – وهو نوع من العدو يشبه خبب الدواب – وتقريبه – وهو وضع الرجلين موضع اليدين في العدو – بتقريب التتفل ، وهو ولد الثعلب .

فجمع أربع تشبيهات في بيت واحد .

وفيه يقول خلف الأحمر (١) : لم أر أجمع من بيت امرئ القيس :

له أيطلا ظبي . . . .

* * *

وقوله أيضاً :

له قُصْريا عير وساقا نعامة   كفحل الهجان القيصري العضوض (٢)

ويقول فيه ابن قتيبة (٣) : وقد تبعه الناس في هذا الوصف وأخذوه ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد ، وكان أشدهم إخفاء لسرقة الشاعر ابن المعذَّل في قوله :

له قصريا رئم وساقا حمامة   وسالفتا هيْق من الرُّبد أربد (٤)

ومما جاء على نهج امرئ القيس ما نسب إلى يزيد بن معاوية :

لها حكم لقمان وصورة يوسف   ونغمة داود وعفة مريم

ولي سقم أيوب وغربة يونس   وأحزان يعقوب ووحشة آدم

---

(١) البيان والتبيين — ٣ — ٢٥٣ .

(٢) القصريان : ضلعان تليان الترقوتين ، والهجان من الإبل : الأبيض الكريم .

(٣) الشعر والشعراء — ٥ .

(٤) الهيق : الظليم ، والربد : العير .

وقول أبي الحسن الموسمي في مدح الطائع العباسي .

وإذا أمير المؤمنين أضاف لى ... أملى نزلت على الجواد المفضل

رأى الرشيد وهيبة المنصور فى ... حسن الأمين ونعمة المتوكل

وقول الثعالبي :

لقاؤك يحكى قضاء الحوائج ... ووجهك للغم والهم فارج

وفيك لنا فتن أربع ... تسلُّ علينا سيوف الخوارج

لحاظ الظباء ومشى القباج ... وطوق الحمام وحسن الدوارج[1]

وقول العدار في الضب — وكان يراه دائما على مائدة أيوب بن جعفر — وكان لا يغب أكل الضِّباب :

له كـف إنسان وخلق عَظاية ... وكالقرد والخنزير فى المسخ والغضب[2]

يشير فى الشطر الثانى إلى قوله — تعالى — : « قل هل أنبِّئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » .[3]

وقول ابن حمديس الصقلى فى وصف الزرافة :

لها فخذا قَرْم وأظلاف قرهَب ... وناظرتا رئم وهامة أيِّل[4]

وقول شاعر فى هجاء محمد بن أحمد بن الحسين بن حرب — وكان موكَّلا ببيع الغلات ببغداد بأمر المعتمد — :

ألا تعسا ونكسا لابن حرب ... وضربا بالمقارع أى ضرب[5]

---

(١) القباج : الحجل ، والدوارج : ضرب من الطيور ، جميل المنظر ، ملون الريش .

(٢) العظاية بالفتح : دويبة تشبه سام أبرص .

(٣) هامش الحيوان — ٦ — ٧٨ للأستاذ عبد السلام هارون .

(٤) القرم : الفحل يترك « للطروقة » والقرهب . الثور المسن أو الكبير الضخم ، والأيل بضم الهمزة وكسرها وفتح الياء المشددة . التيس الجبلى .

(٥) نكسا بالضم ويفتح ازدواجا .

لقد مُلِئتْ به بغداد جورا وأفرغ بغضه في كل قلب
تبارك من حباه بوجه قرد ونكهة ضيغم وطباع كلب (١)
وعيني فأرة ولسان ثور وخلقة قنفذ وجبين دب

ومن التشبيهات العقم قول النابغة :

تراهن خلف القوم خُزْرًا عيونها جلوسَ الشيوخ في ثياب المرانب

يصف النسور بضيق العيون وصغرها ، ويشبهها وهي جاثمة بشيوخ جلوس ، في ثياب خلط غزلها بوبر الأرانب .

ولم يسلم لهم بن رشيق بأن هذا التشبيه عقيم ، وعده من قول طرفة يصف عقابا :

وعجزاء دَفَّت بالجناح كأنها مع الصبح شيخ في بجاد مقنع (٢)

وهو ينظر أيضا إلى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا في عرانين وَبله كبير أناس في بجاد مزمل

• • •

ومنها قول النابغة المشهور :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وفيه يقول الأصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كان زهير يمدح السوقة ، ولو ضرب أسفل قدميه مائة مرة على أن يقول مثل قول النابغة :

فإنك كالليل . . .

ماقاله ، ومالا يقوله مثل زهير فإن غيره أبعد منه (٣) .

---

(١) النكهة : ريح الفم . والأسد يوصف بالبخر كالصقر .
(٢) تدف : تدنو من الأرض حين تنتفض .
(٣) ديوان المعاني — ١ — ١٧ — ١٨ .

ويقول ابن قتيبة : وهو مما سبق إليه ولم ينازعه [١] .

* * *

ومنها قول زهير — شبه فيه المرأة بثلاثة أوصاف فى بيت واحد — :

تنازعت المها شَبَها ودُرُّ البحور وشاكهت فيها الظباء [٢]

فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعُها الخلاء [٣]

وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

وقد أعجب النقاد بتقسيم زهير هذا حتى قال بعض الرواة [٣] : لو أن زهيراً نظر فى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى مازاد على ماقال [٥] .

وقد قلده الشعراء فى هذا التقسيم فقال البحترى :

وفى القهوة أشكال من الساق وألوان

حَباب مثلما يضحك عنه وهو جذلان

وسكر مثلما أسكر طرف منه وسنان

وطعم الريق إذ جا دبه والصب هيمان

لنا من كفه راح ومن ريّاه ريحان

وقول ديك الجن :

وغرير يَقضى بحكمين فى الرا ح بجور ، وفى الهوى بمُحال

للنقا ردفه وللخوط ما حُمـِّل م لينا وجيده للغزال [٦]

---

(١) الشعر والشعراء — ٨٠ .

(٢) شاكه : شابه وشاكله .

(٣) الأدماء : الظبية المشربة بياضا .

(٤) الشعر والشعراء — ٥٠ .

(٥) يشير إلى رسالة عمر فى القضاء وهى من مفاخر التشريع الإسلامى الخالد .

(٦) النقا : القطعة من الرمل المنقادة المحدودبة .

فعلت مقلتاه بالصب ما تفعل م جدوى الأمير بالأموال

وقول سيف الدين المشد :

وغادة أعشق من أجلهـا بدر الدجى والظبي والخيزران

لأن ذا يشبهها بهجة وذاك ألحاظا وهـذا بنـان

وقول كشاجم :

البدر لا يغنيك عنها إذا غابت وتغنيك عن البـدر

فى فيها مسك ومشمولة صِرْف ومنظوم من الدر

فالمسك للنكهة والخمر الريقة م واللؤلؤ للثغـر

وفى قول كشاجم يقـول العسكرى : قد جمع تقسيما صحيحا ، ولم يترك مزيدا (١) .

• • •

ومنها قول عنترة فى وصف ذباب الروض :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم

هَزِجا يحُـك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

الأجذم : المقطوع اليدين ، والمكب : المقبل على شىء .

وترتيب الكلام قدح المكب الأجذم على الزناد .

شبه الذباب — إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى — برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين .

ومتى سقط الذباب يفعل ذلك ؛ لأنه أبداً يحك إحدى يديه بالأخرى كأنه يقدح بعود من مَرْخ (٢) أو عَفار أو عُرجون ، أو غير ذلك مما يقدح به .

---

(١) ديوان المعانى — ١ — ٢٤٠ .

(٢) المرخ والعفار بفتح الميم والعين : شجر شديد الاحتراق .

وقد نوه النقاد بهذا التشبيه ، وبالغوا فى الإشادة به إلى درجة الإسراف فقال الجاحظ : قالوا : لم يدع الأول للآخر معنى شريفا ولا لفظا بهيا إلا أخذه غير عنترة . (١)

ويقول : ولا يعلم فى الأرض شاعر تقدم فى تشبيه مصيب تام ؛ أو فى معنى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ؛ أو فى بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء بعده أو معه — إن هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره — فإنه لابدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، ويقول إنه خطر على بالى من غير سماع ، كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنترة فى صفة الذباب ؛ فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر .

ثم يقول : ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة (٢) .

ويقول فى موضع آخر : لو أن امرأ القيس عرض فى هذا المعنى لعنترة لافتضح (٣) .

ويقول ابن عمر البغدادى : وهذا من عجائب التشبيه ، يقال : إنه لم يقل أحد فى معناه مثله (٤) .

ويقول العباسى : ولا يعرف للمتقدمين معنى شريف إلا نازعهم إياه

---

(١) البيان والتبيين — ٣ — ١٩٥ .
(٢) الحيوان — ٣ — ٩٦ « الساسى » .
(٣) المصدر السابق — ٣ — ٣٩ .
(٤) خزانة الأدب البغدادى — ١ — ١٢٥ .

المتأخرون ، وطلبوا الشركة فيه إلا قول عنترة . . . . . وما زال الشعراء وجهابذة النقد يرون : أن قول عنترة أوحد ، ويتيم فذ ، وأنه من المعانى العقم التى لا توجد[١] .

ومع هذا فينبغى ألا نتابعهم على هذا الغلو ، ونتلقى أقوالهم بالحذر ،فقد ظهر أن البيت معيب وأنه مبنى على أساس منهار ، والفضل فى ذلك للتحقيق العلمى ؛ فقد ذكر المغفور له أحمد تيمور باشا نقلا عن مجلة البيان لليازجى: أن صوت البعوض والذباب والنحل وأشباهها ، يحدث من اهتزاز أجنحتها فى الهواء ، على حد ما يكون من أجنحة الحمام .

وعلى هذا فى قول عنترة تناقض ظاهر ؛ لأنه لا يمكن أن يحك الذباب إحدى ذراعيه بالأخرى إلا وهو واقع ، ومتى كان واقعاً تكون أجنحته ساكنة فلا يمكن أن يصوِّت ، ولكن عنترة توهم أن صوته من حنجرته فلم يمتنع عنده الجمع بين هاتين الحالتين .

انتهى بمعناه وأكثر لفظه .[٢]

وعنترة معذور فى ذلك ، فإن هذه من المسائل العلمية الدقيقة ، التى لا تدخل تحت ملاحظته ، ويكفى أنه مضت القرون على ذلك ، ولم يتنبه إلى هذا الخطأ إلا فى العصر الحديث .

وللغزالى رأى فى الذباب وعمل ذراعيه لا يخلو من طرافة ، ولا ندرى مبلغ صحته ؛ يقول : خلق الله العين طبقات لطيفة ، وجعل الأجفان غطاء ملاصقا لها بأهداب طويلة ؛ فانفتاح الأجفان وانطباقها ، تتمسح به الحدقة من دقيق الهباء الذى يخالط الهواء ، ويخرج بشعاع البصر من بين الأهداب وهو كالشبكة عليها بحكمة باهرة ، ولما كان الذباب لا أجفان له تراه يمسح

---

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) أوهام شعراء العرب — ٣٧ .

بيديه عينيه ثم يحكهما ؛ ليزيل ماتلبد بهما مما فضل مع الهواء ، وهذه حكمة بالغة[1] .

وقد اندفع الشعراء وراء عنترة ؛ يقلدونه فى بيته تقليداً أعمى ، تأثراً بما ذاع له من حسن الصيت ونباهة الشأن .

فشبه بعضهم من يفرك يديه ندامة بفعل الذباب ، وزاده اللطم ؛ فقال :

فعلُ الأديب إذا خلال بهمومه ... فعل الذباب ، يرِن عند فراغه

فتراه يفركُ راحتيه ندامة ... منـــه ويتبعها بلطم دِماغه

وقول السُّلامى فى وصف زِنبار :

إذا حكَّ أعلى رأسه فكأنما ... بسالفتيه من يديه جوامع[2]

وتعرض حازم فى مقصورته لتشبيه عنترة فقال :

ألقى ذراعا فوق أخرى وحكى ... تكلُّف الأجذم فى قطع السنا

كأنما النور الذى يفرَعـــه ... مقتدحا لو َنده سقط ورَى[3]

فقصر عنه التقصير البين ، وأخل بذكر الإكباب والحك — ولهما فى تشبيه عنترة موقع بديع — هذا إلى التكلف البادى على قوله :

تكلف الأجذم فى قطع السنا

ثم رام أن يزيد فيه فقال .

كأنما النور . . . .

ويرى العلمى — وما رآه هو الحق — : أن المعانى الشهيرة البارعة كتشبيه عنترة هذا ، لا ينبغى أن يتعرض لأخذها متعرض إلا بالزيادة البينة البديعة الموقع ، والعبارة الناصعة السهلة ، حتى يتبين الفضل للثانى على

---

(١) طراز المجالس — ٢٤٨ .

(٢) السالفة : ناحية مقدم العنق ، والجوامع : الأغلال .

(٣) يفرعة : يعلوه ، والسقط مثلث السين : ما يسقط من النار عند الاقتداح .

الأول ، والشفوف للآخذ على المأخوذ منه ، وإلا كان فاضحا لنفسه ، وماسخا للمعنى الذى تعرض لأخذه[1] .

وقد أحجم بعض الشعراء عن تقليد البيت الثانى الذى هو محل الشاهد لعسر أخذه . وقلدوا البيت الأول الذى يصف ترنم الذباب ، فقال ابن الرومى من قطعة رائعة :

إذا ارتفعت شمس الأصيل ونفّضت

على الأفق الغربى وَرْسا مُزعزَعا

وقد ضرَبت فى خضرة الروض صفرةٌ

من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشَعاً

وظلت عيون الروض تخضَلُّ بالندى

كما اغرورقت عين الشجىّ لتدمعا

فكانت أرانينُ الذباب هنالكم

على شدَوات الطير ضربا موَقّعا

وفى ذلك يقول الحصرى[2] : وقول عنترة فى وصف الذباب أوحد فرد ويتيم فذ ، وقد تعلق ابن الرومى بذيله وزاد معنى فى قوله :

إذا ارتفعت شمس الأصيل . . . .

وقال عبد المجيد بن عبدون :

ساروا ومسك الدياجى غير منهوب	وطُرّة الشرق غُفل غير تذهيب
على رُبا لم يزل شادى الذباب بها	يُلهى بآنق ملفوظ ومضروب

وقول سعيد البطليوسى :

---

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٣ .

(٢) زهر الآداب — ٣ — ١٦٠ .

كأن أهازيج الذباب أساقف ... لها من أزاهير الرياض محاريب

* * *

ومن التشبيهات العقم قول عنترة أيضاً فى صفة الغراب :

خرِق الجناح كأن لحيَيْ رأسه ... جلمان بالأخبار هشٌّ مولَع

شبه لحييه بالجلمين وهما آلة الجزّ .

* * *

وقول النمر بن تولب :

كعاب عليها لؤلؤ وزبرجد ... ونظم كأجواز الجراد المفصّل[1]

قال العسكرى : كأجواز الجراد غريب بديع ، لم يسبق إليه ولا أعرف واحداً أخذه[2] .

* * *

وقول الحطيئة فى الناقة :

ترى بين لحييها إذا ما ترغّمت ... لُغاما كبيت العنكبوت الممدَّد

ترغمت : غضبت ، واللغام : الزبد .

يشبه الزبد الذى يخرج من فمها بنسيج العنكبوت .

* * *

وقال الراعى — يصف جعودة الرأس — :

جدِلا أسكَّ كأن فروة رأسه ... بُذرت فأنبت جانباها فُلفلا[3]

* * *

---

(١) الأجواز : الأوساط .

(٢) ديوان المعانى — ١ — ٢٥٥ .

(٣) الجدل ككتف وعدل : الصلب ، والأسك : الصغير الأذنين .

وقول بشر بن أبي خازم — يصف عروق الأرطى[1] وقد كشفها ثور — :

يُثير ويُبدى عن عروق كأنها　　أعِنَّــة خراز تخط وتُنشَر

• • •

وقول الطرماح فى الظليم :

مجتاب شملة بُرْجُد ، لسَراته　　قدر وأسلم ما سواه البُرجد[2]

• • •

وقول مضرّس بن ربعى فى صفة رأس النعامة :

سكاء عاربة الأخادع رأسها　　مثل المِدَقّ وأنفها كالمِسرَد[3]

• • •

وقول ذى الرمة فى وصف الليل :

وليل كجلباب العروس قطعته　　بأربعة والشخص فى العين واحد

أحمُّ عِلافى وأبيض صارم　　وأعيس مَهرى وأروع ماجد

وأنشدهما الغرناطى[4] :

وليل كأثناء الرُّوَيزى جبته . . .

والرويزى : الطيلسان كما جاء فى القاموس نقلا عن الصاغانى .

وفى اللسان . أراد ثوبا أخضر من ثيابهم شبه سواد الليل به .

وفى الأساس : الرويزى : ضرب من الطيالسة ، تصغير رازى منسوب إلى ، الرى ، على غير قياس .

---

(١) الأرطى : نوع من الشجر .

(٢) السراة . الظهر ، والبرجد بالضم : كساء غليظ .

(٣) المدق بكسر الميم وفتح الدال وكمهعد : آلة الدق .

(٤) شرح مقصورة حازم — ١ — ٣٥ .

والأحم : الأسود ؛ يعنى به الرَّحل ، وعلافى : منسوب إلى علاف ككتاب : وهو رجل تنسب إليه الرحال ؛ لأنه أول من عملها : والأعيس : بعيره الأبيض ، والمهرى بفتح فسكون : منسوب إلى مَهْرة بن حَيدان حى من اليمن ، والأروع : الماجد يكنى به عن نفسه .

وجلباب العروس : أخضر اللون : والعرب تعبر عن السواد بالخضرة قال تعالى : « مُدْهامَّتان . . »

قيل فى تفسيرها : خضراوان من الرى سوداوان ؛ ويقال : إن العراق إنما سمى سوادا ، بلون السعف الذى فى النخل ومائه .

ويقول الجاحظ[1] : إنه لا يريد لون الجلباب ولكن يريد سبوغه .

وقد أخذه ابن المعتز ونقله إلى ما هو أظرف منه وهو قوله :

وليل كجلباب الشباب قطعته بفتيان صدق يملكون الأمانيا

* * *

وقول عدى بن الرِّقاع :

تُزْجى أغنَّ كأن إبرة رَوْقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وقد سبقت قصته مع جرير .

* * *

وقول مجنون ليلى[2] :

كأن القلب ليلة قيل يُغدَى بليـــلى العامرية أو يُراح

قطاة عزَّها شرَكٌ فباتت تعالجه وقد غلِق الجناح

عزها : غلبها ، وغلق بالكسر : من الغلق بالفتح وهو الحبس .

---

(١) الحيوان — ٣ — ٧٧ .

(٢) نسبها العسكرى لقيس لبنى فى ديوان المعانى — ١ — ٢٧٠ .

ويروى : تجاذبه بدل تعالجه .

والبيت تصوير رائع لقلب العاشق الواله فى حالة التنزّى والاضطراب !

وفيه يقول المبرد : وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار[1] .

* * *

وقول بشار :

كأنما النقع يوماً فوق أرؤسهم سقف كواكبه البيض المباتير

وهذا المعنى كما يقول الجاحظ[2] : غلب عليه بشار كما غلب عنترة على قوله :

وخلا الذباب « البيتين »

وقد أورد ابن قتيبة[3] البيت هكذا :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير

ونسبه إلى العتابى ، وقال : إنه أخذه من قول بشار المشهور :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

* * *

وقول ابن الرومى فى خباز رُقاق ـ وقد أنشدهما أبو عمرو النميرى[4] ـ :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشكَ اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

---

(١) الكامل « شرح المرصفى » — ٦ — ١٥٤ .

(٢) الحيوان — ٣ — ٣٩ « الساسى » .

(٣) الشعر والشعراء — ٤٧٩ .

(٤) المواهب الفتحية — ٢ — ٩٣ .

إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

* * *

وقوله فى أحدب[1] :

قصرت أخادعه وغاض قَذاله   فكأنه متربِّص أن يصفعا

وكأنه قد ذاق أول صفعةٍ   وأحس ثانية لها فتجمّعا

وابن الرومى فى وصف خباز الرقاق ، يجرى على عادته فى الاستقصاء والاستيعاب والشمول ؛ فهو يجلو علينا صورة كاملة النواحى ، تامة الأضواء والظلال ، متدرجة فى استيفاء أجزائها مع الترتيب والتنسيق ، فن قطعة عجين إلى تكويرها إلى تقويرها .

ثم زاد الصورة وضوحاً بما مثل لها فى البيت الأخير من تمثيل حسى ، فلو أن إنساناً رسم الخباز والرقاقة ، ما زادنا معرفة بهما أكثر من وصف ابن الرومى لها .

فهذا تشبيه عجيب يوشك أن يكون قطعة من الشاشة البيضاء ، لما فيه من الحياة النابضة النامية والحركات المختلفة .

وتشبيه الأحدب لا يقل عن سابقه طرافة ولا حيوية ولا دقة ، فهو يصور الأحدب تصويراً شاملاجامعا فى قصر عنقه ، وتطامن مؤخر رأسه ولم يكفه ذلك حتى التمس له علة من ترقب الصفع ، ومن يخش الصفع يصر إلى هذه الحال الزرية !

ثم وصف مرة أخرى شكل بدنه فى تقوسه وتقارب رأسه من رجليه والتمس لذلك علة طريفة أيضاً ، وهى ترقب الصفعة الثانية بعد أن ذاق حرارة الأولى !

وأحسب أن هذا وصف يربى على الرسم والتصوير والنحت فى وضوحه

---

(١) فى معاهد التنصيص — ١ — ١٧١ : أنهما لعبد الله بن النطاح .

وبيانه ؛ لأنه لا يقف عند رسم الأشكال ؛ بل يعلل وجودها على هذه الصفة .

° ° °

وقول سيف الدولة فى قوس قزح :

قال أبو الحسن الإفريقى : أنشدنى سيف الدولة لنفسه — وهو أحسن ما قيل فى وصفها — :

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سِنة الغُمض
يطوف بكاسات العُقار كأنجم ... فمن بين منقضّ علينا ومنفض
وقد نشرَت أيدى الجنــوب مطارفا ... على الجو دُكنا والحواشى على الأرض[1]
يطرّزها قوس السحاب بأحمر ... على أخضر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبّغة والبعض أقصر من بعض

وقد قفّى على آثاره كثير من الشعراء فأجادوا ، ولكنهم لم يلحقوا به .

قال العلوى الجمالى :

فشبّهت سرعة أيامهم ... بسرعة قوس يسمّى قزح
تلوّن معترضا فى السماء ... فما تمّ ذلك حتى نزح

وقال الوأواء الدمشقى :

أحسِنْ بيوم ترى قوس السماء به ... والشمس مُسفرة والبرق خلّاس
كأنها قوس رام والبروق لها ... رَشْق السهام وعين الشمس بُرجاس

وقال ظاهر الدين الحريرى من شعراء الخريدة :

---

(١) خص ريح الجنوب لأنها تجمع السحاب .

ألست ترى الجوى مُستعبِراً   يضاحكه برقه الخلَّب
وقد بات من قزح قوسه   بعيـــداً وتحسبه يقرُب
كطاقَيْ عقيق وفيروزج   وبينهما آخرٌ مذهَب

وقال سعيد بن حميد القيروانى :

أما ترى القوس فى الغمام وقد   نمَّق فيه الهواء نُوَّارا
حكى الطواويس وهى جاعلة   أذنابها للمياه أســـتارا
أخضر فى أحمر على يقَق   على وشاح السحاب قد دارا
كأنما المزن وهى راهبة   شدَّت على الأفق منه زُنَّارا

وقال عبد المحسن الصورى :

تأمل الجـــو ترى والبأ   قد ولى العهد على السُّحْب
سار وقوس الله تاج له   ركضاً من الشرق إلى الغرب

وقوس قزح يشبه بها ما يقل لبثه ولا يدوم مكثه ، وقد سميت بذلك لتلونها من القزحة بالضم وهى الطريقة من صفرة وحمرة وخضرة ، أو لارتفاعها من قزَح بمعنى ارتفع ، أو قزح اسم ملك موكل بالسحاب ، أو اسم ملك من ملوك العجم ، أضيفت قوس إلى أحدهما[1] ، أو هو قزع بالعين أى قوس السحاب .

ويلاحظ مما تقدم أن سيف الدولة سماها : قوس السحاب ، والعلوى سماها : قوس قزح ، والوأواء سماها : قوس السماء ، والقيروانى سماها : قوس الغمام ، والصورى سماها : قوس الله .

وفى الحديث : « لا تقولوا : قوس قزح ولكن قولوا : قوس الله ، فإن قزح من أسماء الشياطين[2] » .

---

(١) القاموس المحيط مادة قزح .
(٢) المواهب الفتحية — ٢ — ٣٧

وفى رواية : أن ذلك لابن عباس[1] .

ويجوز أن تكون سميت بهذا الاسم « قوس » وأضيفت إلى الله — تعالى — لأنها من فعله وسائر القسى من برى الناس وفعلهم[2] .

* * *

ومن التشبيهات العقم النثرية قوله — تعالى — « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم » .

« والذين كفروا أعمالهُم كسراب بقِيعة يحسبه الظمآنُ ماء ، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً » .

« وإذا غَشِيهم موج كالظُّلَل ... » .

« كأنهم جراد منتشر » .

« أو كظلمات فى بحر لجُىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرج يدَه لم يكَدْ يراها » .

* * *

ومن الحديث : « الناس سَواسية كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية » .

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

ومن صور البيان العُقْم — وإن لم يكن من التشبيهات — قول أبي نواس ، نذكره لصلته بما نحن فيه :

ودارِ ندامَى عطَّلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جرّ الزِّقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنىٌّ ويابس

حبستُ بها صحبي وجدَّدتُ عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس

---

(١) نهاية الأرب — ١ — ٩٠ .

(٢) ثمار القلوب — ١٩ .

تُدار علينا الراح فى عسجديَّة ... حبتْها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهاً تدَّريها بالقسىّ الفوارس[1]
فللراح ما زُرَّت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يومُ الترحل خامس

يريد بالعسجدية : كئوساً مذهبة فيها صور منقوشة ، وهى صورة كسرى ، وصورة المها والفوارس .

ومعنى البيت السادس : أن حد الخمر من هذه الصور التى فى الكئوس إلى التراقى والنحور ، وأنها مزجت بالماء فانتهى المزاج فيها إلى ما فوق رءوسها ، وقد يكون الحَبَاب هو الذى انتهى إلى ذلك الموضع لمأ مزجت فأزبدت .

والمعنى الأول أبدع ، وفائدته معرفة حدها صرفا من حدها ممزوجة .

وفيها يقول الجاحظ نظرنا فى الشعر القديم والحديث ، فوجدنا المعانى تقلب ويؤخذ بعضها من بعض غير قول عنترة فى الأوائل .

وخلا الذباب بها . . . . . .

وغير قول أبى نواس فى المحدثين ، الأبيات المتقدمة ،

وعن يموت بن المزرَّع : قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القَلَّال فقال والله يا أبا عثمان : إن هذا لهو الشعر ولو نقر لطنّ !

فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف .

وقد علق على ذلك ابن الأثير بقوله : ولعمرى إن الجاحظ عرف فوصف ، وخبر فشكر ، والذى ذكره هو الحق[2] .

ولكن ابن الأثير يناقض نفسه فى موضع آخر فيقول : أكثر

---

(١) تدريها : تختلها .
(٢) المثل السائر — ١٢٥ .

العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه : إنه مبتدع . ثم يقول : ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعانى قديما وحديثاً إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه ، وما أعلم أنا ما أقول لهم ولأبى نواس سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار ، وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفة لا هـذا المعنى ؛ فإنه لا كبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره .

والذى عندى فى هذا : أنه من المعانى المشاهدة فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر [١] .

فنحن نرى أن ابن الأثير فى هذا القول الأخير ، قد عدل عن موافقة الجاحظ فى وصفها بالإبداع المتفرد بعد أن وافقه أولا !

وقد اختلف الناس فى تفسير البيت الأخير ، فذهب بعضهم إلى أن الأيام سبعة : ثلاثة فى المصراع الأول ، وأربعة ذكرت مطوية فى المصراع الثانى .

والأكثرون والصولى يذكرون : أن أبا نواس مر بالمدائن فعدل إلى ساباط ، فقال له بعض أصحابه : ندخل إيوان كسرى ، قال : فدخلنا فرأينا آثاراً فى مكان حسن تدل على اجتماع كان لقوم قبلنا ، فأقمنا خمسة أيام نشرب هناك ، وسألنا أبا نواس صفة الحال فقال : « الأبيات » .

ويقول ابن الأثير : ومراده من ذلك : أنهم أقاموا أربعة أيام .

ثم يعيبه بالتكرير والتطويل : فيقول : وياعجباله ! يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العى الفاحش فى ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن [٢] .

---

(١) المثل السائر — ١٢٥ .

(٢) المصدر المتقدم — ٢٣٩ .

والمعيب : كلام ابن الأثير لا كلام النواميّ : فتكرير الأيام هنا مستملح ، لأنها أيام قصف ولهو وطرب ، فلكل يوم نصيب من اللذة ، وله وزنه فى الدهر : وقيمته فى العمر ، حتى لتستحق أن تذكر تفاريق لا جملة لمزية كل منها ، ولعله لو استطاع أن يأتى بها جميعاً على هذا الشاكلة لفعل .

فهو كمثل قول الفرزدق :

أسقنى خمسا وخمسا ... وثلاثا واثنتين

من عقار كدم الجو ... ف يحَرُّ الكليتين[1]

فالتطويل هنا غير موجود ، وقد أوقع ابن الأثير فى هذا الوهم أنه جعل الأيام أربعة .

ومعنى هذا : أن المصراع الثانى يحتوى على يوم واحد هواليوم الرابع .

ولو عرف أنه يتضمن أربعة أيام ، وأن البيت كله يشتمل على سبعة أيام ، هى الأيام التى أقاموها فى القصف كما يدل عليه الفهم الصحيح ، لعده من اللمحة الدالة لا التطويل الممل !.

نعم يعد من التطويل والفضول قول ابن حيون :

أيامشبه البدر بدر السماء ... لسبع وخمس مضت واثنتين

ويا كامل الحسن فى نعته ... شغلت فؤادى وأسهرت عينى

فإما مننت وإما قتلت ... فأنت القدر على الحالتين

لأن قوله :

لسبع وخمس مضت واثنتين

ليس فى ذكرها تلذذ ولا استرواح ، وإنما هو العى والحصر .

وكذا قول ابن الرومى :

---

(١) يحر بفتح الحاء : لازم ومتعد .

بنت سبع وأربع وثلاث أمرت قلب حبها المشتاق

فإنه يريد أنها بنت أربع عشرة سنة ، فأطال بدون فائدة .

وقد ذكروا : أن أبا نواس اهتدى إليه من قول امرئ القيس :

فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه وجاءوا بماء غير طَرْق ولا كدر[١]

فجعل الماء والشراب قسمين ، فتسلق أبو نواس عليه وأخفاه بما شغل به الكلام من ذكر الصور[٢] .

والحق أن السرقة غير واضحة ، ولا يحتاج الأمر هنا إليها : فالشاعر بسبيل وصف شىء مشاهد تكررت رؤيته : كئوس ذهبية نقشت صورة كسرى فارس فى قعرها ، وفوارس تَختل بقسيها وسهامها بقر الوحش فى جوانبها ، وخمر تبلغ من الكئوس إلى حد التراقى والنحور ، وماء يمزج بها يغطى قلانس الفرسان .

والبيت بيان لحد الخمرة الصرف من حدها ممزوجة ، وليس فى وصف الكئوس على هذه الحال مايعيا به إنسان !

وقد أخذه أبو العباس الناشىء فولد معنى زائداً[٣] : وذلك حيث يقول :

ومدامــة لا يَبتغى من ربه أحد حباه بها لديه مزيدا

فى كأسها صور تظن لحسنها عُرُباً برزن من الخيام وغيدا[٤]

وإذا المزاج أثارها فتقسمت ذهباً ودراً توءماً وفريدا

فكأنهن لبسن ذاك مجاسدا وجعلن ذا لنحورهن عقودا

---

(١) الطرق : المطروق الذى خوضته الإبل وبولت فيه .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٢ .

(٣) زهر الآداب — ٣ — ١٥٨ .

(٤) العرب بضمتين : المتحببات إلى أزواجهن جمع عروب بالفتح .

الفصل الثاني عشر

تشبيه السخرية والتهكم

هناك لون من التشبيهات يقصد منه فوق الذم ، نوع من السخرية والتهكم ؛ يستمدان عناصرهما من الوصف بأشياء تبعث على الضحك فى العادة.

وليس من الضرورى أن تكون هذه التشبيهات مقذعة ، أو جارحة للشرف ، أو قارضة للعرض ، وإن كانت لا تخلو من ذلك فى الجملة ، وإنما المهم أن تشوبها روح الهزء ، وأن يكون الغرض الأول منها ؛ اللذع والتنكيت والتَّبكيت ، وأن ترمى إلى الهزل والتندُّر أكثر مما ترمى إلى السب والقذف وبحث الأثلاث !

فن ذلك مثلا : أن نُصَيبا الشاعر خرج من عند هشام بن عبد الملك وعليه ثياب بيض ، فنظر إليه الفرزدق فقال :

كأنه لمَّــا بدا للنـاس   أيْرحمار لُفَّ فى قرطاس

فالغرض الأساسى من مثل هذا التشبيه التهزُّؤ بالموصوف ، والضحك منه ، وإن حوى ذما له بالسواد ، واختلاف الهيئة ، وعدم التناسب بالجمع بين النقيضين !

وأنت ترى حقا ؛ أن هذا الوصف يحملنا على السخرية والضحك من صاحبه ملء الأشداق ، ولكننا مع هذا لانشعر بأنه مهين أو حقير أو نذل أو ساقط ، ولا هو نفسه يحس ذلك وإن أحس الخجل ، لأن الأمر لايتعدى تصويره فى لونه ولباسه ، وماتفرَّع عنهما من هيئة ، تصويراً يطابق الحقيقة وإن لم يفطن لها الناس ، وفطن لها الشاعر الألمعى ، وليس فى ذلك انتقاص لكرامته ، وقدح فى مروءته ، ووضع من منزلته ؛ فالسواد مما

لا حيلة فيه ، والبياض فى الثياب مما يحب ويستجاد ، ولكنه الشعر الذى قال فيه أبو تمام :

يرى حكمةً مافيه وهى فكاهة ويقضَى بما يقضِى به وهو ظالم

ومن بديع ذلك قول رجل من أهل الكوفة فى المغيرة بن شعبة — وكان أعور آدم دميما — :(1)

إذا راح فى قبطية(2) متأزّرا فقل جُعَل يستن فى لبن محض

فأقسم لو خرت من استك بيضة لما انكسرت من قرب بعضك من بعض

قال ابن دريد لأبى حاتم : ما أظن أحدا سبقه إلى قوله : يستن فى لبن محض .

قال : بلى ، كان إبراهيم بن عربى واليا لليمامة : فصعدالمنبريوما ، وعليه ثياب بيض ، فبدا وجهه وكفاه ، فقال الفرزدق :

ترى منبر العبد اللئيم كأنه ثلاثة غربان عليه وُقوع

فهذا يشبه ذلك وإن لم يكنه(3) .

وهناك أسلوبان للسخرية لايكاد يكون لهماثالث ، وهما :أسلوب السخرية المباشرة ، وأسلوب السخرية التى تلف وتدور ، والتى لابد من أن تلقى العدو فى الميدان سافرة غير مقنعة ، تخيل للناس أنها تنحو سبيل الحياد ، ثم تجىء بعد ذلك فتنسف عدوها نسفا بالأساليب الدبلوماسية الناعمة الملمس .

وفى ذلك يقول جونسون : إن الفضح لا يكون ذا خطر إلا إذا حملته

---

(1) آدم : أسمر ؛

(2) القبطية على غير قياس وقد تكسر : ثياب بيض تنسب الى قبط مصر ، والجمع : قباطى بضم القاف وفتحها .

(3) أمالى القالى — ١ — ٢٨٢ .

مركبة من الكياسة والذكاء . والفرق بين الفضح الفج وبين الفضح المهذب هو كالفرق بين الرأس الذى تهشمه هراوة ضخمة ، والرأس الذى يودى به سهم مسموم[١] .

وليست طريقة السخرية سهلة ميسرة لكل أديب وشاعر ؛ لأن ذلك يرجع إلى مواهب رزقها أفراد قليلون فى الزمن المتطاول .

ونحن نعرف مئات من الناس بل ألوفا ، ولا نكاد نعثر بينهم على واحد خفيف الظل ، طيب النفس ، لطيف الروح ، رقيق المزاج ، حلو النادرة .

وأحسب أنه قد تمر عصور ، وتتعاقب أجيال ، ولا يجود الزمان بمثل نجيب الريحانى مثلا ؟

والإجماع منعقد على أن مجالس الأنس والظرف والانبساط والمفاكهة قد أجدبت بموت البابلى، وإمام العبد، وعبد العزيز البشرى، وحافظ إبراهيم وغيرهم من زعماء النكتة ، ولا تزال أماكنهم شاغرة تنتظر من يملؤها .

وفن الهجاء نفسه لا يجيده كل شاعر ؛ لأن بعض النفوس لم تؤت موهبته ، وقد كان البحترى — وهو علم من أعلام الشعر ، وثانى المطبوعين على خياله بعد أبى نواس — فى حكم النقاد بكيئا متخلفا فى الهجاء ، لا يواتيه منه إلا الرذل السخيف المخشوب ، الذى ينال من قائله أكثر مما قيل فيه ، على حين نرى جماعة من الشعراء على رأسهم الحطيئة ، وبشار ، وابن الرومى كأنهم خلقوا له ؛ لكثرة ما تصرفوا فى فنونه ، ولجريانه على ألسنتهم بلا جهد ولا كلفة ، حتى لتخالهم عقارب شائلة الأذناب، مسوقة إلى ضرب كل ما لامسته بحكم الفطرة .

وهذه النزعة التهكمية قديمة قدم الإنسان ؛ فهى تتخلل أحاديثنا اليومية

---

(١) مجلة الربيع السنة الأولى العدد السادس — ٧٥ .

ومشاجراتنا فى الحياة قبل أن تسجلها بطون الكتب ؛ نراها فى هجاء زهير لآل حصن حيث يقول :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

ولكن جريراً هو الذى أرسى قواعدها ، وثبت أركانها ، ووطأ نهجها حتى عرف بها وعرفت به ، فقد كانت عادته فى الهجاء أن يتلعب بالمهجو ويعبث به ليملأه غيظا وحنقا .

وقد أوصى بذلك الشعراء فقال : إذا هجوت فأضحك[١] .

وقد أضحكنا جرير كثيراً من هجائه ومن المهجو به معا ، وإن صحب هذا الضحك كثير من التقزز والاشمئزاز .

ومن الذى لا يضحك بكل فه ، ومن كل قلبه حين يسمع قوله[٢] :

تَعرَّض التَّيم لى عمداً لأهجوها كما تعرضَ لاستِ الخارئ الحجرُ[٣]

* * *

كأن وجوه السيِّد[٤] حول ابن أختهم وجوه خنازير يراقبن خاريا

* * *

كأن بنى طُهيَّة رهط سلمى حجارة خارئٍ يرمى كلابا

* * *

إذا ضحكت شبَّهت أنيابها العُلا خنافسَ سوداً فى صَراة[٥] قليب

* * *

---

(١) العقد الفريد — ٣ — ٣٩٨ .

(٢) ديوانه — ٦٦ — ٨١ — ١٧٢ — ٣١٦ .

(٣) التيم : تيم عدى وكانت ترمى بالخسة .

(٤) السيد من بنى ضبة أخوال الفرزدق :

(٥) الصراة بالفتح : الماء المجتمع المتغير .

ولو وضعت فِقاح بنى نمير على خبث الحديد إذا لذابا
فصبراً يا تيوس بنى نُمَير فإن الحرب موقدة شهابا

* * *

إذا جاء روح التغلبى من استه دنا قبضُ أرواح خبيث مآلها

* * *

أيفخر عبد أمه تغلبية
قد اخضرَّ من أكل الخنانيص[1] نابها
غليظة جلد المِنخَرين مُصِنَّة على أنف خنزير يشُدّ نقابها

* * *

أمسى الفرزدق يا نَوار[2] كأنه قرد يحث على الزناة قرودا

* * *

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا[3]

على أنه حينا كان يقنع بالتهكم المحض، والسخرية الخالصة، فلا يخلطها بشىء من هذه المقاذير التى كان يلهج بها، كقوله للفرزدق:

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعا أبشر بطول سلامة يامربع

وقوله للراعى النميرى:

فغض الطرف إنك من نُمَير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومثل هذا الهجاء الخالى من الفحش، يعرف عند أهل البديع بالنزاهة.

ومع ذلك ألست ترى أن طريقة جرير فى جملتها، هى طريقة أولاد البلد فى تلاحيهم وشتائمهم وسبابهم وتهكمهم.

---

(١) الخنانيص: صغار الخنازير جمع خنوص بكسر الخاء وتشديد النون المفتوحة.
(٢) النوار. زوج الفرزدق وبنت عمه.
(٣) استدار: تحول، وبهذا البيت يشير جرير الى نظرية درون من غير قصد.

إن الفائز منهم فى ميدان اللدد والملاحاة ، ليس هو الذى يفحش فى سبابه ، ولكن هو الذى يستطيع أن يجعل خصمه أضحوكة السامعين ، وموضع لهوهم وتندرهم ! .

ومن الطرائف التهكمية : أن إحدى السيدات الإنجليزيات ، شكت مرة شكوى عجزت عن تفسيرها ، فقالت : إن أظافرى يعلوها القذر أيام إقامتى بلندن ! .

فأجابها الدكتور صموئيل جونسون من فوره : قد يكون هذا راجعا إلى أنك تحكّين جلدك بتلك الأظافر .

ومن الواضح : أن قواعد اللياقة والسلوك تأبى أن يقول سيد لسيدة : إنها قذره ، ولكن جونسون بطريقته البارعة فى تركيب الجمل ، قد تجنب نقد الناقدين ، فقال ما يريد أن يقول دون أن يفصح عنه .

وهو يظفر ببعض إعجابنا لقدرته على أن قال قولته تلك !

ومن هنا تبدو السخرية وكأنها نوذج من القول السيء المرخص به .

وترى هذه السمة واضحة فى بعض أهاجى الشعراء كقول جوّاس — يهجو بعض القبائل — :

كأن خُروء الطير فوق رءوسهم   إذا اجتمعت قيس معا وتميم

جعلهم أذلاء يسكتون إذا اجتمعت القبائل فى الموسم ، كأنما على رءوسهم خروء الطير لا الطير فقط .

وقول يزيد بن قُنافة الطائى — يهجو حاتم طىء — :

غداة أتى كالثور أحرج فاتقى   بجبهته أقتاله وهو قائم

يصف حاتما على سبيل السخرية : بأنه خرج على أقرانه المقاتلين له مثل الثور الهائج إذا ضيّق عليه ، فلما جاء وقت الدفاع ولى منهزما !

وقول حُريث بن عتّاب النبهانى — يهجو بنى ثُعَل — :

دِيافيَّة[1] قُلف كأن خطيبهم ... مَبراةَ الضحا فى سَلْحه يتمطّق

يصف خطيبهم إذا تكلم عنهم : بأنه يتلجلج فى كلامه لعيه ؛ كأنه يتمطق فى خرئه .

وقول الأخطل يهجو :

والخبز كالعنبر الوردىّ عندهم ... والقمح سبعون إردبا بدينار

وقول الحارث الخفاجى :

وتزيَّنت لــتروعنى بجمالهــا ... فكأنما كُسِىَ الحمار خُمارا

خرجت أعثر فى قوادم جبتى ... لولا الحياء أطرتها إحضارا[2]

وقول أعرابى — يهجو زوجه — :

إذا سفَرت كانت لعينك سُخنة ... وإن بُرقعت فالفقر فى غاية الفقر

حديث كخلع الضرس أو نتف شارب ... ودلّ كهشم الأنف عيل به صبرى

وتفترّ عن ثلج عدمت حديثها ... وعن جبلى طىء وعن هرمى مصر

وقول شاعر — يهجو بخيلا — :

نوالك دونه خَرْط القتاد ... وخــبزك كالثريا فى البِعاد

ولو أبصرت ضيفا فى منام ... لحرّمت المنام إلى التنَادى

أرى عمر الرغيف يطول جدا ... لديك كأنه من قــوم عاد

وقول الناجم فى لحية :

ولحية يحملهــا مائق ... مثل الشِّراعين إذا أشرِعا

لو غاص فى البحر بها غوصة ... صاد بها حيتانه أجمعا

---

(١) ديافيــة : أى أنباط منسوبون إلى دياف ؟ وهى أرض بالشام لهم ، وقلف : غير مختونين جمع أقلف ، ومبراة الضحا : وسطه . والسلح : العذرة . والتمطق : التذوق بضم إحدى الشفتين على الأخرى مع صوت بينهما .

(٢) الإحضار : ضرب من العدو .

وقول آخر :

ألم تر أن الله أعطاك لحية ... كأنك منها قاعد فى جُوالق

وقول آخر :

وله لحية تيس ... وله منقار نسر

وله نكهة ليث ... خالطت نكهة صقر[١]

وقول الثعالبى :

لى صاحب لايسمَّى ... بين الورى إنسانا

لأنه التيس قَرنا ... ولحيــة وصُنانا

وقول آخر — يهجو بقبح الخلقة — :

أما الرجال فجِعلان ، ونسوتهم ... مثل القنافذ لا حسن ولا طيب

وقول ابن شُهيد الأندلسى :

ويح الكتابة من شيخ هبنّقة ... يلقى العيون برأس مخّه رار[٢]

ومنتن الريح إن ناجيته أبدا ... كأنما مات فى خيشومه فار

وقول المنفتل القرطبى — يهجو ميمون الفراء — :

لابن ميمــون قريض ... زمهرير البرد فيــه

فإذا بيَّت بيتـا ... نفقت سوق أبيه[٣]

وقول بعض العرب :

نِفرِجَة ينفر من ظل الشجر ... فؤاده أنثى وضرسه ذكر[٤]

---

(١) يوصف الليث والصقر بالبخر لقلة ريقهما .

(٢) الهبنقة : الأحمق والقصير ؛ واسم « جحا » والرار والرير : الفاسد .

(٣) يريد أن البرد يشتد إذا نظم شعره فيحتاج الناس الى شراء الفراء المدفئة .

(٤) النفرجة : الجبان .

وقول دعبل :

وإن له لطبّـــاخا وخبزاً ‏ ‏ ‏ ‏ وأنواع الفواكه والشراب

ولـكن دونه حبس وضرب ‏ ‏ ‏ ‏ وأبواب مُطابَق دون باب

يذودون الذباب يمر منه ‏ ‏ ‏ ‏ كأمثال الملائكة الغضاب

وقول السُّلامى :

يحلو بأفواه الأصابع صفعه ‏ ‏ ‏ ‏ حتى كأن قذاله من سُكَّر

وقول الناجم :

يُنقِّص الأحرارَ من شأنهم ‏ ‏ ‏ ‏ وهو أخو القِـلة والنقص

كأنه البرغـــوث لم يُخطِـه ‏ ‏ ‏ ‏ فى صغر الجثمان والقرص

وقول أبى نواس فى الهجاء بالبخل :

على خبز إسماعيل واقية البخل ‏ ‏ ‏ ‏ فقد حلَّ فى دار الأمان من الأكل

وما خبزه إلا كآوى يُرى ابنه ‏ ‏ ‏ ‏ ولم ير آوى فى حُزون ولا سهل

وما خبزه إلا كعنقاء مُغرب ‏ ‏ ‏ ‏ تصوَّر فى بسط الملوك وفى المثْل (١)

يحدث عنها الناس من غير رؤية ‏ ‏ ‏ ‏ سوى صورة ماقد تمر مع النقل

وما خبزه إلا كليب بن وائل ‏ ‏ ‏ ‏ ليالى يحمى عزُّه منبت البقل

وإذ هو لا يَستَبُّ خصمان عنده ‏ ‏ ‏ ‏ ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل

فإن خبز إسماعيل حلَّ به الذى ‏ ‏ ‏ ‏ أصاب كليبا لم يكن ذاك عن ذل

ولـكن قضاء ليس يُستطاع دفعه ‏ ‏ ‏ ‏ بحيلة ذى مكر ولا فكر ذى عقل

وقول ابن المعتز :

---

(١) عنقاء مغرب: يقال : العنقاء المغرب، وعنقاء مغرب ومغربة على الوصفية ، وعنقاء مغرب على الإضافة .

ويُبرز للرائين وجهـا كأنه كساه أبوه من قشور الخنافس

وقول أبي الشمقمق :

الطريقَ الطريقَ جاءكم الأحمق م رأس الأتان والقـذره

وابن عم الحمار في صورة الفيل م وخال الجاموس والبقـره

يمشي رويداً يريد خِلْعَتَكم كمشي خنزيرة إلى عَذِره

وقول أبي عثمان الخالدي :

ولي صاحب نحس على كل صاحب هو الداء أعيا أن يصيب دواءَ

أخفُّ الورى عقلا وأثقل طلعة وأخرم إلا أن يقول خَطاء

وقول الصاحب :

زادت قرونك يا عمير م على مساويك الجليّهْ

وأقل قرن حزته كمنارة الإسكندريهْ

وقول غرارة الخياط في هجاء أبي السميّ المغني :

كأن أبا السميّ إذا تغنَّى يحاكي عاطساً في عين شمس

يلوك بلَحيه طورا وطورا كأن بلحيه ضرَبان ضرس

وقول بعض الظرفاء في ثقيل :

أنت والله ثقيل وثقيـل وثقيل

أنت في المنظَر بستا ن وفي المخبَر فيل

وقول الأسعد بن بليطة في أسود :

يا رب زنجي لموت به الشمسُ عند سناه ممقوته

مُحدودِب قد غاب كاهله في منكبيه فلا ترى لِيتَه(١)

---

(١) الليت بالكسر : صفحة العنق

قد أحكم التجعيد لمتنـــه فتراكمت فكأنها نُوته

وإذا سعى بالكأس تحسبه جُعَلا يدحرج فص ياقوته

وكأنه والكأس فى يده نجم رمى فى الجو عفريته

وفى البيت الرابع يقول ابن بسام[1] . وهو مأخوذ من قول ابن زرقون الأندلسى فى الكميت الشاعر :

تأملت الكميت وقد علاه من الأثواب ثوب ذو احمرار

فقلت لصاحبى جُعَل تمشَّى لعمرى فى ثياب الجُلَّنار

ورأيي أنه مأخوذ من قول بعض أهل الكوفة المتقدم فى المغيرة ابن شعبة :

إذا راح فى قبطية متأزِّرا فقل جعل يسْتنُّ فى لبن محض

ونحب أن يلاحظ : أن الهجاء فى العصر العباسى قد تنوع وتلون ، فشمل العيوب الجسمية ، وما يخالف آداب اللياقة والسلوك ، لانتشار الترف والرفاهية ، ورقى الذوق الجماعى والفردى ، وقد مر طرف من ذلك .

ونحب أن نقول : إن ابن الرومى ورث طريقة جرير وأمعن فيها وأمدته الحضارة بما يشبع سفاهته الجِبلِّيَّة ونهمه إلى التشفى والانتقام ، فأتى فى ذلك بالعجب العجاب !

فمن ذلك قوله فى ضرطة سليمان بن وهب[2] :

ما لقينا من ظرف ضرطة وهب تركت أهل دهرنا شعراء

---

(١) الذخيرة — ٢ — ٣٩٥ .

(٢) هو وهب بن سليمان بن وهب صاحب بريد الحضرة ، أفلتت منه ضرطة فى مجلس الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان ، فطار خبرها وتغنى بها الشعراء وصارت مثلا فى الشهرة ، حتى قالوا : أشهر من ضرطة ابن وهب وأفظع من ضرطة ابن وهب ، وعمل أحمد بن طاهر كتابا فى ذكرها والاعتذار عنها .

هى عندى كجود فضل بن يحيى غير أن ليس تنعَش الفقراء

وقوله فى ثقيل بارد :

يا أبا القاسم الذى ليس يدرى أرصاص كيانه أم حديد

أنت عندى كماء بئرك فى الصيف م ثقيل يعلوه برد شديد

وقوله فى صَلَعة أبى حفص الوراق :

يا صَلْعة لأبى حفص ممرّدة كأن ساحتها مرآة فولاذ

ترِنّ تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداذ

وقوله :

وجهك يا عمرو فيه طول وفى وجوه الكلاب طول

وأنت من بيت أهل سوء قصتهم قصة تطول

وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبول

مستفعلن فاعلن فعول مستفعلن فاعلن فعول

بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

وقد انتهى فن السخرية فى العصر العباسى الثانى إلى المعرى ، فنقد كل شىء ، وسخر من كل شىء ، وأعانه على ذلك علم غزير ، واطلاع واسع ، ولسان زليق ، وبيان طليق ، وأفق رحب ، وبصيرة نافذة ، وعاطفة حية ، وزهد فى الدنيا ، وتسام على الزمان ، واستهانة بالناس ؛ فترك نفسه على سجيتها ، وعلى ما خيّلت يجد بالمجتمع ويهزل لا يرجوه ولا يخشاه !

وقد ورد للعرب أشعار تضمنت تشبيهات بما كانوا يلذّونه من الأطعمة والأشربة كقول شاعر :

كأن ثناياها وما ذقت طعمها لِبَا نعجة سوّطنه بدقيق

اللبأ بكسر ففتح : أول اللبن ، والتسويط : خلط الشيئين فى الإناء ، ثم ضربهما باليد حتى يختلطا .

شبه ريقها بلبن النعجة أول ولادتها وقد خلط بالدقيق .

وقول آخر :

رمتنى بسهم الحب أما قِذاده   فتمر وأما نصله فسويق

القذاد : ريش السهم جمع قذة بالضم ، والسويق : ما يعمل من الحنطة والشعير .

يريد أنها كانت تطعمه التمر والسويق ؛ فهو لذلك يحبها .

وقول آخر :

ألا رب خوْد عينُها من خزيرة   وأنيابها الغُرّ الحسان سويق

والخزيرة : لحم يقطع صغاراً ، ويغلى بماء ويذرّ عليه الدقيق .

شبّه عينها بهذا اللون من الطعام .

وقيل : المقصود بذلك بنو مجاشع من تميم ، وقريش ، وكانت العرب تعيرهما بأكل الخزيرة .

وقول آخر :

فما صحفة مأدومة بإهالة   بأطيب من فيها ولا أقِط رطب

والإهالة كل ما يؤتدم به . والأقِط : ما يتخذ من المخيض الغنمى .

يريد : أن ترشف فمها أطيب مذاقاً من طعم هذين الطعامين !

وقول آخر :

فإنك إذ ترى عرَصات جُمل   بعاقبة فأنت إذن سعيد[1]

---

(١) العرصات : الأمكنة الواسعة ، جمع عرصة كثمرة . وبعاقبة : أى عقب معرفتها .

لها عينان من أقط وتمـــر   وسائر خلقها بعـــد الزبد

يريد بالأقط والتمر : ما اجتمع فى عينيها من بياض وسواد ، وبالزبد لين جسمها وغضارته !

وقد أدخل أبو تمام هذا اللون فى باب الملح من ديوان الحماسة(١) .

ومن أدباء المنثور الذين عرفوا بالتهكم : الجاحظ وأبو العيناء .

ولكن ليس فى أدباء العربية جميعاً ، من يصح أن يوصف بأنه بلغ مبلغ فولتير وأناطول فرانس .

وقد عرف الأول بين الغربيين بالكاتب الساخر(٢) .

هذا ، وقد يختلط على الناس الفرق بين الفكاهة والهزل . وقد فرق بينهما جورج ديهاميل(٣) : بأن الهزل يرمى إلى إثارة الضحك ، كما أن له أسلوباً خاصاً ، ولغة خاصة ، ومعجما خاصاً ، بحيث يصعب أن يجاور المآسى .

وهو يتميز من المزح الخالص الذى هو حالة نفسية عارضة ، يطول أو يقصر دوامها ، وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس .

وروح الفكاهة نوع من التعبير فى الضياء ، يمكننا ان نرى الشىء فى كافة مظاهره . ولقد يكون من بين تلك المظاهر تناقض، بفضله تكتسب المظاهر دلالاتها .

إن فى روح الفكاهة نوعا من الخفر والتحفظ ، وتملك النفس ، لا يعرفه الهزل الصريح ، ولكنها — إن أصبحت مذهبا يصطنع —

---

(١) ديوان الحماسة — ٢ — ٤٠٤ .

(٢) أبو العلاء ناقد المجتمع — ١٥٣ .

(٣) دفاع عن الأدب — ٢٢٥ — ٢٢٦ .

انحرفت عن سبيلها ، وأخطأت هدفها ؛ إذ لا يجوز أن تظهر إلا تحت ضغط الملابسات .

والهزل عزمة منعقدة منذ البدء على إثارة الضحك ، بينما الفكاهة لا تضحك دائما ، وإن ضحكت فذلك لأنها لا تستطيع أن تتجنب هذا الضحك .

وروح الفكاهة استعداد طبيعي فى نفس صادقة ، لا تصدف أن تعرف كل ما ترى ، وأن تقول كل ما تعرف .

فهرس لأمهات المسائل

الفصل الأول

الفصل الرابع

الواو وكثرة ورودها فى شعر الغزل وسبب ذلك . واوات الأصداغ فى البلاغة . حشو اللوزينج . واو عمرو وما جاء فيها . النون . الحرف المشدد . لا . الشكلتان وما قيل فيهما . عطفة الراء . السين . الشين . الصاد . العين . الميم . النقطة . أمثلة تنتظم التشبيهات المتقدمة . نوع من التوليد الغريب . تشبيهات الحروف فى الرسائل الإخوانية .

الفصل الحادى عشر

التشبيهات العقم ٣١٣ — ٣٣٥

معنى التشبيه العقيم وسبب هذه التسمية واشتقاقها . التشبيه الولود . ورود بعض الكلمات فى جميع اللغات . تشبيهات زالت عنها صفة الاختراع . أوائل التشبيهات العقم . أمثلة للتشبيهات العقم فى أغراض مختلفة . وصف الفرس . الضب . الزرافة . النسور . وصف بديع للمرأة . التقسيمات البديعة . وصف عنترة لذباب الروض وإعجاب النقاد به . خطأ عنترة فى هذا الوصف وعدم تنبه القدامى له . تقليد الشعراء لعنترة فى وصف الذباب . لا يصح التعرض لتقليد المعانى المشهورة . وصف ذى الرمة لليل وما قيل فيه . تشبيهات عقم لابن الرومى وتحليلها . قوس قزح وما قيل فيه . التشبيهات العقم فى القرآن والحديث . وصف أيام قصف لأبى نواس وتصاوير الكئوس وتقليد الشعراء له ، مع شرح ذلك وإيراد آراء النقاد فيها .

الفصل الثانى عشر

تشبيه السخرية والتهكم ٣٣٦ - ٣٥٠

بيان كنه هذا التشبيه وجوهره . الغرض الأساسى منه . العناصر المؤلفة له . تشبيه عجيب فى قصير أسود . روح الفكاهة والتندر وقلتها فى الناس . فن الهجاء مقصور على بعض الشعراء . النزعة التهكمية فى الشعر الجاهلى . طريقة جرير فى الهجاء وآثارها الموجعة . أمثلة من تشبيهات السخرية والتهكم . براعة ابن الرومى فى الهجاء . تنوع الهجاء فى العصر العباسى وتناوله العيوب الجسمية وآداب اللياقة والسلوك وسبب ذلك . سخرية أبى العلاء بالمجتمع . تشبيهات العرب بما يلذونه من الطعام والشراب ودخول ذلك فى باب الملح . الجاحظ وأبو العيناء والتهكم .

المراجـــع

التى ورد ذكرها فى الأجزاء الثلاثة مرتبة على حسب ورودها

الكتاب	المؤلف	الكتاب	المؤلف
نقد النثر	قدامة ؟	نهاية الإيجاز	الرازى
البيان والتبيين	الجاحظ	مفتاح العلوم	السكاكى
نفح الطيب	المقرى	الطراز	العلوى
ديوان أبى تمام		أسرار البلاغة	« عبد القاهر
ديوان البحترى			الجرجانى »
الأمالى	القالى	شرح الفوائد الغيائية	المولى عصام
ديوان المتنبى		حاشية عقود الجمان	المرشدى
الموشح	المرزبانى	شرح عقود الجمان	السيوطى
ديوان العباس بن الأحنف		مواهب الفتاح	المغربى
الأسلوب	أحمد الشايب	حاشية الدسوقى على السعد	
ديوان كشاجم		طراز المجالس	الشهاب الخفاجى
الأقصى القريب	التنوخى	خزانة الأدب	الحموى
زهر الآداب	الحصرى	ديوان عمر بن أبى ربيعة	
العمدة	ابن رشيق	« ابن الرومى	
مناهج البحث	سامى النشار	الشوقيات	
ديوان الأعشى		المثل السائر	ابن الأثير
« حافظ إبراهيم	« طبع وزارة	كنز البلاغة	« «
	المعارف	عروس الأفراح	ابن السبكى
« السرى الرفاء		حسن المحاضرة	السيوطى

الكتاب	المؤلف	الكتاب	المؤلف
فن القول	أمين الخولى	الكامل	المبرد
الفصول الفنية للأدب	عبدالحميد حسن	رغبة الآمل	المرصفى
القاموس المحيط	الفيروزا باذى	البديع	ابن المعتز . ط
الصحاح	الجوهرى		الأستاذخفاجى
الصناعتين	العسكرى	نقد الشعر	قدامة
ديوان ابن هانئ		شرح لامية العجم	الصفدى
« ابن المعتز		العرف الطيب	اليازجى
« الشريف الرضى		دراسات فى علم النفس	حامد عبد القادر
« ذى الرمة		الأدبى	
الإيضاح	القزوينى	ديوان الأمير تميم	
التلخيص	«	« ابن سناء الملك	
شرح التلخيص	البرقوقى	« البارودى	
حسن التوسل	الحلبى	« أبى فراس	
حدائق السحر	الوطواط ، ترجمة	« ابن حمديس	
	الدكتور الشواربى	صريع الغوانى	حسن علوان
المصباح المنير	الفيومى	ديوان زكى مبارك	
الحيوان	الجاحظ ، ط .	« ابن النبيه	
	الساسى ،	« ابن خفاجة	
ديوان امرئ القيس		« ابن نباتة	
« جرير		« دعاء الكروان	العقاد
« الفرزدق		خزانة الأدب	البغدادى
« البهاء زهير		ديوان المعانى	العسكرى
		مختار الشعر الجاهلى	مصطفى السقا
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	إعجاز القرآن	الباقلانى

الكتاب	المؤلف	الكتاب	المؤلف
الفن ومذاهبه فى الشعر	الدكتور شوقى	نهاية الأرب	النويرى
	ضيف	رسائل البلغاء	جمع الأستاذ
فنون الأدب	تشارلتن «ترجمة		كرد على
	الدكتور زكى نجيب	الوساطة	القاضى الجرجانى
بلاغة أرسطو	الدكتور سلامة	الذخيرة	ابن بسام
الأمالى	المرتضى	سلافة العصر	المدنى
وفيات الأعيان	ابن خلكان	مطالع البدور	الغرولى
تزيين الأسواق	الأنطاكى	الأغانى	الأصفهانى ط
نزهة الألبا	الأنبارى		دار الكتب
شرح المعلقات	الزوزنى	سراج الملوك	الطرطوشى
ثمار القلوب	الثعالبى	فلسفة البلاغة	جبر ضومط
بلاغة العرب	الدكتور أحمد	الانتصاف	ابن المنير
	ضيف	ألحان الأصيل	على الجندى
العقد الفريد	ابن عبد ربه	سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجى
ديوان أبى نواس		دفاع عن الأدب	ديهاميل ترجمة
« الصنوبرى			الدكتور مندور
مقامات الحريرى		يتيمة الدهر	الثعالبى
ديوان الصفى الحلى		طوق الحمامة	ابن حزم
أساس البلاغة	الزمخشرى	صرخة فى واد	محمود غنيم
الكشاف	«	ديون صالح بن	
ديوان الحماسة	أبو تمام	عبد القدوس	
معاهد التنصيص	العباسى	« فؤاد الخطيب	
فوات الوفيات	الكتبى	« محمد الأسمر	
أصول النقد الأدبى	أحمد الشايب	نهج البلاغة	الإمام على

الكتاب	المؤلف	الكتاب	المؤلف
		ديوان نابغة بنى شيبان	
التجديد فى الأدب المصرى	عبد الوهاب	ديوان عنترة	
	حمودة	أوهام الشعراء	تيمور « باشا »
ديوان الصبابة	ابن حجلة المغربى	المواهب الفتحية	حمزة فتح الله
مصارع العشاق	السراج	ثمرات الأوراق	الحموى
شرح المفصل	ابن يعيش	نثر النظم وحل العقد	الثعالبى
الخصائص	ابن جنى	إقامة الحجة	الحضرمى
جريدة أخبار اليوم	مصطفى وعلى أمين	المجمل فى فلسفة الفن	كروتشة
فن الأسجاع	على الجندى	أمراء البيان	كرد على
التجريد	البنانى	الغرائز	الغمراوى
فلسفة الجمال	جاريت ترجمة	مسائل فى فلسفة الفن	جويو « ترجمة
	الدكتور عبد الحميد	المعاصرة	الدروبى »
	يونس	مقدمة فى علم النفس	شارل بلوندل
		الاجتماعى	« ترجمة
ذيل الأمالى	القالى		الدكتورين
روض الأخبار	محمد بن قاسم		قاسم وسلامة»
عيون الأخبار	ابن قتيبة	مجلة العالمين	أغسطس ١٨٨١
المستطرف	الأبشيهى	شعراء مصر	العقاد
علم النفس	على الجارم	أغاريد السحر	على الجندى
	ومصطفى أمين	فى الأدب الجاهلى	الدكتور طه حسين
ديوان حافظ	الطبعة الأهلية	ثمار الأزهار	ابن منظور
« محمود حسن إسماعيل		هبة الأيام	البديعى « ط
تحرير التحبير	ابن أبى الإصبع		محمود مصطفى »
ديوان صردر		أدب الكاتب	ابن قتيبة

الكتاب	المؤلف	الكتاب	المؤلف
شعر الطبيعة	سيد نوفل	الأوراق	الصولى
خواطر الخيال	كامل حجاج	معروف الرصافى	الدكتور بدوى طبانة
الرمزية والأدب العربى	أنطون غطاس	ديوان القروى	رشيد سليم خورى
دفاع عن البلاغة	الزيات	على هامش النقد والأدب	على أدهم
الأهرام	١٣/١١/٥٢	النقد المنهجى	الدكتور مندور
مدارك التنزيل	النسفى	شفاء الغليل	الشهاب الخفاجى
مجلة الكتاب	١ / ١٩٤٨	كنايات الأدباء	القاضى الجرجانى
بدائع البدائه	ابن ظافر الأزدى	الكنايات	الثعالبى
المقتطف	١٢ / ١٩٤٤	جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشى
مدامع العشاق	زكى مبارك	الخيال فى الشعر العربى	السيد الخضر حسين
النجوم الزاهرة	ابن تغرى	الميسر والأزلام	عبد السلام هارون
النثر الفنى	زكى مبارك	أسرار الحياة الزوجية	ترجمة نقولا الحداد
مبادىء علم النفس التعليمى	أحمد زكى	الغزل فى الشعر الجاهلى	الدكتور الحوفى
من حديث الشعر والنثر	الدكتور طه حسين	تعليقات على مسائل	الدروبى
بغية الإيضاح	عبد المتعال الصعيدى	فى فلسفة الفن	
طبقات الشعر والشعراء	الجمحى	المزهر	السيوطى
مجلة الكواكب	عدد ٣٢ ص ٤٤	الدرر اللوامع	الشنقيطى
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجانى	شعراء النصرانية	الأب لويس شيخو
التقرير	الأنبابى	الحيوان	الجاحظ ط
الإشارة إلى الإيجاز	ابن عبد السلام		عبد السلام هارون
فلسفة السعادة	الدكتور محمد فتحى	لسان العرب	ابن منظور
الموازنة بين الشعراء	زكى مبارك	المقصورة	حازم
قلائد العقيان	الفتح بن خاقان	أبو العلاء ناقد المجتمع	الدكتور المحاسنى
تيارات أدبية	دكتور إبراهيم سلامة	مجلة الربيع السنة الأولى	
دولة النساء	البرقوقى	العدد السادس	

مطبعة الرسالة
٣ شارع حموده المقاول - عابدين

